غسان حرب
حياة حافلة ووداع مهيب

إعداد: محمود شقير

Digitized by Birzeit University Library

335469

غسان حرب
حياة حافلة ووداع مهيب

إعداد: محمود شقير

Rec 2019-10-30

DS
126.6
.H364
G437
2019

81386
BIRZEIT UNIVERSITY LIBRARY
174818

٢٠١٩

Digitized by Birzeit University Library

غسان حرب

حياة حافلة ووداع مهيب

إعداد: محمود شقير

بدعم من:

مؤسسة فؤاد نصار لدراسات التنمية

تصميم وطباعة: شركة أفكار للطباعة والتصميم

الطبعة الأولى

رام الله ٢٠١٩

جميع حقوق الطبع محفوظة لمؤسسة فؤاد نصار وعائلة غسان حرب، ولا يسمح بإعادة إصدار أو طباعة أو ترجمة هذا الكتاب أو جزء منه دون إذنهما.

Digitized by Birzeit University Library

هذا الكتاب

قبل خمس وثلاثين سنة رحل غسان حرب، أحد المثقفين البارزين في الحزب، وكان في عزّ نشاطه السياسي والصحافي والأكاديمي، كما كان يواصل تطلّعه إلى مزيد من التحصيل العلمي وخدمة الأجيال الصاعدة من طلاب الجامعة وطالباتها.

مرض السرطان لم يمهل المناضل المثقف الإنسان غسان حرب طويلًا؛ مات في العام ١٩٨٤ وله من العمر أربع وأربعون سنة. كان غسان قبل وفاته في بعثة إلى إحدى جامعات الولايات المتحدة الأمريكية لتحصيل الدكتوراة في الإقتصاد، لكنه لم يكمل دراسته بعيدًا من الوطن، فقد اختار أن يعود إلى فلسطين، إلى رام الله التي أحبها، لكي يموت قريبًا من الأهل والأحباب، وتلك مفارقة مؤلمة إلى حد كبير.

في ذكراه الخامسة والثلاثين، نستذكره لكي نؤكّد على ما قطعه المرض من سيرته؛ ومن جدّه واجتهاده وتفانيه في التضحية من أجل شعبه، وفي حرصه الشديد على تثقيف الأجيال الجديدة لكي تكون مؤهلة لمواصلة المسيرة، ولخدمة الوطن والناس مثلما أراد لها غسان أن تكون.

لذلك؛ كنا حريصين في هذا الكتاب وبجهد مشكور من زوجته عفاف وابنيه فجر وفادي، وبالشهادات التي كتبها رفاق لغسان ورفيقات وأقارب وقريبات وأصدقاء وتلاميذ، وكذلك؛ بالمقالات وبكلمات التأبين التي أعقبت رحيل غسان، على أن نعيد التذكير بما كان عليه غسان، وبما كان يمكن أن يبلغه غسان لو أن الموت لم يختره في وقت مبكر، وهو الكريم ابن كرام الناس، أثناء سعيه إلى مزيد من التحصيل العلمي والاجتهاد، وإلى وضع معرفته النظرية في علاقة فعلية مع الواقع؛ واقع بلادنا المحتلة، لفهم هذا الواقع وللتأثير فيه على النحو المأمول.

Digitized by Birzeit University Library

نعرض هنا في هذا الكتاب صفحات من سيرة الرفيق غسان حرب الذي التحق بالحزب الشيوعي وهو على مقاعد الدراسة الثانوية في المدرسة، كان فتى يافعًا في ذلك الزمان، ومع ذلك فقد التزم بالموقف الثوري الذي يتعيّن على المناضلين أن يقفوه، واحتمل شظف السجن الصحراوي الذي أمضى فيه ثماني سنوات مع المئات من رفاقه الشجعان، وحين غادر السجن مع الرفاق ومع مناضلي التنظيمات الوطنية الأخرى في العام ١٩٦٥ بعد العفو العام، فإنه لم يتوانَ عن مواصلة تحصيل العلم، إذ سافر إلى الاتحاد السوفياتي للدراسة وللتخرج في الجامعة هناك بشهادة في الإقتصاد.

وبعد العودة إلى الوطن، أضيف إلى سنوات الجفر الثماني ما يقارب ثلاث سنوات في سجون المحتلين الإسرائيليين، أمضاها غسان بين رفاقه المعتقلين مرشدًا ومعلمًا وخادمًا للجميع كما ورد في مقالة كتبها عنه أحد الرفاق في هذا الكتاب.

كان غسان طوال مسيرته في الحياة إنسانًا نبيلًا متواضعًا مخلصًا للقيم النبيلة التي تربى عليها، مضحيًا في سبيل شعبه، مجدًا في الحياة، محبًا للناس، راغبًا في مدّ يد العون والمساعدة لهم، محبوبًا من كل الذين عرفوه وعمل معهم أو التقى بهم أو عايشهم، وكان في الوقت نفسه محبوبًا من الأطفال بسبب تعاطفه معهم واهتمامه بهم؛ يؤكد ذلك ما كتبته عنه حنان، ابنة شقيقه طلعت، وهي تتذكره حين كانت طفلة ولها من العمر ثماني سنوات، وما كتبته عنه حفيدته دانا ابنة العشر سنوات، التي ولدت بعد رحيل جدها غسان بسنوات، لكنها تعرفت إلى مزاياه من كلام الأهل والأقارب عنه.

لكلّ هذه المواصفات العالية التي اتّصف بها غسان، نعيد نشر بعض مقالاته التي كانت تُنشر على صفحات جريدة «الطليعة» المقدسية الناطقة باسم الحزب، هذه المقالات التي تدلّل بوضوح لا لبس فيه على فكر غسان، ولم يقلّل من قيمتها مرورُ السنين الطوال.

كذلك؛ فإننا نعرض هنا تجربة غسان الحافلة لكي نقدّم له بعض وفاء على ما قدّمه من تضحيات، ولكي تكون تجربته الناصعة مثلاً تحتذي به الأجيالُ الجديدة من الشابات والشباب الذين نعقد عليهم الآمال لمواصلة النضال ضد الاحتلال الإسرائيلي لوطننا، ولصنع المستقبل الآمن الذي نصبو إليه، ولتحقيق الحرية والعودة والاستقلال.

هنا؛ في هذا الكتاب، شهادات ومقالات ونصوص تتحدث عن غسان حرب وتشيد بتضحياته، وتتحدث عن بعض مناقبه ومزاياه، وفي الكتاب ما كتبته زوجته عفاف، وما في كلماتها عن الزوج والرفيق والصديق من صدق وإخلاص.

Digitized by Birzeit University Library

ويشتمل الكتاب على المقالات التي كتبها رفاق غسان بعد رحيله مباشرة؛ بأقلام: الأمين العام للحزب الشيوعي الفلسطيني بشير البرغوثي، ومحمد البطراوي، وأسعد الأسعد، وتيسير العاروري، وكذلك برقيات التعزية والكلمات التي ألقيت في حفل التأبين؛ مع ملاحظة أن ثمة بعض التكرار الذي لم أختصرْه؛ بسبب أنه جاء على ألسنة كتّاب وصحافيين وسياسيين متعدّدين؛ ومن حقّهم أن أبقي على كلماتهم في هذا الكتاب الوثيقة حتى وهي تتشابه مع كلمات أخرى. وفي هذا الصدد؛ فإنني أشيد بالجهد التوثيقي الذي قام به الرفيق د. محمد القهوجي قبل عشرين سنة، لكنني قمت بتحديث تاريخ كتابته لكي يبدو منسجمًا مع تاريخ نشر هذا الكتاب.

كذلك، وهذا طبيعي جدًّا؛ فإنني لم أتدخّل في ما كتبه غسان، وفي ما ورد بأقلام الكتّاب والكاتبات وعلى ألسنة الخطباء من وجهات نظرٍ لهم الحقّ في إبدائها وفي التعبير عنها.

المجد والخلود للمناضل الملتزم المثقف الجادّ الرفيق غسان حرب.

محمود شقير

القدس ٢٠١٩/٠٦/٠٥

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

١
شهادات

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

أنا وغسان

عفاف أبو نحلة حرب

١

تزوجنا أنا وغسان في يوم السبت ٢ آب ١٩٦٩ بعد خطبة دامت ثلاثة أشهر لم نلتقِ فيها سوى مرتين. إذ اضطر غسان إلى السفر إلى عمان بعد خطبتنا بثلاثة أيام لانتهاء تصريح إقامته في الضفة الغربية، كما أن سلطات الاحتلال قد رفضت تجديد التصريح أو استصدار آخر بدلاً منه بسبب قرب الذكرى الثالثة للعدوان الإسرائيلي على الضفة الغربية وقطاع غزة في ٥ حزيران عام ١٩٦٧. بقي غسان في عمان وقام بترتيب إجراءات حفل الزواج حيث تزوجنا هناك. لم يتمكن جميع الأهل من مشاركتنا حفلنا بسبب صعوبة استصدار التصاريح في ذلك الوقت. ولأنه لم يكن لدينا أقارب في عمان؛ فقد استضافتنا أنا وعائلتي عائلة عمي أبو رشيد؛ الأستاذ عبد الرحمن النجاب، وخالتي أم رشيد وأولادهما سلوى ونجوى ورشيد ووليد. وكان معنا في عمان أفراد من عائلتي؛ والدي ووالدتي وأخي خليل وعودة، وأختي لميس وأخي المرحوم إلياس، ومن عائلة غسان؛ والدته وأخواه حرب وغاندي وعائلته.

في ليلة ما قبل يوم الزفاف كنا مجتمعين في بيت العم أبو رشيد وبدأت الليلة بسهرة عادية وانقلبت بشكل غير مخطط له إلى سهرة عرس صغيرة لن انساها، ولن أنسى الحفاوة التي غمرنا فيها العم أبو رشيد وعائلته.

وكانت طلعة العروس من بيت العم (أبو رشيد) في جبل الحسين؛ وبالرغم من أن الحفل كان صغيراً إلا أنه كان متميزاً بالحضور، فبالإضافة إلى عائلتينا حضر الحفل جمع لا بأس به من أصدقائنا ورفاق درب غسان ممن كان قضى مع بعضهم سنوات طويلة في سجن الجفر. أذكر من بينهم الرفاق فؤاد نصار، بشير البرغوثي، عيسى مدانات، د. يعقوب زيادين، سمير حداد، وعيسى الدباح.

Digitized by Birzeit University Library

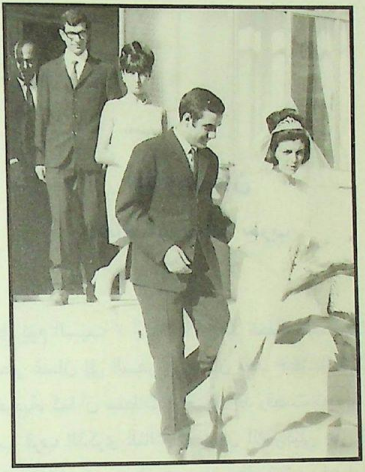

عمان ١٩٦٩- طلعة العروس من بيت العم أبو رشيد

سافرنا بعد الزواج إلى سوريا ولبنان لقضاء شهر العسل، ومكثنا هناك حوالي الشهر في انتظار صدور الفيزا كي أتمكن من السفر إلى الإتحاد السوفيتي لاستكمال دراستي في كلية الآداب في جامعة الصداقة في موسكو؛ حيث كان غسان قد بدأ دراسته في كلية الإقتصاد في نفس الجامعة قبل ذلك بثلاث سنوات. خلال وجودنا هناك التقينا عدداً من رفاق وأصدقاء غسان وكان من بينهم سمير حداد ومحمد الدرهلي. كما التقينا بأخي عودة الذي كان مسافراً لدراسة الطب في مدينة رستوف في الإتحاد السوفيتي، وأخي خليل الذي كان مسافراً إلى القاهرة حيث كان يدرس الهندسة.

لم أكن أعرف غسان بشكل شخصي قبل ذلك، ولكنني كنت قد سمعت عنه كثيراً وعن رفاقه الذين قضوا معه في سجن الجفر سنوات طويلة دفاعاً عن مبادئهم. وقد سمعت عنه من والدي الذي كان يعرف عنه الكثير، كما كان يعرف عائلته. وكان لحديث والدي معي عندما أخبرني أن غسان قد تقدم لخطبتي الأثر الأكبر في موافقتي على الخطبة.

Digitized by Birzeit University Library

وعلى الرغم من أن الفترة التي قضيناها معاً كانت قصيرة جداً، إلا أننا عشنا حياة سعيدة ومريحة مليئة بالمناسبات والذكريات السارة التي لازمتني وساعدتني في التغلب على المصاعب، وتحمل عبء الحياة وتربية ولدينا بعد وفاة غسان.

لم يكن غسان بالنسبة لي الزوج فقط؛ فقد كان بمثابة الصديق والأب والأخ وبخاصة في الفترات التي عشناها بعيداً عن الأهل والوطن. وبالرغم من المسؤوليات الكثيرة التي كانت ملقاة على عاتقه في الاتحاد السوفيتي، والمصاعب التي واجهتنا سواء في فترة اعتقاله أو مرضه؛ فقد كان دائماً محباً متفانياً مخلصاً وفخوراً بعائلته. أما بالنسبة لي فقد كان دائماً متفهماً، ومشجعاً لكل ما أقوم به، ولن أنسى موقفه ومساندته وتشجيعه لي أثناء فترة دراستي في الولايات المتحدة. كنت قد حصلت على موافقة الجامعة من أجل الالتحاق ببرنامج الماجستير في علم المكتبات في جامعة بفلو- نيويورك؛ في الوقت الذي كان فيه غسان يعاني من مضاعفات صحية حصلت له بعد إجراء العملية الجراحية الكبيرة التي أبقته في الفراش لفترة طويلة، كان يعاني خلالها من التهاب رئوي وحرارة عالية جداً لم يتمكن الأطباء من السيطرة عليها بالمضادات الحيوية؛ مما اضطرهم إلى إجراء عملية ثانية للتخلص من هذه المضاعفات.

لذا؛ وضمن هذه الظروف المرضية القاسية التي كانت تقتضي وجودي إلى جانبه، فقد قررت عدم الالتحاق بالجامعة، إذ أنه كان بالإمكان تأجيل الدراسة فصلًا آخر، ولكن غسان كان بعيد النظر، وأصرّ على أن أبدأ الدراسة في ذلك الوقت، وكان يشجعني ويدعمني طوال فترة الدراسة. وقد كانت فرحته كبيرة عندما تخرجت من الجامعة (التي تزامنت مع قرار عودتنا إلى الوطن بسبب ظروف غسان الصحية)، وكان يشعر بارتياح لأنني حصلت على الشهادة التي أعتقد بأنها سوف تساعدني في إيجاد عمل مناسب من أجل تربية ولدينا دون الاعتماد على أي أحد. كما كان يفخر بإنجازاتي العلمية أمام الجميع، وكان متأكداً ومتيقناً من نجاحي في بناء حياة مهنية ناجحة في مجال علم المكتبات.

Digitized by Birzeit University Library

ولد لنا ولدان هما: فجر وفادي. ولد فجر في موسكو حيث كنا أنا وغسان ندرس في الجامعة، أما فادي فقد ولد في رام الله أثناء وجود غسان في السجن. كان غسان يحبهما حباً كبيراً؛ وكان يبذل كل الجهد اللازم من أجل أن يعيشا حياة كريمة سعيدة. كان دائماً يفخر بهما، وكانت علاقته معهما تتميز بالصداقة والاحترام. وكأي أب كان يلعب معهما، يغني لهما بصوته الجميل، ويحكي لهما قصصاً قبل النوم. وكان فجر يحب اللعب مع والده؛ وكانت لعبته المفضلة وهو طفل صغير أن يجلس مع والده على الكنبة تحت الشمسية حيث يبقيان جالسين يتحدثان ويحكيان القصص لفترة طويلة. وكانت والدتي تغضب لفتح الشمسية في البيت لأن ذلك حسب قولها «فال عاطل».

أما فادي فكان يحب أن يغني والده له قبل النوم، وما زالت الأغنية التي كان يغنيها له عالقة في ذاكرته وتحتل مكانة مميزة لديه. كانت لدى غسان القدرة الكافية على التعامل معهما كلاً على حدا والتأثير فيهما بغض النظر عن الاختلاف في شخصيتيهما؛ مما تطلب في بعض الأحيان التعامل معهما كل على حدا أثناء نقاش مشكلة ما أو موضوع معين أو أثناء الحديث العادي. كان غسان يشجعهما على التعبير عما يجول في نفسيهما بدون خوف أو خجل، ولكن مع الإحترام. كان يسعى دائماً لتعريفهما بوطنهما وذلك من خلال الرحلات التي كنا نقوم بها باستمرار في الإجازات الصيفية أو كلما سنحت لنا الفرصة. ولكن حبه لهما لم يمنعه من ردعهما عن الخطأ وتوجيههما إلى الطريق الصواب، وأعتقد أن معاملته لهما وطبيعة العلاقة التي كانت تربطه بهما قد أثرث تأثيراً إيجابياً في بناء شخصيتيهما بالرغم من قصر الفترة التي عاشاها معه؛ والتي لم تتعدَّ ١٠ سنوات. والآن وفي معظم الأحيان فأنا أرى غسان فيهما؛ في حركتيهما، في تصرفاتهما وفي تفكيريهما.

بالمقابل كان فجر وفادي يحبانه ويحترمانه كثيراً، ويتنافسان على التعبير عن ذلك بشتى الطرق. كان فجر يشعر بأن والده كان يحب الاستماع إلى الموسيقى الكلاسيكية عندما كان الألم يداهمه في فترة مرضه الأخيرة في الولايات المتحدة، وكان يشعر أيضاً بأن الاستماع لهذا الشريط يساعد والده في الاسترخاء قليلاً؛ وبالتالي التغلب على الألم إلى أن يأخذ الدواء مفعوله. وكان فجر كلما شعر بأن والده قد بدأ يتألم يسارع لإحضار المسجل والشريط على أمل أن يساعد والده في التغلب على الألم اللعين.

أما فادي الذي ولد عندما كان والده في السجن، وكان صغيراً جداً عندما أُطلق سراح غسان؛ فقد كان بالرغم من صغر سنه (سنة ونصف) يشعر بأن هناك مسافة بينه وبين والده الذي

Digitized by Birzeit University Library

لم يعرفه سوى من وراء القضبان؛ لذلك فقد كان يحرص على تلبية احتياجاته حتى بدون أن يُطلب منه ذلك. مثلاً؛ كان يسرع في إحضار كوب من الماء له أو يسرع في إحضار الشبشب له بمجرد أن يراه قد شرع في خلع حذائه...إلخ، كما كان دائماً يحاول التقرب منه ومداعبته ولفت انتباهه إليه، ولم يمض وقت حتى توطدت العلاقة بينهما.

أما بالنسبة لعلاقة غسان بعائلته؛ فبالرغم من أنه كان أصغر إخوته سناً إلا أنه كان دائماً متميزاً، وكانت له مكانة خاصة في قلوبهم. فقد استطاع؛ برجاحة عقله وحكمته وبعد نظره وموضوعيته في حل الكثير من الأمور، أن يكسب ثقتهم واحترامهم. وكانت علاقته بوالدته خاصة ومتميزة؛ كان يحبها حباً كبيراً ويحرص على مداعبتها وعلى عدم الإساءة لها بقصد أو بدون قصد، وكان يحاول كلما سنحت له الفرصة الترفيه عنها، حيث؛ وفي كثير من الأحيان، كانت تذهب معنا في رحلاتنا للتعرف على بلدنا. كما كانت علاقته بجميع أفراد عائلته؛ صغيراً وكبيراً، تتميز بالحب والاحترام.

وكانت علاقته مع عائلتي وعلاقتهم معه علاقة خاصة ومتميزة جداً. كان والدي ووالدتي يعتبرانه أحد أولادهما، كما كانت أختي وإخوتي يعتبرونه أخاً كبيراً لهم، يحبونه ويحترمونه ويأخذون برأيه ويستنيرون برجاحة عقله. وكان هو بدوره يعبر لهم عن حبه وتقديره لهم في جميع المناسبات التي كان يتذكر دائماً أن يشارك فيها مهما كانت صغيرة. وكانت والدتي تذكر ذلك وتعتز ببعض الهدايا التي كان يقدمها لها في عيد الأم أو في عيد زواجها هي وأبي.

كان لطيفاً في حديثه مع الأهل؛ الصغير منهم والكبير، وكانت كلمات الإطراء والمديح الحلوة التي كان يُسمعها لهم تحمل صدى جميلاً في قلوبهم.

Digitized by Birzeit University Library

درس غسان في موسكو في جامعة باتريس لومومبا- جامعة الصداقة بين الشعوب، وحصل منها على درجة الماجستير في السياسة والإقتصاد. وكان بالرغم من مسؤولياته الحزبية الكثيرة بالإضافة إلى مسؤولياته الدراسية يعتبر نفسه مسؤولاً عن الطلبة الذين كانوا يدرسون معه في الاتحاد السوفيتي، لذلك فقد كان بيتنا في موسكو مفتوحاً لهم يأتون إليه في أي وقت. كانوا يتحدثون معه عن كل ما يجول بخاطرهم وعن مشاكلهم، وكان هو يصغي إليهم ويحاول أن يساعدهم في حل مشاكلهم أو همومهم، ولكنه في نفس الوقت لم يكن يتهاون معهم في حالة التقصير في الدراسة أو في حالة ارتكاب مخالفات قد تعرضهم لمشاكل أو أخطار.

وكنّا سافرنا إلى موسكو بعد أن انتهت إجراءات السفر؛ وهناك استقرينا في إحدى الغرف في بيت الطلبة. وكان يزورنا في بيتنا الرفاق والأصدقاء الأردنيون والفلسطينيون، وكان الحديث دائماً يدور حول الأوضاع السياسية في البلد أو حول أمور أخرى مختلفة منها ما يتعلق بالدراسة، ومنها ما يتعلق بحياتهم فمعظمهم كانوا شبابًا يافعين أنهوا دراستهم الثانوية وسافروا لاستكمال دراستهم الجامعية، ولم تكن لديهم الخبرة الكافية، وكان غسان دائماً صبوراً معهم ينصحهم ويوعّيهم ويشجعهم على التميّز في الدراسة، وكان يقول لهم إن عليهم الاهتمام بدروسهم لأنهم تركوا بلادهم وتغربوا وجاءوا إلى هذه البلاد من أجل التحصيل العلمي والعودة لخدمة بلدهم.

كان دائماً وفي كل المناسبات يذكّرهم بكلمات المرحوم فؤاد نصار ويقول لهم إنهم رسل لبلادهم في الغربة؛ وأن عليهم دائماً أن يفرضوا احترامهم أينما ذهبوا، وذلك من خلال تصرفاتهم وإنجازاتهم العلمية.

وكان من بينهم طلبة من فلسطين أذكر منهم: سلوى ونجوى النجاب، محمود سعادة، ومايك (محمد إبراهيم يوسف)، منتصر عريقات وعايش، وحسني ساري، وزكي عبد المجيد، ومصطفى البرغوثي وكريم الدباح وشقيقه عيس الذي كان يعمل في السفارة الأردنية والمرحومان تيسير العاروري وباسم مرعي.

ومن الأردن: وفاء مدانات، ذيب عويس، وعبدالله زريقات، ومازن الهلسة، دلال ومكرم القسوس، يوسف قويدر. وكان أيضاً يزورنا الطلبة الذين كانوا يدرسون في مدن مختلفة من الاتحاد السوفيتي ومنهم: أخي عودة ولبيب مجج ونادر حمودة وغيرهم. (مع الاعتذار من

Digitized by Birzeit University Library

الأشخاص الذين لم أتذكر أسماءهم).

كانت الفترة التي قضيناها في موسكو من أسعد الأوقات في حياتنا. فقد استغلينا وجودنا في الاتحاد السوفيتي في التعرف على المعالم الطبيعية والثقافية والفنية لهذا البلد العظيم. كما أن هذه المرحلة لم تكن تخلو أيضاً من الفترات الصعبة التي شغلت وأزعجت غسان كثيراً؛ مثل فترة انشقاق الحزب الشيوعي الأردني وحرب أيلول، وكذلك موت الرئيس جمال عبد الناصر.

بعد أن أنهى دراسته في الإتحاد السوفيتي، عاد غسان إلى رام الله في صيف عام ١٩٧٢. أما أنا فبقيت وحدي في موسكو لاستكمال دراستي حيث اضطررنا لإرسال فجر في شتاء نفس العام للإقامة مع عائلتي، وذلك بسبب الظروف الجوية وبرودة الطقس التي لم تلائمه. حصل غسان على لمّ شمل من خلال والدته مما ساعده على البقاء في الضفة الغربية.

أنهيت دراستي وتخرجت وعدت إلى رام الله في آذار عام ١٩٧٤ حيث عشنا في بيت والدته إلى أن تم اعتقاله، وكانت فترة قصيرة جدًّا، بعدها ذهبنا أنا والأولاد للإقامة مع عائلتي حيث لم يكن لدينا بيت خاص بنا، وحيث أنني لم أكن قد حصلت على عمل في ذلك الوقت. في حينها كان عمر فجر ٣ سنوات، أما فادي فقد ولد بعد ذلك بعدة أشهر. وبسبب هذه الظروف كانت فترة اعتقال غسان من الأوقات الصعبة التي مرت علينا، وكانت لها انعكاساتها على حياة الأولاد. كان أولاد الجيران يحاولون في كثير من الأحيان إثارة مشاعر فجر حيث كانوا يشيرون إلى جده (والدي) على أنه والده؛ مما كان يثير غضبه فيصرخ ويبكي ويقول لهم: «هذا جدي وليس والدي؛ والدي أنا بالسجن».

موسكو ١٩٧٠ – في مظاهرة الأول من أيار يظهر في الصورة الزملاء حسين حسنين وعايش عايش

Digitized by Birzeit University Library

أعتُقل غسان في ٢٢ نيسان ١٩٧٤ ضمن حملة اعتقالات واسعة شنتها سلطات الاحتلال ضد الشيوعيين؛ أعضاء الجبهة الوطنية الفلسطينية التي كان غسان أحد قادتها. وقد اعتِقُل في هذه الحملة عدد كبير منهم من مختلف مدن وقرى الضفة الغربية. في بداية الاعتقال تمّ احتجاز المعتقلين في السجون المحلية في المدن المختلفة. على سبيل المثال معتقلو رام الله في سجن رام الله، ومعتقلو الخليل في سجن الخليل وهكذا. وبعد عدة أيام لم تتجاوز الأسبوع تمّ نقل عدد منهم إلى سجن صرفند سيء الصيت ليتم التحقيق معهم. ومن بينهم كان الرفاق سليمان النجاب، عطا الله الرشماوي، خليل حجازي، حسني حداد، خلدون عبد الحق وغسان حرب. وكانت فترة التحقيق صعبة جداً على المعتقلين أنفسهم، إذ تعرضوا لأقسى أنواع التعذيب الجسدي والنفسي، وقد كانت صعبة جداً علينا كأهالي معتقلين؛ إذ لم تكن زيارتهم مسموحة طوال فترة التحقيق. وكانت المحامية المناضلة فليتسيا لانغر هي الوحيدة التي كان مسموحًا لها زيارتهم، وكانت هي التي تنقل لنا أخبارهم وتطمئن عليهم، والجدير بالذكر أن مكتبها كان دائما مفتوحاً لاستقبالنا والرد على أسئلتنا واستفساراتنا.

بعد شهرين من العذاب ومع انتهاء فترة التحقيق تم نقلهم إلى السجون المحلية في مدن الضفة الغربية مع المعتقلين الآخرين وهكذا تجمع الرفاق، وتمّ تحويلهم مع باقي المعتقلين إلى الاعتقال الإداري، كما تم توزيعهم على مدن الضفة الغربية على النحو التالي؛ في رام الله: تيسير العاروري، عدنان داغر، عبدالله البياع، خضر العالم، حسين فرح الطويل، راغب البرغوثي، وغسان حرب.

وفي شهر تموز من نفس السنة اعتُقل الرفيق بشير البرغوثي، وسُجن مع باقي الرفاق في سجن رام الله.

في الخليل؛ كان عبد المجيد حمدان، حسني حداد، محمد محمود سعادة، عطالله الرشماوي، وبعد سنة تقريباً انضم إليهم غسان حرب، إذ تمّ نقله من رام الله إلى الخليل.

في نابلس: فرحان أبو ليل، راجح السلفيتي، جمال فريتخ، خلدون عبد الحق، عباس عبد الحق ولبيب فخر الدين. أما الرفاق المقدسيون: محمود شقير، فاروق السلفيتي، خليل توما، محمد أبو غربية وآخرون، فقد تم احتجازهم في سجن كفار يونا (مع اعتذاري الشديد للرفاق الذين لم أتذكر أسماءهم).

كانت الزيارة مسموحة بشكل عام مرة واحدة بالشهر، إلا أنه في كثير من الأحيان كنا

Digitized by Birzeit University Library

نذهب للزيارة ونجد أنه قد تم نقل المعتقلين إلى سجن آخر دون أن يعلمونا أو يعلموا محاميتهم بذلك.

في يوم الزيارة كنا نحن أهالي المعتقلين نلتقي في باحة السجن؛ ففي رام الله كنا نلتقي أنا وأخوات الرفيق تيسير العاروري، فهيمة وعفاف ووالدته أم نسيم، ووالدة الرفيق عدنان داغر، وأم إياس زوجة الرفيق عبد الله البياع، وأم حازم زوجة الرفيق خضر العالم، وأم المنذر زوجة الرفيق راغب البرغوثي، والرفيقات نهى وشقيقتها بهيجة البرغوثي زوجة الرفيق بشير البرغوثي (أبو العبد)، وكانت والدتي ووالدة غسان وأختي د. لميس ترافقنني دائماً في هذه الزيارات.

وفي سجن الخليل كنا نلتقي مع المرحومة أم وديدة؛ عطاف العاروري زوجة الرفيق عبد المجيد حمدان، والمرحومة أم جميل زوجة الرفيق عطا الله الرشماوي. وكانت المرحومة وديدة ترافق والدتها رغم مرضها، حيث أصيبت أثناء فترة اعتقال والدها بمرض السرطان، وفارقت الحياة في وقت مبكر، وما زلت أذكر كم كانت طفلة جميلة؛ وأذكر ابتسامتها الجميلة رغم معاناة المرض.

في هذه اللقاءات القصيرة كنا نتجاذب أطراف الحديث حول أمور كثيرة، وكان أكثر ما يشغل بالنا هو استمرار اعتقال الأزواج والأبناء وما الذي يمكن أن نفعله من أجل إطلاق سراحهم، كان هذا هو محور حديثنا بالإضافة طبعا إلى السؤال عن الأحوال العائلية. وكنا نتشاور حول كيف يكون الاحتجاج على الوضع. وكنا نجتمع في مكتب المحامية لانغر ونستكمل حديثنا. وقد قمنا بتنظيم عدة مظاهرات واعتصامات للتنديد بالاعتقال الإداري والمطالبة بالإفراج عن المعتقلين. كما شاركنا في اعتصامات ووقفات احتجاجية نظمتها حركة النساء الديمقراطيات والشيوعيون أعضاء الجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة وراء الخط الأخضر، وشاركنا أيضاً في لقاءات عديدة مع أعضاء الكنيست؛ كان هدفها شرح ظروف الاعتقال ومطالبتهم بمساعدتنا برفع الظلم عن المعتقلين وإطلاق سراحهم. وكانت مجموعة من حركة النساء الديمقراطيات من بينهم سميرة خوري، أوديت نمر، وروث لوبيتش وأخريات يحضرن للمشاركة معنا في الفعاليات المختلفة. أما المرحوم قاسم عرقوب الذي يعمل سائقاً على سيارة أجرة؛ فكان يرافقنا في معظم الفعاليات التي كنا نشارك فيها في الداخل، وأيضاً في جولاتنا في أنحاء الضفة الغربية، لجمع التواقيع من رؤساء البلديات والشخصيات الوطنية للمطالبة بإطلاق سراح المعتقلين، وعدم تجديد اعتقالهم الإداري.

Digitized by Birzeit University Library

٥

في عام ١٩٧٢عاد غسان بعد أن أنهى دراسته في جامعة الصداقة هو وابننا فجر الذي كان قد ولد في موسكو، وعاش مع والدته في بيتهم في مدينة رام الله. أما فجر فبقي مع عائلتي حيث اعتنى به غسان مع والدتي وأختي أثناء فترة دراستي في موسكو.

ولدى عودته التحق غسان بصفوف الحزب، وشغل موقعاً متقدماً، وفي عام ١٩٧٣ عندما تشكلت الجبهة الوطنية كان غسان أحد أبرز قادتها. وفي نفس الوقت كان يجهز البيت الذي سنسكن فيه بعد أن أتخرج وأعود إلى رام الله، ولكن للأسف لم نتمكن من ذلك حيث تم اعتقاله ضمن اعتقالات الجبهة الوطنية بعد ٢٠ يومًا من وصولي إلى رام الله. عشنا أنا وفجر وفادي؛ ابننا الذي ولد أثناء وجود والده في السجن، في بيت أهلي إلى أن أفرج عن غسان عام ١٩٧٧.

عمل غسان بعد الإفراج عنه في شركة باطون رام الله، ولكنه ما لبث أن تم تعيينه مدرسًا في جامعة بيرزيت في دائرة الدراسات الثقافية، وبعد ذلك مدرساً في كلية الإقتصاد، ثم رئيساً لدائرة الإقتصاد، ومن ثم قائماً بأعمال عميد كلية الإقتصاد. وفي عام ١٩٧٨ عمل متطوعاً في جريدة «الطليعة» حيث كان يحرر الصفحة الإقتصادية ويكتب العامود الأسبوعي: «تحت المجهر».

اعتقل غسان في نيسان ١٩٧٤ وقضى في المعتقل ٣٣ شهراً؛ قضى السنة الأولى منها في سجني رام الله والجلمة، نقل بعدها إلى سجن الخليل، حيث بقي فيه حتى أفرج عنه. وكانت أصعب هذه الأوقات الرحلات الشهرية التي كنا نقوم بها من رام الله إلى سجن الخليل، وبالرغم من أنها كانت بالنسبة لنا إحدى أهم الوسائل التي كنا نطمئن من خلالها عن أحواله ونطمئنه عن أحوالنا، إلا أنها تميزت بمشاعر متضاربة من الفرح والألم والمعاناة. فكان الشعور بالفرح واللهفة للقاء غسان؛ حيث نراه ونتحدث معه ولو لفترة بسيطة لم تكن تتعدى النصف ساعة، إلا أنها كانت كافية لتعطينا دفعة وقوة حتى موعد الزيارة القادمة.

أثناء الزيارة كان غسان يحدثنا ويستفسر عن أحوال وأوضاع جميع الأهل والأصدقاء كبيراً وصغيراً، يحكي لنا عما يحدث معه هو وزملائه من المعتقلين الآخرين خلال الفترة ما بين الزيارتين، وأحياناً يمزح ويحكي النكت، وكان أيضاً يلاعب فجر وفادي، يتكلم ويمزح معهما

Digitized by Birzeit University Library

في محاولة منه لتطميننا عليه، وللتخفيف من وطأة الوضع في السجن. وفي نفس الوقت؛ كانت المسافة من رام الله إلى الخليل طويلة نسبياً، بخاصة وأن فادي الطفل الصغير كان يعاني طول فترة السفر من الدوار بسبب ركوب التاكسي، ومع ذلك ومن خلال معاناته كان يعبر بين الحين والآخر بكلماته البسيطة عن فرحته بلقاء والده، وكان يحمل صندوق السجائر بين يديه لكي يعطي والده سيجارة أثناء الزيارة، وكان يحرص على أن لا يراه السجانون الذين لم يكونوا يفارقوننا طوال فترة الزيارة. أما فجر ابن الخمس سنوات، فكان دائماً عصبياً بالرغم من مداراته لذلك. فهو غاضب بسبب بعد والده عنه، وأيضاً لأنه لا يستطيع الجلوس معه أثناء الزيارة، وبما أن ذلك كان ممنوعاً وغير متاح، فقد كانت القضبان تثير غضبه. وفي إحدى المرات التي كنا مسافرين فيها أنا والأولاد وأختي إلى الخليل، وكنا نتجاذب الحديث حول غسان والسجن والزيارة؛ كان فجر يتكلم بعصبية وغضب مما أثار فضول السائق الذي سأله عن سبب غضبه وعن والده وعن الزيارة أيضاً، ولم يكن من فجر إلا أن هبَّ واقفاً مشيراً إلى واجهة السيارة الأمامية، وقال للسائق: هل ترى هذا الثقب؟ هل تستطيع المرور منه؟ كان كلامه مفاجئاً للجميع إلا أنه كان معبراً عن شعوره ومعاناته. وقد وثق السيد كريم الدباح الذي كان من بين المسافرين هذه الواقعة في أحد مقالاته إلى جريدة الطليعة.

وفي انتظار وقت الزيارة؛ كنّا كعائلات معتقلين نلتقي في باحة السجن، وفيما كان أطفالنا يلعبون مع بعضهم البعض كنا نحن نتحدث عن السبل التي يمكننا اتباعها من أجل التعبير عن رفضنا لاستمرار اعتقال رجالنا بدون ذنب أو محاكمة. وكان صوتنا كأهالي معتقلين عالياً في هذه الفترة؛ حيث نظمنا اعتصامات ومظاهرات واجتماعات شعبية كانت كلها تطالب بإطلاق سراح المعتقلين. وكان أهلنا وراء الخط الأخضر يساندون ويدعمون نضالنا من خلال مشاركتهم معنا أو من خلال تنظيم فعاليات لنا في منطقتهم؛ بما في ذلك ترتيب لقاءات لنا مع أعضاء كنيست وشخصيات لها تاثير على القرارات السياسية.

Digitized by Birzeit University Library

بدأ غسان عمله في جامعة بيرزيت كمدرس بعمل جزئي في برنامج الدراسات الثقافية، وفي الفصل الدراسي الذي تلا ذلك حصل على عمل دائم كمدرس في كلية الإقتصاد، ولم يمض وقت طويل حتى أصبح رئيس دائرة الإقتصاد، ومن ثم قائم بأعمال عميد كلية التجارة والإقتصاد. إن متطلبات هذين المنصبين كانت تقضي بأن يكون المرشح لهما حاملاً شهادة الدكتوراة في مجال التجارة والإقتصاد؛ وبالرغم من أن غسان لم يكن يحمل هذه الشهادة في ذلك الوقت إلا أن مؤهلاته الأخرى وشخصيته وعلاقاته المتميزة مع الجميع إضافة إلى قدراته العالية في التطوير والتخطيط والإدارة قد أهلته لهذين المنصبين.

وكأستاذ في جامعة بيرزيت كان مخلصاً متفانياً في عمله ومثلاً أعلى لطلبته، وكانت علاقته معهم مبنية على أساس من الاحترام المتبادل. كان يعاملهم بالتساوي بدون تمييز أو تحيز بغض النظر عن انتمائهم السياسي. كما كان حازماً حيال الطلبة النشطاء في المجال السياسي أو الطلابي، وكان دائماً يؤكد لهم أن ذلك بالرغم من أهميته يجب أن لا يكون على حساب الدراسة والتخرج.

الآن؛ وبعد تلك الأعوام الطويلة ما زال طلبة جامعة بيرزيت أو الطلبة الذين درسوا معه في الإتحاد السوفيتي يكنون له الاحترام ويقدرون له عمله معهم، ولا يتوانون في التعبير عن ذلك كلما التقوا بي أو بأحد أولادنا.

كان غسان يشعر بمعاناة الآخرين، وكان يعمل على إيجاد حلول لها. أثناء عمله في جامعة بيرزيت كان قد لمس تأثير الأوضاع الإقتصادية بشكل عام والأزمة السكانية بشكل خاص على أساتذة وموظفي جامعة بيرزيت، لذلك فقد شرع في تأسيس «جمعية إسكان أساتذة وموظفي جامعة بيرزيت» على أمل أن يسهم ذلك في حل المشكلة لهم. وبدأ بترويج الفكرة واستقطاب الأعضاء للجمعية حتى أنه كان يدفع الاشتراك عن بعض الموظفين الذين لم تكن لديهم القدرة المادية. كان همه أن يشارك أكبر عدد منهم في هذا المشروع المهم لمصلحتهم. ولكنه توفي قبل أن يرى الإنجازات التي قامت بها الجمعية بفضل جهود بعض الأعضاء الذين كانوا مثله حريصين على إنجاز المشروع.

حصل غسان خلال عمله في جامعة بيرزيت على بعثة للدراسة في بفلو-نيويورك في الولايات المتحدة للحصول على درجة الدكتوراة، وهكذا سافرنا إلى الولايات المتحدة في شهر آب عام ١٩٨١. ولكن لم يمض بضعة أشهر، أي في نهاية الفصل الدراسي الأول حتى تبين أن غسان

Digitized by Birzeit University Library

يعاني من ورم خبيث أصابه في البلعوم؛ مما اضطر الأطباء إلى إجراء عملية لاستئصال الورم استغرقت حوالي سبع ساعات. وبعد فترة ليست بالبسيطة استعاد غسان صحته وعاد إلى مقاعد الدراسة لمدة فصلين قبل أن يعاود المرض انتشاره. وكانت الحياة في الولايات المتحدة صعبة بسبب ظروف غسان الصحية، وكذلك بسبب التغيير الذي طرأ على حياة الولدين من تغيير مدارس ولغة وأصدقاء والحياة بشكل عام.

ولكن ضمن هذه الظروف كان غسان حريصاً على أن يكون الولدان مستمتعين بالحياة الجديدة، وخاصة خلال السنة الأولى حيث كانا يشعران بغربة وببعد عن الأهل والوطن، فكانا باستمرار يجلسان في غرفتهما يستمعان إلى كاسيتات أغاني مرسيل خليفة وجورج قرمز وآخرين؛ كانا قد أحضراها معهما من رام الله.

وفي الأوقات التي كانت أحواله الصحية فيها جيدة، كان غسان يهتم بالذهاب مع الولدين إلى الأماكن المختلفة الخاصة بالأطفال مما كان يسعدهما ويفرحهما. وفي بلد حيث وسائل الإعلام منحازة وغير أمينة وغير صادقة كانت جريدة «الطليعة» هي الوسيلة الوحيدة والنافذة الحرة التي كانت تطلعنا على ما يجري في العالم بشكل عام وبلدنا الصغير المحتل بشكل خاص. كانت «الطليعة» تزودنا بالأخبار والتحليلات لما يجري من أحداث وتطورات. كنا نتلهف على استلامها وكنا ننتظرها كل أسبوع ونستمتع بقراءتها، وكنا بعد ذلك نجلس ونتناقش في المواضيع المختلفة التي قرأناها فيها، وكنت أستمتع وأنا أصغي إلى تحليل غسان حتى لأصغر الأمور. إذ كان يحللها بطريقة منطقية ولكنها بسيطة ومقنعة. وكانت الطليعة أيضاً تحمل لنا الأخبار السارة وأيضاً الأخبار المحزنة عن الأهل والأصدقاء. ومن بين الأخبار السارة التي قرأناها كان خبر إعادة تأسيس الحزب الشيوعي الفلسطيني. وكان هذا الخبر بالنسبة لغسان من أحلى الأخبار التي سمعها أثناء وجودنا في الولايات المتحدة؛ لما كان يحمله من معانٍ تمثل طموحات عاش غسان ومات وهو يناضل من أجلها.

إن إعادة تأسيس الحزب كانت تعني له الإنتماء والهوية والاستقلال. أما الخبر الحزين الذي قرأناه فكان خبر وفاة صديقه ورفيق دربه أبو مايك (أبو محمد/ إبراهيم يوسف) من مخيم الدهيشة الذي قضى معه غسان سنوات طويلة في سجني الجفر والخليل. وقد زاد من حدة الألم والحزن أن تزامن موت أبو مايك مع وفاة أخي الصغير إلياس، الذي توفي في اليونان وهو في ريعان الشباب.

كان غسان بالإضافة إلى كل ذلك يتمتع بصفات عديدة جعلت منه إنساناً متميزاً وشخصية لا يمكن أن تنسى ومن أبرز هذه الصفات:

Digitized by Birzeit University Library

كان يتمتع بنظرة ثاقبة وبقدرة عالية على تحليل الأمور بشكل منطقي على أساس علمي، وكانت جميع كتاباته سواء في الطليعة أو الكاتب أو الفجر إضافة إلى الأبحاث التي كان يقدمها لمؤتمرات عالمية ومحلية المنشورة منها وغير المنشورة أكبر دليل على ذلك. كان يدرك جيداً بأن الأوضاع السياسية التي تمر بها منطقتنا لها أثر كبير على الأوضاع الإقتصادية. كان مؤمناً بالطبقة العاملة وبقدرتها على التغيير السياسي والإقتصادي، وكان لديه أمل أن ينهي دراسة كان قد بدأها قبل سفرنا إلى الولايات المتحدة حول وضع الطبقة العاملة في الضفة الغربية وقطاع غزة. وقد بذل جهداً كبيراً وأمضى شهوراً طويلة في جمع المعلومات وتفريغها على بطاقات حاسوب حتى يتمكن من استخراجها وتحليلها واستخلاص النتائج منها. وقد شاركت بعض الرفيقات والصديقات في عملية تفريغ البيانات حيث كنا نلتقي تقريبا كل يوم على كوب من الشاي أو القهوة نتحدث ونتسامر مع غسان ونحن نساعده؛ وكان هو فرحاً على أمل أن ينهي الدراسة.

ولسوء الحظ؛ فإن هذه الدراسة لم ترَ النور.

Digitized by Birzeit University Library

كان غسان فخوراً بانتمائه لحزبه «الحزب الشيوعي الفلسطيني» ولوطنه وشعبه، محباً لعمله الذي يقوم به، مؤمناً بصواب ما كان يعمله وفي نفس الوقت كان متواضعاً لا يتبجح أو يتفاخر بما كان يعمله، كما كان حريصاً جداً بأن لا يقوم بأي عمل أو أن يتحدث عن أي شيء قد تتخذ منه سلطات الإحتلال مبرراً للضغط عليه أو استغلاله ضده.

ومن المرات القليلة جداً التي تحدث فيها عما كان يقوم به وهو طالب في المدرسة كانت قبل وفاته ببضعة أسابيع. كنا في بيت والدته وكان أولاد أخيه طلعت وأولادنا جالسين حوله؛ وبدأ يحدثهم وهم يصغون إليه وكأنهم يدركون بأنها قد تكون آخر مرة يحدثهم فيها. كان كلامه وهو يتحدث يعبر عن فخر شديد بما كان يقوم به. حدثهم عن رحلة السير على الأقدام التي قام بها من رام الله إلى القدس ليشارك في انتخابات اتحاد الطلبة، وكان هو أحد المرشحين في هذه الانتخابات، ونجح فيها بالرغم من صغر سنه الذي لم يتعدَّ ١٥ سنة. كما حدثهم كيف كان يخفي ملابسه التي كانت قد اتسخت أثناء الكتابة على الجدران في الليل خوفاً من عقاب والده إذا أخذ علماً بذلك. أما والدته فكانت تخرق العقاب وتفتح باب الغرفة وتدخل له الطعام والشراب. وبالرغم من شوق الأولاد لمعرفة المزيد إلا أنه لم يستطع الاستمرار في الحديث حيث بدأ الألم يشتد، وكان من الضروري أن ياخذ الدواء.

كان غسان يفرض احترامه وحضوره في كل المناسبات، وفي كل مكان يذهب إليه أو يعمل فيه. لم تمنعه المعتقدات السياسية أو الاختلافات في وجهات النظر من إقامة العلاقات والصداقات مع الجميع. وقد عبرت الكلمة التأبينية التي ألقاها د. أمين أبو ليل، الأستاذ في جامعة بيرزيت في ذلك الوقت، على القبر أثناء دفن غسان عن ذلك بشكل واضح.

كان غسان هادئاً بشكل عام، وكان يتعامل مع الأمور بروية وحكمة ودبلوماسية. كان دائماً يتحدث بصوت منخفض بدون انفعال، فكان من الصعب رؤيته في حالة من العصبية أو الغضب العارم. بالرغم من ذلك فقد شاهدته يخرج عن عادته ويغضب بضع مرات خلال حياتنا معا، وفي كل الأحوال كان ذلك في الأغلب مرتبطاً بالوضع السياسي ومحاولات سلطات الاحتلال المتكررة لقمع نضال الشعب الفلسطيني. وقد أثارت محاولة اغتيال رؤساء بلديات رام الله والبيرة ونابلس حفيظة غسان وجعلته يغضب كثيراً. أذكر أننا في ذلك اليوم كنا نجهز أنفسنا من أجل توصيل الأولاد إلى المدرسة؛ ومن ثم الذهاب إلى عملنا عندما سمعنا دوي انفجار قوي قريب من بيتنا، خرجنا للتو من البيت لمعرفة السبب، وللمفاجأة فقد رأينا آثار الانفجار حيث أن بيتنا يطل على بيت السيد كريم خلف رئيس

Digitized by Birzeit University Library

بلدية رام الله في ذلك الوقت. عبر غسان عن غضبه بصوت عالٍ وباستعمال كلمات مازال فجر يذكرها ويقول إنها المرة الأولى التي سمع فيها والده يستخدم مثل هذه الكلمات ويتكلم بمثل هذا الغضب.

وكان لخبر مجزرة صبرا وشاتيلا نفس التأثير على غسان؛ ففي كلتا الحالتين كان السبب الذي أثار غضبه هو نفسه محاولات متكررة تستهدف القضاء على الشعب الفلسطيني وطموحاته؛ كما تستهدف خيرة أبناء هذا الشعب الذين يضحون بحياتهم من أجل تحقيق الأهداف النبيلة في الاستقلال وبناء الدولة.

كان غسان بالإضافة إلى كل ذلك لطيفاً وضحوكاً؛ لديه روح دعابة عالية، يحب المرح والغناء وكان حضوره يضفي روحاً مرحة على الجلسة.

أما أصعب الأوقات التي مرت علينا والتي لا يمكن أن تُنسى فكانت فترة مرض غسان الأخيرة في الولايات المتحدة في صيف ١٩٨٣ وحتى وفاته في رام الله كانون الثاني ١٩٨٤. في البداية كان ألماً فظيعاً لم يكن معروفاً سببه، إذ لم تشر الفحوصات الطبية في ذلك الوقت إلى أية إشارات تؤكد عودة المرض؛ غير أن هذا الإفتراض كان قائماً طوال الوقت.

بعد مضي شهر تقريباً تبين من خلال الفحوصات السريرية أن المرض قد عاود إنتشاره، إلا أن مكانه ومداه لم يكن معروفاً، لذلك قرر الأطباء معالجته بالكيماوي، وبعد فترة قصيرة تبين أن المرض لم يستجب للعلاج فاتخذ الأطباء قراراً بوقفه. ومع قرار الأطباء وقف العلاج وبأن مرض غسان قد أصبح في مراحله الأخيرة أصبح لزاماً علينا الاختيار بين العودة إلى الوطن أو البقاء في الولايات المتحدة؛ وبالطبع فقد كان قرار غسان العودة والموت في الوطن بين الأهل والأصدقاء.

Digitized by Birzeit University Library

عدنا إلى رام الله يوم ٧ نوفمبر/ تشرين الثاني عام ١٩٨٣. كان الألم يزداد والوضع العام يقترب من النهاية. وكان غسان قوياً في مقاومته وسيطرته على الألم بالرغم من الآلام الشديدة، ومعرفته بأن أيامه قد أصبحت معدودة إلا أنه مع كل ذلك كان حريصاً على مشاعر الغير لا يريدهم أن يتألموا لألمه. كان يداري ألمه أمام عائلته وأهل بيته والزوار الكثيرين بمشاركتهم الحديث، وأحياناً كثيرة كان يقطع الصمت الحزين بفتح باب الحديث في مواضيع مختلفة: العمل في الجامعة، الوضع الإقتصادي، الوضع السياسي ...الخ، وكان كما هو دائماً على اطلاع بكل الأمور حتى كان الجميع يتعجب من ذلك. وفي أحلك أوقات الألم كان غسان يغني لوطنه ولحزبه ولشعبه.

أذكر في إحدى المرات كنا في مستشفى هداسا لتلقي العلاج، وجاءت الممرضة فبدأ غسان كعادته الحديث معها في شتى المواضيع وبخاصة فيما يتعلق بمرضه، وكانت تنظر إليه بذهول، وعندما خرجنا أنا وهي من الغرفة سألتني بتعجب عما إذا كان غسان على علم بخطورة وضعه الصحي. وكان عيد ميلاد فادي (٩ سنوات) آخر مناسبة اجتماعية شاركنا فيها غسان، وكان بالرغم من آلامه يحاول أن يضفي على العيد روحاً مرحة كعادته.

تدهور وضعه الصحي في يوم الجمعة ٦ كانون الثاني ١٩٨٤ حيث دخل في غيبوبة؛ وكانت آخر كلمات نطق بها قبل ذلك مباشرة «أهلاً يا بنيي» موجهاً كلامه إلى فجر الذي دخل للتو إلى البيت. بقي في غيبوبته هذه حتى توفي يوم الأحد ٨ كانون الثاني ١٩٨٤.

بالرغم من أن موت غسان لم يكن مفاجئاً إلا أنه لم يجعل الأمر أكثر سهولة أو أكثر قبولاً لدينا. فقد خسرت عائلتنا الصغيرة، عائلة غسان حرب السند الكبير الذي كانت ترتكز عليه، كما خسرته عائلته: والدته، إخوانه وأخواته، وكذلك فقد خسره شعبه الذي ناضل من أجله طوال حياته. وقد كانت لوقفة أهلنا وأصدقائنا ورفاق وأصدقاء الحزب والوفود الجماهيرية المختلفة معنا طوال فترة الشهرين الأخيرين، وكذلك أثناء الجنازة والعزاء الأثر الكبير في نفوسنا. فقد عبرت الوفود الطلابية والنقابية والمهنية التي جاءت من أنحاء الضفة الغربية وقطاع غزة سواء لزيارته قبل وفاته أو للمشاركة الشخصية في جنازته أو بإرسال البرقيات وأكاليل الورود التي تجاوز عددها المئات عن حبها وتقديرها له ولنضاله.

وكان لقرار الشباب وطلاب جامعتي بيرزيت وبيت لحم عدم إرسال جثمان غسان إلى الثلاجة في مستشفى رام الله وإبقائه في البيت أكبر الأثر في نفوسنا لما حمله من معان

Digitized by Birzeit University Library

كثيرة؛ بينها الامتنان والاحترام والحب والتقدير. فقد أرادوا إبقاء الجثمان في البيت ليتمكنوا من إقامة مراسيم وداع رسمية له كالتي تقام لرؤساء الدول والشخصيات الحكومية الكبيرة.

بقي النعش في البيت طوال يومي ٨ و ٩ كانون الثاني مسجى في الباحة الداخلية لبيت والدته، وكان الشباب بلباسهم الرسمي المزين بالعلم الفلسطيني أو العلم الأحمر يتناوبون على حراسته طوال الوقت حتى موعد الجنازة، وكانت وفود المعزين تأتي إلى هناك لوداعه وإلقاء النظرة الأخيرة عليه.

وكانت الجنازة الكبيرة التي خرجت لتودعه أكبر دليل على تقدير الجماهير لغسان الشخص والإنسان والمناضل الذي أحبها وناضل من أجلها. وقد قدرت الجرائد عدد الذين شاركوا بالجنازة بالآلاف. سارت الجنازة من بيتنا في رام الله حتى الكنيسة، وكان النعش خلالها محمولاً على الأكتاف يتقدمه حملة الأكاليل وفرقة كشافة سرية رام الله الأولى التي أمضى غسان في عضويتها سنوات طويلة أثناء فترة طفولته وجزء من شبابه.

خرجت جنازة غسان من الكنيسة وجابت شوارع رام الله حتى وصلت المقبرة؛ حيث تمّ تأبينه والصلاة عليه قبل دفنه. وفي تلك اللحظة؛ أي لحظة الدفن كانت كلمات فادي؛ الولد الصغير التي قالها لي وهو ينظر إليّ بعينين صغيرتين «لا تبكِ يا أمي إلّي خلّف ما مات» مؤثرة جداً؛ فهو بسبب صغر سنه لم يكن يدرك معنى الموت أو معنى هذه الكلمات، لكنه كان يردد ما سمعه من المعزين محاولاً بذلك مواساتي والتخفيف عني.

وكانت مشاركة النساء مميزة؛ فقد كانت المرة الأولى التي تمشي فيها النساء في الجنازة والذهاب إلى المقبرة؛ ففي العادة بعد الصلاة على الجثمان في الكنيسة تذهب النساء إلى البيت، ويذهب الرجال إلى المقبرة للدفن. ومن مفارقات الصدف أن السماء كانت في ذلك اليوم تمطر مطراً خفيفاً جداً طوال فترة الجنازة، وكأن الدنيا كانت تودع غسان وتبكيه حزناً. كم كنت أتمنى لو أن غسان استطاع فتح عينيه؛ ولو للحظة، ليرى بنفسه مدى الحب والتقدير والاحترام الذي كان يكنه له الجميع.

Digitized by Birzeit University Library

أنا وغسان وعفاف

رقية النجاب ورّاد

تعرفت على غسان حرب عام ١٩٥٦، أثناء المسيرات والأحداث السياسية التي عمّت البلاد ضد كلوب باشا وحلف بغداد، وكان غسان يشارك في هذه المسيرات وهو شاب صغير في مقتبل العمر. ولن أنسى منظره حين كان يأتي لتقديم امتحانات التوجيهي مقيد اليدين إلى مدرسة بنات رام الله الثانوية حيث كنت أعمل مُدَرِّسة فيها.

كنت صديقة لعائلته «عائلة أبو حرب» حيث كنا نعقد الاجتماعات الحزبية في بيتهم كونهم أسرة شيوعية، وبيتهم كان يقع في أطراف البلد في شارع المسكوبية (حالياً شارع مدرسة عزيز شاهين)، كان ثلاثة من أولادهم في السجن، ولحق بهم والدهم في مرحلة لاحقة.

عرفت أن غسان حرب اعتُقل وأمضى سنوات طويلة في سجن الجفر الصحراوي، وكان أصغر السجناء سناً، وبعد إطلاق سراحهم بعفو ملكي عام في سنة ١٩٦٥، احتفلنا بهم وكان من بينهم أخي سليمان النجاب.

في فترة ما بعد السجن في عام ١٩٦٦،كان غسان مطاردا من قبل السلطات الأردنية، لذلك تمّ تهريبه إلى عمان، ومن ثم إلى دمشق حيث سافر من هناك إلى الاتحاد السوفيتي، إذ كان قد حصل على بعثة لإكمال تعليمه. عاد لزيارتي في بيتنا في رام الله عند عودته سنة ١٩٦٩، وطلب مني أن أخطب له عروساً، فقلت له: «أنا جاهزة، لكن من تكون العروس»؟ فأجاب: «عفاف بنت رفيقنا أبو خليل أبو نحلة»، فأجبته: «ونِعم النسب»، وسألته من أين عَرفها، فأجاب: «كنت أراها أثناء ذهابها إلى المدرسة، وأنا عند أخي غاندي في ستوديو الحمراء في رام الله، كما أن والديها من رفاقنا الأعزاء».

Digitized by Birzeit University Library

كان غسان يعلم بعلاقتي الوطيدة مع أسرة أبو نحلة، فكنت وما زلت أجد كل الحفاوة عند زيارتي لهم، وقال لي: «أريد منك أن تسأليهم رأيهم». وفي اليوم التالي ذهبت وسألت أبو خليل وأم خليل رأيهما، فنظرا إلى بعضهما بعضًا معتزّين بهذا الطلب، فهما يعرفانه ويعرفان عائلته، وقالا لي: «إمهلينا بعض الوقت للرد عليكم»، وفعلا بعد يومين أجابني أبو خليل أن أبلغ غسان بأنه لا مانع لديهم، وأن بإمكان عائلته القدوم لزيارتهم لطلب يد ابنتهما.

كانت عفاف تقدم امتحانات التوجيهي، وبعد الانتهاء من تقديم الامتحانات ذهبنا إلى السوق لشراء أغراض الخطبة، وقال لي غسان: «شو ما بدها العروس مرحبابها». وبعدها أقمنا الأفراح بمناسبة الخطوبة.

بعد ذلك؛ سافر غسان إلى عمان ولم يستطع العودة إلى رام الله بسبب عدم تجديد التصريح له، وبقي في عمان يجهز لمراسم العرس. لحقتْ به عفاف وعائلتها وأفراد من عائلة غسان. وتم إتمام الزواج في دار أخي أبو رشيد النجاب في عمان، ولم أتمكن من حضور حفلة العرس، لكنني سافرت في اليوم الثاني من رام الله لعمان، وذهبت وباركت للعروسين.

في سنة ١٩٧٠، التقيت بغسان في موسكو، حيث كنت أنا وأبو محمد في رحلة عائلية وكانت معنا إبنتنا منال الطفلة، وكان غسان يحبها ويدللها ويلاعبها ويأخذها إلى محل الأطفال لشراء الهدايا والألعاب لها. وكان غسان يجلس مع أبو محمد لساعات طويلة يتحدثان ويتناقشان في السياسة.

أثناء زيارتنا لموسكو لاحظت كيف أن غسان كان يحظى بكل التقدير والإعجاب من الرفاق الروس. بالإضافة إلى كونه كان طالباً متميزاً في الجامعة، كان أيضا مسؤولا عن المنظمة الحزبية وعن اتحاد الطلبة في الاتحاد السوفيتي، وكان أيضاً مسؤولا عن أسرته، وكان يتحمل كل هذه المسؤوليات ويقوم بها على أكمل وجه بدون تذمر وبكل صبر واعتزاز.

بعد عودة غسان للوطن كنا نسكن في عمان، حيث تم إبعاد أبو محمد من الوطن، ولحقت به بعد ثلاث سنوات، وعندما كنت أعود لزيارة الأهل كان غسان يحرص على زيارتي وسؤالي عن أبو محمد.

علمت أن غسان قد تم اعتقاله عام ١٩٧٤، مع مجموعة من أعضاء الجبهة الوطنية ومن بينهم أخي سليمان النجاب، وبقي غسان في السجن الإسرائيلي لمدة ٣٣ شهراً، ثم أطلق سراحه عام ١٩٧٧، وعند عودتي عام ١٩٧٨ علمت أنه كان يعمل في جامعة بيرزيت مدرساً

Digitized by Birzeit University Library

في كلية الإقتصاد، وقد جاء لزيارتي في جيبيا بصحبة ابنه فجر.

في عام ١٩٨١ سافر إلى أمريكا في بعثة دراسية؛ حيث أوفدته جامعة بيرزيت لإكمال دراسته هنالك ثم عاد عام ١٩٨٣ مريضا، صعقنا بخبر وفاته. أستطيع القول إننا بوفاته خسرنا رفيقا مناضلا مثقفا صادقا مبدئيا محترما.

Digitized by Birzeit University Library

غسان حرب.. سنوات الجفر وما بعدها

د. إبراهيم عدوان

بعد إنهاء دراستي الثانوية، تقدمت بطلب تعيين لمعارف لواء الخليل وكنت قد لاحظت أن لا أمل لي، فاقترح علي زميل أن نحاول في لواء القدس، وأخبرنا مفتش اللواء بتوفر وظيفة على حساب الحكومة في أبو ديس، وأخرى على حساب القرية في كفر مالك قضاء رام الله.

وقد أصر زميلي على الوظيفة الحكومية، فقبلت مضطراً للعمل في مدرسة كفر مالك، حيث مكثت بضعة شهور، ثم نقلني مفتش اللواء الأستاذ جميل البديري إلى مدرسة دير دبوان كموظف حكومي. وكان أول من اتصل بي الرفيق سليمان النجاب عند بداية عملي في منطقة رام الله التي دخلتها للمرة الأولى في حياتي، وتعرفت خلال فترة عملي القصيرة هناك إلى بعض الأسر، ومنها بيت آل حرب، عندما كان الرفيق غسان يدرس في ثانوية مدرسة الفريندز، وكان متميزاً ومتفوقاً في دراسته ونشيطاً منذ أن كان يافعاً، يشارك في جميع الفعاليات الوطنية من انتفاضات وندوات وينشط في المظاهرات التي جرت ضد تزييف نتائج الانتخابات البرلمانية، ومن أجل إلغاء المعاهدة الأردنية- البريطانية، وتعريب الجيش، وضد محاولة إلحاق الأردن بحلف بغداد الإستعماري، ومن أجل إقامة حكم وطني في الأردن.

وصدف أن التقيت بمدرس في مدرسة الفريندز، وعلمت منه أن الرفيق غسان ذكي جداً، ويتفوق على زملاء له متميزين أيضاً، وتبين لي أنه ينظم وقته بحيث ينجح في دراسته بتفوق، ويشارك في مختلف الأنشطة المجتمعية كقائد طلابي معروف بوعيه وحماسته.

لقد تكللت النضالات الجماهيرية التي شاركت بها سائر القوى الديمقراطية والوطنية

Digitized by Birzeit University Library

بتحقيق بعض المطالب الشعبية من تعريب الجيش، وطرد قائده كلوب وسائر الضباط البريطانيين. وتم إلغاء المعاهدة الأردنية-البريطانية المذلة، وإسقاط الحكومة التي كانت تعمل على إدخال الأردن إلى حلف بغداد. وقدمت القوى الديمقراطية والوطنية العديد من الشهداء ومنهم الشهيدة الطالبة الشيوعية رجاء حسن أبو عماشة ورفاق آخرون.

وقد جرت في خريف ١٩٥٦ انتخابات نيابية نالت فيها القوى الديمقراطية والوطنية أغلبية، وتشكلت حكومة وطنية برئاسة سليمان النابلسي، وطدت علاقاتها مع حركة التحرر العربية وبخاصة مع مصر بقيادة جمال عبد الناصر، ومع سوريا التي كان فيها حكم وطني. لكن هذه الحركة جوبهت بمعاداة القوى الرجعية والاستعمارية وعلى رأسها الامبريالية الأمريكية التي خرجت بمبدأ أيزنهاور الذي يتحدث عن الفراغ الناتج عن بدء انحسار النفوذ الاستعماري البريطاني والفرنسي في المنطقة، وعن ضرورة ملء هذا الفراغ.

وحدث انقلاب رجعي بدعم أمريكي في الأردن ضد الحكم الوطني وأُعلنت الأحكام العرفية، وتم شن حملة اعتقالات واسعة ضد القوى الديموقراطية والوطنية. وامتلأت السجون والمعتقلات بالعديد من المناضلين ومنهم المئات من الرفاق الشيوعيين، وكان من بين المعتقلين القائد الطلابي الرفيق غسان حرب الذي كان يدرس في سنته الثانوية الأخيرة، وكان في بداية السنة السابعة عشرة من عمره وتقدم لامتحان التوجيهي وهو في سجنه الذي استمر ثماني سنوات حتى صدور العفو العام سنة ١٩٦٥.

عند اعتقالي، مكثت في سجن الخليل حوالي سنة ونيف، قُدِّمتُ بعدها إلى محكمة أمن الدولة التي أصدرت حكماً عليّ مدته خمسة عشر عاماً، ونُقلت بعدها إلى سجن عمان، ومنه إلى معتقل الجفر الصحراوي، حيث التقيت بالعديد من الرفاق، ومن بينهم الرفيق غسان حرب. وقد وجدته، كما عهدته رفيقاً مخلصاً ومتواضعاً ومبتسماً دائماً، يثقف نفسه باستمرار ويطالع باللغتين العربية والإنجليزية، ومتمسكاً بمبادئه، ورابطاً مصيره بقضية شعبه. وكان قد كُلف من الرفاق بمهام أشركوني معه ببعضها، وبذلك ازدادت معرفتي به عن قُرب. فهو يتميز بطيبته وروحه الرفاقية وتهذيبه وصبره وذكائه ومرحه.

كنا أحياناً أثناء سيرنا في ساحة المعتقل مع بعض الرفاق، يكرر أحدهم أثناء حديثنا قول «يجوز »، فأطلق عليه الرفيق غسان صاحب المدرسة اليجوزية، وحدث أن عملنا معاً في

Digitized by Birzeit University Library

دكان المعتقل. وكنت أرمز لوحدة الوزن (الكيلو) بـ (كغم). فكان يسألني مازحاً: كم كغم وصلنا من بعض المواد؟ فأجيبه: «وصلت جميع الكغمات التي طُلبت من المتعهد».

كان الرفيق غسان يعلّم الإنجليزية والفرنسية في المعتقل لرفاقه ممن كانوا يرغبون بذلك. وتتلمذتُ على يديه باللغة الفرنسية وأصبح لديّ إلمام بمبادئها، مع أنني نسيتها فيما بعد لعدم ممارستها. ولكنني لم أبتعد عن تعلقي وشغفي بأغاني فيروز التي كان الرفيق غسان يردد أغانيها في المعتقل على مسامعنا في بعض الأوقات. وفيما بعد أصبحت جميع تسجيلات أغانيها متوفرة في منزلي، وأصبح أبنائي من عشاق أغنيات فيروز. وأثناء وجودنا القسري في الخارج، كنا نتابع نضال الرفاق في الوطن، وكانت تصلنا أحياناً أعداد من جريدة الطليعة المقدسية التي يشرف الرفيق غسان على صفحتها الإقتصادية حيث كان يقوم بفضح أساليب الاحتلال الإسرائيلي بسرقة أراضي الشعب الفلسطيني، والعمل على ربط اقتصاده وإلحاقه بالإقتصاد الإسرائيلي، وكان يدافع في مقالاته عن المزارعين والعمال الفلسطينيين الذين يتعرضون لأبشع استغلال من قبل الاحتلال. وعمل الرفيق غسان على تعرية أساليب البنك الدولي المسيطر عليه أمريكياً، الذي يفرض على حكومات البلدان النامية شروطه التي تؤدي إلى إفقار وتجويع شعوب هذه البلدان وفرض التبعية عليها. تلك الشروط التي رفضها عبد الناصر وقبلها السادات الذي كان يدعي في بداية عهده أنه يسير على خطى عبد الناصر. وقد رد عليه الشعب المصري بلهجته: «لكنك حاطط تحت الجزمة محاية».

وقد التقيت مرتين بالرفيق غسان خارج البلاد لفترات وجيزة سعدت بها. وبعد عودته إلى الوطن علمت أنه يدرّس مادة الإقتصاد في جامعة بيرزيت ويترأس دائرة الإقتصاد في الجامعة.

لقد كان الرحيل المبكر لرفيقنا غسان حرب، أبو فجر، خسارة كبرى لوطنه وشعبه وأهله ورفاقه وأصدقائه وكل من اطلع على مسيرته النضالية، وعزاؤنا في أعزائنا: فجر «أبو غسان»، وأخوه فادي، والمناضلة زوجة الرفيق غسان، عفاف أبو نحلة حرب.

المجد والخلود لذكرى رفيقنا وعزيزنا غسان حرب؛ أبو فجر.

Digitized by Birzeit University Library

أبو الفجر، نموذج للعطاء والنضال بهدوء

د. مصطفى البرغوثي

كنت شابًا في السابعة عشرة من عمري عندما وصلت إلى موسكو لدراسة الطب، وتعرفت على «أبو الفجر» غسان حرب.

وقبل أن أراه شخصياً، سمعت عنه الكثير، لما كان يقوم به من مساعدة وإسناد للطلبة الفلسطينيين والأردنيين من خلال موقعه في قيادة الحركة الطلابية والسياسية.

لم يحظ أبو الفجر بالجلوس على مقاعد الدراسة الجامعية مباشرة بعد التخرج من المدرسة، لأنه كمناضل ثوري، اضطر أن يقضي ثماني سنوات في سجن الجفر الصحراوي، وكان من ضمن مجموعة من المناضلين الذين جاءوا للدراسة بعد سنوات السجن الطويلة.

كان يقطن مع زوجته المناضلة عفاف في غرفة من غرف الطلبة المتواضعة في الجامعة، وأذكر جيداً صوت وصورة طفلهما فجر الذي رزقا به أثناء دراستهما الجامعية، الذي كان حاضراً خلال اجتماعات طلابية كثيرة.

ورغم مشاغله السياسية والطلابية والعائلية، كان أبو الفجر نموذجاً للطالب المجد، والمجتهد. وكان يقول إن القائد السياسي يجب أن يكون قدوة في دراسته وعمله.

التقينا به مجدداً بعد التخرج، وعملنا معا في أكثر من نشاط ومشروع بعد أن أعتقل وذاق العذاب المرير في سجون الاحتلال إثر عودته الى الوطن. وكان ضمن من اعتقلوا وعذبوا عذاباً شديداً من مناضلي الجبهة الوطنية الفسطينية التي كانت تقود الكفاح الوطني في الأراضي المحتلة.

Digitized by Birzeit University Library

وفي جامعة بيرزيت حيث عمل وعلّم، كان غسان حرب محط إعجاب واحترام الأساتذة وطلاب كثيرين تتلمذوا على يديه.

وفي جامعة بيرزيت كان غسان حرب شعلة نشاط، لم يترك مجالاً إلا وشارك فيه من إسناد الطلبة الأسرى، إلى النشاط في نقابة العاملين، إلى تقديم العون لكل أستاذ مستجد يحتاج إلى الإسناد، وأصبح عنواناً للتوافق والتوفيق بين الجميع.

أجمع من عرفوه كما قالوا لي، على انفتاحه الفكري على كل الأفكار، ومرونته، وبعده عن كل أشكال التعصب.

شدنا جميعاً إليه، هدوؤه الدائم، حتى في أصعب الأوقات، ومثابرته وإخلاصه على أداء واجبه، وكان في ذروة قدرته على العطاء عندما اجتاح جسده المرض اللئيم، فاختطفه من بيننا ومن بين عائلته قبل الأوان.

الناس كلها ستموت، هذه سنة الحياة، ولكن ليس كل الناس من يتركون أثراً في مجتمعهم وحياة الآخرين بعد رحيلهم.

أبو الفجر، ترك أثراً، وعملاً، وتأثيراً لن يمحى.

صنعه بهدوء، وتركه بهدوء.

ولم ولن ننساه.

Digitized by Birzeit University Library

في ذكرى الزميل والصديق

الأستاذ غسان حرب

د. كمال عبدالفتاح

أستاذ الجغرافيا في جامعة بيرزيت

في خريف عام ١٩٧٨ وفي طريق عودتي من ألمانيا إلى فلسطين لألتحق بجامعة بيرزيت، التقيت في عمان الأخ الحبيب الدكتور وليد مصطفى حفظه الله تعالى، وأمد في عمره، وأخبرته أنني سأعمل في جامعة بيرزيت، فأعطاني اسمين اثنين من أصدقائه يعملان في الجامعة هما الأستاذ غسان حرب والأستاذ تيسير العاروري. وكانا خير عون لي، عندما داومت في عملي، بالتعرف على الجامعة، وأساتذتها، والأجواء التعليمية والفكرية فيها، مما سهل لي منذ البدء الاندماج في مجتمع الجامعة، ونشاطاتها، بصورة متوازنه استمرّيت عليها طيلة فترة عملي في الجامعة حتى نهاية عام ٢٠١٨م.

وقد شدّني للأستاذ غسان ابتسامته الدائمة وروحه المتفائلة، وسعة صدره، ومقدرته على النقاش والإقناع وقبوله الرأي الآخر. وكانت جامعة بير زيت آنذاك قد تكرست في فلسطين كلها كموطن للفكر الحر الواعي، وكحاضنة للوطنية الفلسطينية على مختلف مناحيها واتجاهاتها. وكان للأستاذ غسان إسهام واضح في طرح الأفكار، وتطويرها، ونقاشها لتكون نبراساً للأجيال الشابة. وكان أيضاً مقبولاً على الزملاء والطلاب على اختلاف توجهاتهم.

أذكر أيضاً للأستاذ غسان أنه كان نقابياً بالمفهوم الواسع لدعم حقوق العاملين والطلاب. وقد كان في هذا المجال محاورا ومفاوضاً ممتازاً، مهتماً بالحفاظ على العلاقات بين هيئات الجامعة موحدة في مواجهة سلطات الاحتلال.

Digitized by Birzeit University Library

لقد غاب عنا الأستاذ غسان بصورة مبكرة، ولكن ما كان قد شارك في إرسائه من نهج في العمل النقابي، والمجتمعي، والسياسي، ظل مستمراً في مجتمع الجامعة وفي المجتمعات التي انتقل إليها خريجو الجامعة الذين ينتشرون في كل فلسطين وفي معظم الدول العربية والعالم.

Digitized by Birzeit University Library

غسان حرب

حضور دائم في مواقع الجماهير

د. عزمي الشعيبي

كان من الطبيعي أن ألتقي بالمناضل اليساري التقدمي الشيوعي العائد من الاتحاد السوفيتي في مرحلة السبعينات غسان حرب؛ كوني كنت قد نشأت وتعرفت على الفكر اليساري التقدمي على يد أستاذين في المدرسة الهاشمية، وهما الأستاذ مصطفى الصافي من حركة القوميين العرب والأستاذ محمود شقير من الحزب الشيوعي، وبالرغم من أنني التزمت بحركة المقاومة الفلسطينية في جناحها اليساري، فقد وجدت في شخص غسان حرب الشيوعي الوحدوي؛ صديقاً ميدانياً حين عمل مدرساً للاقتصاد في جامعة بيرزيت، وكان من ضمن المهام التي كلفت بها هي التواصل مع مجموعة من أساتذة الجامعة الوطنيين بشكل عام واليساريين بشكل خاص.

شاركني الصديق غسان وآخرين في تنظيم الحوارات وتقريب وجهات النظر بين الأطراف الناشطة في الحركات الجماهيرية الطلابية والعمالية والنسوية؛ التي كان للشيوعيين دور مبادر فيها، وشكّل النموذج الشيوعي للقيادي ممثلاً بشخص غسان مثالاً لليساريين عموماً وذلك في الانخراط الشامل في مجالات مجتمعية عديدة مرتبطة بدور الحزب، حيث تواجد غسان في معظم مواقع الجماهير ومؤسساتها، كنا أحياناً نختلف مع بعض توجهات الحزب الشيوعي، ولكن لم يحصل أن اختلفت مع الصديق غسان كونه محاوراً أديباً ووطنياً ومتواضعاً.

Digitized by Birzeit University Library

كان غسان حرب طموحاً؛ وكان يرى أن الصراع مع المحتل الإسرائيلي سيطول، ورغب في إكمال دراسته وبحثه العلمي، فودعناه وقال: إن سفري مؤقت.

ولم نكن نقدّر أن غسان سيعود بالسرعة التي عاد فيها، كنا نتوقع أن معيقات المستقبل الشخصي لكل منا ستأتي من الاحتلال، ولم يكن أحد منا يتوقع مرض غسان المفاجئ، كانت لحظات قاسية ونحن نودعه بهذه السرعة، حيث خرج الجميع في «وداعه في مظاهرة وطنيه شاركت فيها الفصائل السياسية والمواطنون تحت شعار: وحده وحده وطنيه... إسلام ومسيحيه».

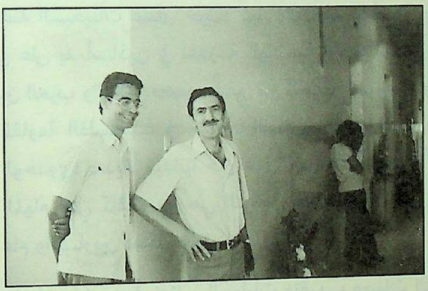

رام الله ١٩٧٣/١٩٧٢ - د. عزمي الشعيبي

Digitized by Birzeit University Library

غسان حرب، أبو فجر
ذكرى مناضل وطني وأممي مميز

د. عيسى الدباح

عرفت الرفيق والصديق الغالي أبو الفجر منذ الصبا المبكر، فقد كانت عائلته تعيش في بيت مستقل بجانب أرض «المسكوبية» في رام الله، وكانت عائلتي تسكن على بعد حوالي ٢٠٠ متر في شارع بلدية رام الله القديمة. كان غسان يكبرني بسنتين أو ثلاث، ولكنه كان صديقاً مقرباً من أخي الأكبر كريم، حيث كانت تجمعهم «خلية» من الرفاق الشيوعيين المتحمسين ممن كانت أعمارهم بين ١٨/١٧ عاماً. وكانوا يلتقون ويتناقشون ويقرأون مصادر الثقافة الماركسية وأدبيات الحزب الشيوعي السري آنذاك. كانت مجموعتهم تضم بالإضافة إلى غسان الذي كان أصغرهم سناً وأعرفهم حزبياً كونه من عائلة ثورية، منها شقيقه الأكبر حرب (أبو نضال) - الصديق العزيز أرجو له طول العمر الذي يبهرك بالتعرف على محدثيه من أصواتهم بعد فقده نعمة البصر، والذي تجاوز التسعين من عمره. والشقيق الثاني طلعت، وهما اللذان تمرّسا بالنضال الثوري والحزبي ضد الاستعمار البريطاني والصهيونية في فلسطين في إطار عصبة التحرر الوطني، وساهما لاحقاً في النضال ضد الرجعية والتبعية في الأردن في إطار الحزب الشيوعي الأردني.

وعودة لخلية غسان، فقد ضمت أيضاً جمال عبد الفتاح الرنتيسي (الذي درس لاحقاً في تشيكوسلوفاكيا) وخالد سلامة، الذي هاجر الى أمريكا الوسطى وأصبح رجل أعمال مرموقًا، وعضواً في المجلس الوطني الفلسطيني، وقدم خدمات تجارية واقتصادية لكوبا الاشتراكية خلال أوائل سنوات الحصار الإمبريالي الأمريكي المجرم، وما زال له مكتب تجاري في هافانا. وكذلك كل من عقل حلاوة وفيليب رفيدي بالإضافة إلى أخي كريم الدباح الذي درس

Digitized by Birzeit University Library

لاحقاً الفنون الجميلة في موسكو، وذلك في الفترة التي كان غسان يدرس الإقتصاد في جامعة باتريس لومومبا للصداقة بين الشعوب.

ما زلت أذكر تماماً كيف كانت هذه المجموعة من الشباب الذين تجمعهم الخلية الحزبية، وهم يتحلقون حول الراديو في بيتنا للاستماع لإذاعة موسكو في عام ١٩٥٣ عند وفاة ستالين الذي كانوا يتحدثون عنه كثيراً بكل عظمة وحب وتقدير ثم بألم وأسف على وفاته... وكنت أسألهم عن هذا الستالين؟ وشاء القدر لاحقاً أن «أتخصص قليلاً» بتاريخ وإنجازات ومؤلفات وأخطاء يوسف فيساريونوفيتش ستالين المعروف بلقبه الحزبي السري ستالين، وتعني بالروسية الفولاذي - الثائر الجيورجي الأصل والعضو البارز في قيادة حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي - الحزب الشيوعي السوفيتي لاحقاً - الذي أسسه فلاديمير لينين - حيث التحق ستالين بصفوف الحزب خلال دراسته في معهد اللاهوت في جورجيا، وأصبح لاحقاً أقرب رفاق لينين وأوفى مؤيديه خلال الصراعات الفكرية داخل الحزب، أو في توضيح وتفسير وتطوير الفكر الماركسي اللينيني، كما كان إلى جانب لينين خلال ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى عام ١٩١٧، وأصبح السكرتير العام للحزب خلفاً للينين في حياته من العام ١٩٢٢ وحتى وفاته في عام ١٩٥٣.

كنت ألاحق هذه المجموعة التي كانت تعتبرني صبياً صغيراً، وكان غسان الأقرب إليّ سناً، ذهبت برفقتهم في زيارة إلى نابلس ترحيباً بعودة الشاعرة فدوى طوقان من زيارة للصين الشعبية عام ١٩٥٥، وكذلك في عام ١٩٥٦ في لقاء البحر الميت وهو أول لقاء علني لشيوعيي الأردن وأصدقائهم، حيث كانت هذه المجموعة من الشباب نشطة جداً. وكان أول ظهور علني للمجموعة بشكل شيوعي ثوري مشاركتهم الفاعلة في مظاهرة كبيرة في وسط مدينة رام الله. حيث بدأت المظاهرة مدرسة البيرة الثانوية حتى المدرسة الأهلية في رام الله، وما زلت أذكر رجال المباحث (وأذكر أسماءهم حتى اليوم) وهم يدعون عبر مكبرات الصوت هؤلاء الشباب بالاسم لترك المظاهرة متوعدينهم بالعقوبات والتهديدات، ولكن حناجر الشباب كانت تصدح بالهتاف ضد غلوب والرجعية والاستعمار وإسرائيل؛ ومما لا شك فيه أن هؤلاء الشباب أبدوا بطولة وشجاعة تذكّر بالمناضلين الثوريين كما في رواية مكسيم غوركي (الأم) ورواية أوستروفسكي (الفولاذ سقيناه) ومؤلف فادييف (الحرس الفتي)، هذه المؤلفات وغيرها كانوا يقرأونها ويتداولون ما فيها مما زاد من إيمانهم وصلابتهم الثورية والحزبية.

وخلال خطوبة الرفيق طلعت حرب، شقيق غسان على الرفيقة (الصديقة لاحقاً) أسماء

Digitized by Birzeit University Library

الحمارنة، المناسبة التي جعلها الحزب اجتماعاً جماهيرياً أُعلن خلاله ترشيح الحزب في رام الله في عام ١٩٥٦ للرفيق الرائع والقائد الحزبي والجماهيري فائق وراد (أبو محمد) نائباً عن رام الله في الانتخابات البرلمانية التي نجح فيها بامتياز.

كان نشاط غسان ورفاقه الشباب في خليته التي لا تهدأ في رام الله والبيرة والقرى، وكنت ألاحقهم أينما ذهبوا، حاملاً السلم أو سطل الغراء من أجل تعليق أوراق الدعاية الانتخابية بشعارات الحزب الشيوعي الأردني لبرنامج الرفيق فائق وراد الانتخابي، وكانت النتيجة نجاحاً باهراً للرفيق أبو محمد نائباً في البرلمان في منطقة رام الله والبيرة، علماً بأن الرفيق لم يكن معروفاً للناس قبل ترشيحه كونه من قادة الحزب السريين.

ونتيجة للانتخابات البرلمانية، التي لم تتمكن السلطة الرجعية تزويرها كلياً كالعادة، نجحت مجموعة من ممثلي القوى الوطنية والتقدمية في الحصول على الأغلبية البرلمانية مما أجبر السلطة على تكليف الشخصية الوطنية البارزة سليمان النابلسي (الصديق العزيز في الستينات والسبعينات من القرن الماضي) بتأليف حكومة جديدة بدأت بقيادة الأردن نحو الاستقلال الحقيقي بعد طرد غلوب – العميل البريطاني قائد الجيش الأردني والحاكم الفعلي في الأردن – وإلغاء «المعاهدة» البريطانية الأردنية التي كانت تكبل الأردن وترهنه كتابع للقوى الاستعمارية، ولكن قوى السلطة الرجعية بالتعاون مع القوى الاستعمارية المدعومة من مشروع إيزنهاور وحلف بغداد تمكنت من إسقاط حكومة سليمان النابلسي الوطنية، وبدأت في تنفيذ حملة اعتقالات هستيرية في شهر نيسان عام ١٩٥٧ شملت الآلاف من المواطنين وفي أولهم الشيوعيون والبعثيون والمحسوبون على الحزب الوطني الاشتراكي – حزب النابلسي – وأعداد كبيرة من الشخصيات الوطنية المستقلة، حملة الاعتقالات هذه استمرت أشهراً وقد أتبعتها السلطات بمحاكمات عسكرية امتدت حتى عام ١٩٦٥، وكان الحكم على الشيوعيين بشكل خاص جاهزاً ومعلناً بالسجن لمدة ١٩ عاماً!

اعتقلت شخصياً في بداية ابريل ١٩٥٧ وكنت في الخامسة عشرة من عمري؛ حيث نفيت مباشرة مع الآلاف إلى معتقل الجفر الصحراوي لمدة ستة أشهر، أتبعتها السلطات بحكم المحكمة العسكرية بالسجن لمدة سنة إضافية قضيتها مع بعض الأحداث الشيوعيين (فاروق السلفيتي وأنطون ترجمان) في إصلاحية بيت لحم، ثم صدر أمر عرفي بحقي بالإقامة الجبرية في رام الله لمدة ثلاث سنوات، وخلال هذه الفترة تم اعتقالي مرات عدة أثناء قيام الثورة في العراق عام ١٩٥٨ أو عند اغتيال رئيس الوزراء هزاع المجالي، أو عند ظهور منشورات ضد السلطات ... وخلال هذه الاعتقالات التقيت بغسان في سجن رام الله

Digitized by Birzeit University Library

والذي كان قد اعتقل أيضاً عام ١٩٥٧، وخلال هذا اللقاء التقيت شقيق غسان الأكبر حرب حرب والأخ الثاني طلعت ووالدهم الشخصية الوطنية أبو حرب (ناصيف)، وعندما كانت أم حرب تزورهم في السجن كانت أيضاً تطلبني للزيارة قائلة في السجن زوجي وأولادي الثلاثة وأنت رابعهم ...

لم ألتق بعد ذلك بغسان الذي تحمل سنوات السجن والنفي بكل شجاعة وصلابة وبطولة، مثل مئات الشيوعيين الذين بقوا في معتقل الجفر حتى تم الافراج عن المعتقلين السياسيين كافة عام ١٩٦٥...

في عام ١٩٦١ عندما رفعت الإقامة الجبرية عني، أخبرني الحزب أنه أمن لي بعثة دراسية في الاتحاد السوفيتي. لقد عارضت والدتي وشقيقتاي موضوع سفري إلى الاتحاد السوفيتي، حيث أن والدي قد توفي قبل أشهر. وأن أخي الأكبر جورج كان قد هرب إلى العراق ومن ثم إلى إيران بعد أن قامت السلطات الكويتية حيث كان يعمل باعتقال الشيوعيين وتسليمهم للأردن، أما أخي الثاني كريم الذي اعتقل في عام ١٩٥٧ فقد تمكن من الهرب من سجن القشلة في القدس عام ١٩٥٨ وانضم للكادر السري للحزب الشيوعي ...

لقد أصرّيت على السفر إلى الاتحاد السوفيتي - كأنه حلم خيالي قد تحقق - ولم يعرف بالموضوع أحد بتاتاً إلا الأم البطلة أم حرب (والدة غسان)، حيث عندما ذهبت لوداعها قالت لي: «وغسان يمّا؟» قلت لها أكيد الحزب سيؤمن له بعثة دراسية حال خروجه من السجن، هذا ما حصل تماماً، ولكن بعد خمسة أعوام ... حيث تم إطلاق سراح جميع المعتقلين السياسيين ومن بينهم غسان عام ١٩٦٥، أمّن الحزب بعثة دراسية له في الاتحاد السوفيتي عام ١٩٦٦، وفي نفس الجامعة التي درست أنا فيها -جامعة باتريس لومومبا للصداقة بين الشعوب. وصل غسان لموسكو في شهر سبتمبر ١٩٦٦ وكنت أنا قد تخرجت بدرجة الماجستير من كلية الحقوق قبل وصول غسان بشهرين.

التقيت غسان في نفس يوم وصوله لموسكو في الجامعة، ولا يمكن وصف روعة ذلك اللقاء ... أما غسان فبكل جدية وهمة بدأ بدراسة اللغة الروسية، وثاني يوم صحبته إلى الساحة الحمراء وضريح لينين وبعض معالم موسكو الأخرى، وكان تنقلنا بالمترو الذي انبهر به غسان. حال وصول غسان لموسكو كلفه الحزب بقيادة تنظيم الطلبة الأردنيين والفلسطينيين في موسكو والمدن السوفيتية الأخرى حسب تواجد هؤلاء. أما أنا فقد بدأت بإعداد شهاداتي الرسمية ووثائقي للعودة إلى الوطن لأول مرة منذ عام ١٩٦١، وكنت قد دافعت عن أطروحتي للماجستير بعنوان «نظام الحكم في إسرائيل» ولم يكن صدر قبل ذلك أي مرجع

Digitized by Birzeit University Library

باللغة الروسية حول هذا الموضوع. لقد كان الدفاع عن الأطروحة «معركة حامية الوطيس» حيث حضرها عدد كبير من الطلبة الأردنيين والعرب وزملاء الدراسة وعدد من الباحثين الأصدقاء من معهد الاستشراق السوفيتي آنذاك. «شرشحت» إسرائيل بادعائها بأنها دولة ديمقراطية ذات توجه اشتراكي! وانتقدت من اعترف بها، وكان الاتحاد السوفيتي يقيم علاقات دبلوماسية معها. بالنتيجة كان قرار اللجنة أن الآراء السياسية في الأطروحة خاصة بالمؤلف، وتم الاعتراض عليها من قبل بعض أعضاء اللجنة، ومع ذلك قررت اللجنة بالإجماع قبول الاطروحة بدرجة جيد كونها قد ارتكزت في تحليلها القانوني والدستوري على قواعد ومبادئ الفكر الماركسي اللينيني.

أواخر شهر سبتمبر ١٩٦٦ ذهبت للسفارة الأردنية في موسكو لتجديد جواز سفري ولتصديق شهاداتي، طلبني السفير آنذاك لمقابلته حيث قدم لي التهنئة بتخرجي وقال أنه سمع عن دفاعي عن أطروحتي، وهو يعرض علي العمل مترجماً في السفارة كونه لا يعرف إلا اللغة العربية، وكنت خلال دراستي في كلية الحقوق قد أكملت دورة كاملة في الترجمة من اللغة الروسية إلى العربية وبالعكس، وذلك احتياطاً عند عودتي للأردن فيما لم أوفق بالعمل بشهاداتي القانونية، أن أعمل في مجال الترجمة خاصة وأن ما كان آنذاك يصدر باللغة العربية من ترجمات روسية يتم من إصدارات روسية مترجمة إلى الإنكليزية أو الفرنسية، وعرض السفير لم يخطر في بالي أو لدى أي طالب آخر ... وهنا عدت لغسان بالموضوع حيث طلب مني التريث بالرد لبضعة أيام ... ثم شجعني بقبول العرض للعمل في السفارة، وهكذا بدأت العمل في السفارة الأردنية في موسكو مترجماً. ولكن هذا الأمر أثار عدداً كبيراً من الطلبة الأردنيين ولم يستوعبوه أو يفهموه أو يقدروه ... ودعوا إلى اجتماع لرابطة الطلبة الأردنيين قائلين إنهم لم يتوقعوا مني مثل هذا القرار، وكوني صديقًا حميمًا للجميع طلبوا مني التخلي عن العمل في السفارة، وبعد جدال طويل قرروا بالإجماع طردي من الرابطة، وعندما سأل رئيس الاجتماع - د. أنطون صنصور _ من يعارض قرار الطرد، وقف غسان بقامته وحيداً رافعاً يديه الإثنتين معترضاً على القرار.

وهكذا بدأت العمل في السفارة ملتقياً بغسان أسبوعياً في رحاب موسكو. ومن الجدير هنا تسجيل أن غسان انكب على دراسة اللغة الروسية أولاً ومن ثم التخصص بدراسة الإقتصاد بكل مثابرة وجدية وببعض الصعوبة خاصة بعد انقطاعه الطويل عن الدراسة خلال سنوات السجن الثماني، ومما لا شك فيه أن وعيه الفكري والسياسي وتجربته النضالية سهّلا عليه في دراسته، لقد قام ومنذ وصوله لموسكو بالانكباب على دراسة اللغة الروسية ومن ثم

Digitized by Birzeit University Library

علم الإقتصاد، وبشكل فردي دراسة أسس الاشتراكية العلمية والماركسية اللينينية بالإضافة إلى قيادة التنظيم الشيوعي للطلبة الأردنيين في الاتحاد السوفيتي، بالإضافة لعديد سفراته للمدن السوفيتية والدول الاشتراكية لحضور اجتماعات وندوات ومهرجانات شبابية طلابية.

كثيراً ما كنا نتناقش غسان وأنا عن واقع الطلبة الأردنيين الدارسين في الاتحاد السوفيتي وخاصة من كان منهم عضواً في التنظيم الأردني. حيث كان غسان يشكو من عدم اهتمامهم بتاتاً بالاستفادة من دراستهم في هذا البلد الاشتراكي العظيم، خاصة من ناحية الانخراط في النشاطات التثقيفية من مثل زيارة المتاحف والذهاب للمسرح والتعرف بعمق على المجتمع السوفيتي والتجربة الاشتراكية السوفيتية، وأهم من كل ذلك دراسة الفكر الماركسي اللينيني أو حتى القراءة بصورة عامة خارج موضوع التخصص.

ومن تجربتي خلال الخمس سنوات الدراسية التي زاملت فيها كافة الطلبة الأردنيين في موسكو وغيرها من المدن السوفيتية، فإن من يشارك بهذا التقصير قيادة التنظيم كما قادة الحزب عند زيارتهم للاتحاد السوفيتي، حيث لم يقوموا بتاتاً بالاجتماع لا مع أعضاء التنظيم أو مع الطلبة الأردنيين عموماً لتعريفهم بأوضاع الأردن آنذاك وتشجيعهم على دراسة الثقافة الشيوعية أو الأدبية، مما ترتب عليه مع الأسف الشديد ابتعاد الغالبية منهم عن الحزب بعد حصولهم على شهادات التخصص والعودة إلى الوطن، هذا الحزب الذي وفر لهم البعثات الدراسية في الاتحاد السوفيتي. وقد كان الرفيق العزيز تيسير العاروري (الطالب آنذاك والذي فقدناه أيضاً وهو المناضل المثابر الملتزم) يشاركنا بعض هذه اللقاءات ويتألم لواقع الطلبة كما غسان. هذه اللقاءات الجميلة قد زادت مع قدوم أخي الأكبر كريم في عام ١٩٦٩ للدراسة في موسكو في كلية الفنون الجميلة.

مما يجدر ذكره عن غسان؛ بالذات خلال هذه الفترة وطوال فترة وجوده في موسكو، أنه كان جاداً في حياته وفي سلوكه وتصرفاته. وأذكر في موضوع الطلبة الأردنيين الدارسين في الاتحاد السوفيتي أنه حصل خلاف وحيد بيني وبين غسان، إذ إن موقعي الدبلوماسي في الاتحاد السوفيتي وخاصة لعلاقاتي الجيدة مع المسؤولين في وزارتي الخارجية والتعليم العالي، وفر لي إمكانية تأمين بعثات دراسية للعديد من الطلبة الأردنيين للدراسة في الجامعات السوفيتية، حيث كنت أنظر للموضوع على أنه خدمة لهؤلاء الشباب كما أنه مكسب وطني ... كان ممن أمنت لهم بعثات شقيقان وشقيقة من أبناء شقيق غسان الأكبر حرب حرب (أبو نضال) وهو الشخصية الوطنية المناضلة في صفوف عصبة التحرر الوطني ومن مؤسسي الحزب الشيوعي الأردني. طلب مني غسان التوقف عن تأمين بعثات للطلبة الأردنيين

Digitized by Birzeit University Library

حيث إن ذلك «يشكل عبئاً» على الاتحاد السوفيتي، كما أن تـأمين بعثات لطلبة من أفراد عائلته قد أحرجه أمام التنظيم وأمام الطلبة الأردنيين؛ حيث هناك اعتقاد أنه قد أحضرهم شخصياً.

جادلت غسان بذلك معترضاً على طلبه، ولو أن جهودي في هذا المجال تشكل عبئاً على الاتحاد السوفيتي لتم إعلامي من قبل أصدقائي السوفييت، أما تأمين بعثات لطلاب من أفراد عائلته فهو أمر لم يكن له أي دور فيه. وهنا أسجل بكل فخر وتقدير أن أولاد العزيز حرب حرب الثلاثة الذين درسوا الطب في مدينة لينتغراد، وكذلك كل من أمنت لهم بعثات من أبناء الأرض المحتلة كانوا متميزين في دراستهم. أولاد حرب حرب؛ الأول: نضال أصبح طبيباً في مجال الطب النووي ورئيس إحدى المستشفيات، والثاني غصوب (أبو غسان) يعمل في أمريكا طبيب أمراض مجاري بولية، أما الدكتورة طروب فقد أصبحت خبيرة دولية في مجال صحة المرأة، ونشاطها يشمل قارات آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية. كلهم أنهوا دراستهم بامتياز، وأذكر في زيارة لي لعيادة الدكتور نضال أنه وضع شهادة الطب السوفيتية في إطار مذهب في العشرات من شهادات التقدير التي حصل عليها في أمريكا.

تزوج غسان في عام ١٩٦٩ في عمان من الأخت الغالية عفاف أبو نحلة، وحضرتُ من موسكو لأشاركهما فرحة الزواج. وفي العام التالي تزوجت أنا وأحضرت زوجتي للعيش معي في موسكو، وهكذا أخذنا نلتقي مع غسان وعفاف باستمرار. في عام ١٩٧٠، بعد أحداث أيلول في الأردن، تم طردي من وزارة الخارجية من قبل حكومة وصفي التل فعدت إلى عمان.

بعد موسكو التقيت بغسان في عمان في عام ١٩٧٤، وطلب مني أن أساعده في إصدار شهادة ميلاد أردنية لابنه البكر فجر، على أساس شهادة الميلاد السوفيتية. ذهبنا معاً إلى مكتب الأحوال المدنية حيث تم إصدار شهادة ميلاد أردنية لفجر، ولكن المسؤول أخذ الشهادة السوفيتية وألقاها خلف ظهره على الأرض مع كومة كبيرة من الوثائق، وقد رفض بإصرار إعادتها قائلاً: «ممنوع» حاولنا إقناعه بشتى الطرق حيث يمكنه الاكتفاء بصورة مصدقة عنها، وأن الشهادة السوفيتية ذكرى عزيزة، ولكنه بقي يكرر: ممنوع ممنوع ممنوع. كان مكتبه في مطبخ شقة الأحوال المدنية، ولا يمكن الدخول أو الخروج من غرفة المكتب إلا عبر القفز من فوق مكتب المسؤول، في تلك اللحظة نادى شخص من المكتب المجاور قائلاً (محمد بك تلفون عشانك) وإذا هذا المسؤول يقفز من فوق مكتبه مسرعاً للرد على التلفون في المكتب المجاور، وإذا بغسان مثل لمح البصر يقفز بدوره من فوق مكتب (محمد بك) إلى داحل مكتبه - المطبخ، ويأخذ شهادة ميلاد فجر السوفيتية ويقول لي دعنا نخرج،

Digitized by Birzeit University Library

وبقينا نقهقه على هذه الحادثة طوال ذلك اليوم.

التقيت بغسان آخر مرة في عمان وهو بطريقه لدراسة الدكتوراة في أمريكا، وقبل ذلك كنت أتابع أخباره في رام الله حيث كان يُدرّس في جامعة بيرزيت ويشارك في النضال ضد الاحتلال الإسرائيلي في صفوف الحزب الشيوعي بكل جرأة وبطولة.

وصلني خبر وفاته وأنا أعمل في السفارة في القاهرة، حيث تم إعادة جميع الموظفين الذين ظلموا من قبل حكومة وصفي التل إلى وظائفهم السابقة.

لقد كان خبر وفاة غسان كالصاعقة ... فارق الحياة شاباً في قمة عطائه النضالي والعلمي. وقد كانت تربطني في القاهرة صداقة مع الفنان الثوري الفذ الضرير العزيز الموسيقي والعازف على العود والمطرب الشيخ إمام، حدثته عن غسان ونضاله وحياته ورجوته إذا كان بالإمكان تخليد ذكرى غسان ومناضلي فلسطين بأغنية ثورية، رد الشيخ إمام أنه كثيراً ما غنى لفلسطين وثوارها... ووعد بأن يجد شاعراً ليكتب قصيدة حول هذا الموضوع، وكان ذلك بعد القطيعة المؤلمة بين الثنائي العظيم الشيخ إمام والشاعر المبدع أحمد فؤاد نجم. ولكن بسبب انتقالي الفجائي من القاهرة جعلني لا أستطيع متابعة الموضوع.

المجد والخلود لذكرى المناضل الوطني العربي الفلسطيني غسان حرب، وكل المناضلين الشرفاء ضد الاستعمار والصهيونية والإمبريالية الرجعية.

Digitized by Birzeit University Library

الأستاذ غسان حرب..
النموذج الملهم

د. غسان الخطيب

لم يبقَ الكثير من هذا النموذج الملهم الذي يمثله أستاذنا ورفيقنا وصديقنا غسان حرب؛ لدرجة أنني أشفق أحيانا على الجيل الجديد من طلبة جامعة بيرزيت، وجامعات الوطن عموما، لأن حظهم لم يكن مواتيًا مثل حظنا نحن الذين أتاح لنا الزمان التعرف على مثل هذا النموذج الفريد و العمل معه.

كنت قد بدأت دراستي في جامعة بيرزيت في تخصص المحاسبة، بناء على توجيهات عائلية مبنية على أن هذا التخصص يتح فرصا للعمل بعد التخرج أكثر من غيره، ولكن سرعان ما جمعني الانتماء الحزبي المشترك بمن اكتشفت لاحقا أنه أستاذ الإقتصاد السياسي في جامعة بيرزيت، الأستاذ غسان حرب.

قال لي بعد أن عرف أني طالب جديد في جامعة بيرزيت: «لماذا لا تساهم مع طلبة آخرين في العمل تطوعا معي من أجل إنجاز العمل الميداني لبحثٍ أقوم به عن الحركة النقابية العمالية في فلسطين؟» رحبت بالفكرة، التي أتاحت لي مزيدًا من الاحتكاك به، والتعرف عليه، والعمل معه، وأجبته بدون تردد: «بكل سرور، لدينا عدد لا بأس به من الطلبة الرفاق والأصدقاء الذين نستطيع تجنيدهم للتطوع للمساهمة في العمل الميداني وتعبئة الاستمارات اللازمة، في مناطق الضفة والقطاع المختلفة»، كان يريد من خلال هذا البحث أن يفهم بشكل علمي خصائص وطبيعة وظروف الطبقة العاملة الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة، التي كان يؤمن أنها العمود الفقري للعمل الجماهيري ضد الاحتلال الإسرائيلي.

Digitized by Birzeit University Library

وكانت هذه مجرد البداية، لأنه في سياق هذا العمل البحثي، لم يبخل أبو الفجر عليّ وعلى باقي زملائي بالحديث حول مغزى البحث، سواء من الناحية النقابية أو الإقتصادية، وقد امتدت هذه الأحاديث لنتعلم منه أهمية البعد الإقتصادي في فهم واقع أي مجتمع، بما فيه مجتمعنا، وفهم أي صراع، بما فيه صراعنا مع المحتل الإسرائيلي.

كان يقول مثلا: «المجتمع مكون من طبقات، وكل طبقة لها مصالحها المختلفة التي تدافع عنها بواسطة أدوات سياسية مثل الأحزاب، والصراعات السياسية هي ترجمة لتضارب المصالح الإقتصادية، وبالتالي، لن تفهموا اللعبة السياسية دون أن تفهموا أبعادها الإقتصادية»، وبدأنا ندرك أنه الإقتصاد إذاً الذي يمكن أن يساعدنا في فهم واقع مجتمعنا.

وإذا نشأ نقاش سياسي حول علاقات وأزمات دولية، نسمعه يكرر «الطبقات الحاكمة ترسم السياسة الخارجية للبلد بناء على مصالحها الطبقية، التي يمكن أن تتوافق أحيانا ويمكن أن تتعارض أحيانا أخرى، مع مصالح الشعب والوطن عموما».

كنا نستمع لذلك ونستنتج: أنه العامل الإقتصادي إذاً الذي يحرك الدول والشعوب والفئات الاجتماعية المختلفة، ويحدد علاقاتها الوطنية والدولية ويدفعها لهذا السلوك السياسي أو ذاك، ولدوافع اقتصادية نراها تتستر بهذا المعتقد الثقافي أو الديني أو ذاك! إذًا، لا بد أنّ علم الإقتصاد هو المفتاح، وهكذا هجرت تدريجيا تخصص المحاسبة، وانخرطت تدريجيا في علم الإقتصاد، الإقتصاد الجزئي، الإقتصاد الكلي، الإقتصاد الدولي، تاريخ الفكر الإقتصادي، الخ، وعندها، اكتشفت أن الاسم لم يكن الشيء الوحيد المشترك بيني وبينه، بل كان أيضا حب علم الإقتصاد وإدراك أهميته.

وعندما كنا نلاحظ تفاوتا بين كتب الإقتصاد التي ندرسها، والمفاهيم الإقتصادية التي كان يعلمها لنا، كان يتضح لنا أنه لم يكن يخفى على الأستاذ غسان حرب، أن الفكر الإقتصادي الرأسمالي حاول تجريد الإقتصاد من السياسة، وأن تخصص الإقتصاد السياسي، الذي درسه أبو فجر في جامعات الاتحاد السوفياتي، لم يعد تخصصا يدرس في الجامعات الغربية، التي حاولت تقديم وتدريس الإقتصاد ببعده التقني خارج سياقة المجتمعي والسياسي.

وقد تذكرت ذلك مؤخراً عندما كنت أقرأ منذ أسابيع فقط كتابا صدر مؤخرا بعنوان:The Econocracy صادرا عن تجمع من الإقتصاديين الانجليز الذين أسسوا في السنوات الأخيرة حركة أسموها إعادة النظر في مفهوم علم الإقتصاد reconsidering economics، ويتلخص مسعاهم في تحرير علم الإقتصاد من التعريف التقني، وإعادة ربطه بحركة المجتمع ودوافع

Digitized by Birzeit University Library

ومصالح فئاته المختلفة، واعتبار علم الإقتصاد علما مرتبطا بالسياسة والمجتمع، تذكرت ما تعلمته من أبو الفجر، وشعرت بمزيج من السعادة، لأني أعرف ما توصل إليه هؤلاء مؤخرا منذ درّسني أبو الفجر، ولكن أيضا شعور بالأسى والحزن لأن الأستاذ غسان لم يعد موجودا ليقول لهم بزهو: ألم أقل لكم؟

كان هذا هو الدرس الأول، أما الدرس الثاني، والذي لم يكن يقل أهمية، فقد تمثل في مبادرة الأستاذ غسان حرب، مع مجموعة من الأساتذة الجامعيين بتأسيس نقابة العاملين في الجامعات الفلسطينية، ولعل هذه مناسبة لنعود للوراء قليلا، إلى مرحلة شهدت دورا للقوى السياسية المنظمة، وأهمها الحزب الشيوعي، الذي أصبح اسمه لاحقا حزب الشعب، في تنظيم الجماهير في أطر مهنية وقطاعية مختلفة.

تعلمنا من الأستاذ غسان حرب وأمثاله من النماذج الملهمة التي باتت نادرة، أن أي عمل سياسي فعال، مثل مقاومة الاحتلال، لا يمكن أن ينجح بدون أن يعتمد على دور أساسي للجماهير الشعبية، أو على الأقل حاضنة شعبية، ذلك أن العمل السياسي الفردي، مهما كان حكيما أو بطوليا، لن يكون مستداما وواسعا حتى يكون مؤثرا. كما تعلمنا أن الجماهير لا تنتظم فقط في أطر سياسية، بل نقابية ومهنية واجتماعية وقطاعية، وإلى ما لا نهاية من الأشكال التي تجمع أصحاب المصالح المشتركة في أطر منظمة، وأن هذه الاطر، تمكن الناس من أن تمسك زمام أمورها بأنفسها، وتكون تحركاتها ومساهماتها واعية ومدروسة ومتواصلة وبالتالي مؤثرة.

شهدت مرحلة السنوات التي تلت صدمة الاحتلال، أي السبعينات من القرن الماضي، ظاهرة نشوء أطر جماهيرية منظمة، شملت العمال والمهنيين والمثقفين والمرأة والمزارعين، وبما أن تلك الفترة شهدت نشوء جامعات فلسطينية، فقد خطر ببال الأستاذ غسان حرب وزملائه ورفاقه فكرة تأطير وتنظيم العاملين في مؤسسات التعليم العالي.

وشأنها شأن مثيلاتها من المؤسسات الجماهيرية، أبدعت مبادرة أبو الفجر في الجمع بين دور النقابة المتعلق بتطوير عمل الجامعات والدفاع عن المصالح النقابية للعاملين فيها من ناحية، وبين تنظيم انخراط هذا القطاع بشكل منظم في الجهود الوطنية والمساهمة في التعبير عن رفض هذا القطاع، مع باقي القطاعات الشعبية، للاحتلال وممارساته، والمساهمة في الكفاح الوطني الهادف إلى مقاومة الاحتلال وتحقيق الاستقلال الوطني.

في حينه، لم يدرك الكثيرون الأهمية البعيدة المدى لمثل هذه الجهود والإنجازات، ولكن

Digitized by Birzeit University Library

بعد استكمال جهود تأطير الجماهير من قبل أمثال أبو الفجر ورفاقه وحلفائه، أصبح من الممكن خوض واحدة من أنجح وأطول المواجهات مع الاحتلال الإسرائيلي والتي أصبحت تعرف بالانتفاضة الكبرى.

والآن عندما يتساءل السياسيون والنشطاء عمّا مكّن الشعب الفلسطيني من خوض مثل هذه المواجهة بهذا الاتساع والاستمرار والتنظيم، وكذلك عندما يسال هؤلاء عما إذا كان ممكنا أن تتكرر هذه الانتفاضة الآن أو في المستقبل، فإن الجواب ببساطة أن تلك الانتفاضة كانت ممكنة بسبب العمل الدؤوب لعدد كبير من أمثال الأستاذ غسان حرب في تنظيم القطاعات الشعبية في أطر وشبكات منظمة، مرتبطة بقيادات سياسية مجربة، متواضعة، مقدامة، وتشكل أمثلة تحتذى من الشعب.

وخلافا لعدد من زملائه ورفاقه، لم تتح الفرصة لأبو الفجر أن يرى ثمار ما زرع، ولكن أليست هذه من صفات العظماء؟ زرعوا فأكلنا ونزرع فيأكلون! عاجل المرض رفيقنا أبو الفجر ولم يمهله كثيرا، وقد فاجأنا ذلك وأحزننا وأوجعنا، بقينا حوله مع عدد من طلبته وأصدقائه نتردد عليه في البيت بشكل شبه يومي ونحن غير مصدقين، كنا شبابا محدودي المعرفة بالموت ومدى جديته وما له من جبروت، هل ممكن فعلاً أن يذهب أبو الفجر بشكل نهائي؟

استغرقني البحث عن جواب لهذا السؤال الحزين عقوداً طويلة، لأدرك بناء على تجربة العمر أن بعض الذين يرحلون لا يرحلون بشكل نهائي، بل يبقون معنا بما تركوا من إرث؛ يمكن أن يكون عطاءً فكريا يسري فينا بعد غيابهم، ويمكن أن يكون ذكريات جميلة نفرح كلما استعدناها، ويمكن أن يكون أثرا تربويا يؤسس لسلوك أفراد أو مجموعات، نلمسه جيلا بعد جيل، ويمكن أن يكون إنجازا مستمرا يذكرنا بصاحبه كلما استفدنا منه، ويمكن أن يكون تضحيةً يدفعها مقدمها ثمنا لحريته لكي ينعم بنتائجها من بعده أهله وأبناء شعبه، ويمكن طبعا أن يكون كل هذا وذاك.

لم تكن دوافع أبو الفجر في كل ما تميز به محصورة في حياته الوظيفية، ولم يكن الواجب الاجتماعي أو العائلي، ولم تكن مهمة وطنية وحزبية أو مجتمعية، ولم تكن المتعة هي التي تحفزه على الأداء المستمر، بل كانت كل هذه معا، ومن هنا كان التميز، وبهذا كانت الخصوصية التي جعلت هذا النموذج مصدر إلهام نتذكره لنتزود منه ونتفيأ به.

أستاذي غسان حرب كان نموذجا استثنائيا لأنه بدأ حياته متمردا على التخلف الاجتماعي

Digitized by Birzeit University Library

والفكر الظلامي، ثائرا في وجه العدوان والظلم، وكان استثنائيا لأنه كان مخلصا لمبادئه ولمصالح شعبه لدرجة أنه دفع سنوات شبابه ثمنا لهذه المبادئ، فقد كان الأصغر سناً بين معتقلي الجفر في الخمسينات من القرن الماضي، وكان استثنائيا في وطنيته التي أدت به إلى سجون الاحتلال الإسرائيلي في أواسط السبعينات من القرن الماضي، وكان استثنائيا لأنه علم جيلا، أنا واحد منهم، علماً استثنائيا تقدميا رائدا ما زال يضيء لنا الطريق.

Digitized by Birzeit University Library

الفجر الذي لم يبدأ بعد..
غسان حرب حملَ بشائره المشرقة

د. عادل الزاغة

أستاذ الإقتصاد في جامعة بيرزيت

لقد مروا هكذا مثل الخيال. كان ذلك يوماً من أيام الرماد التي قضيتها في سجن نابلس المركزي خلال الفترة من أيار ١٩٧٤ إلى آب ١٩٧٧. أعتقد أنه كان يوما من أيام تشرين الثاني ١٩٧٤، حين جاء حراس الاحتلال الإسرائيلي المدججون بالسلاح في مهمة نقل مجموعة من المعتقلين الإداريين جيء بهم من رام الله إلى سجن نابلس المركزي لتجديد فترة اعتقالهم لستة أشهر أخرى. وكنت مع رفاق لي في نصف ساعة «الفورة» التي كان مسموحا لنا أن ننعم بها خارج غرف السجن المزدحمة والباردة إلى باحة مسيجة لا نرى منها إلا السماء، وندور في داخلها ولا نسابق الزمن، وإن كنا نعد الأيام والساعات التي تمر وكأنها لا تنتهي بل تضيف إلى برودة السجن برودة الزمن. ولقد مروا مثل الخيال أمامنا وأنا لا أعرفهم وإن كنت سمعت أسماءهم من الرفاق الإداريين الآخرين من منطقة نابلس الذين جمعتني بهم في نفس الغرفة نفس القضية والفكر والانتماء.

ولقد رأيتهم، وكان غسان بينهم طويلا ومبتسما، وانطبع اسمه وصورة وجهه البشوش في ذاكرتي التي لا تحتفظ إلا بالقليل. هل كان غسان حرب، الذي نادى عليه الرفاق يا «أبو الفجر»، يبتسم لنا، أم كان يبتسم لأن القضية التي عاش ومات في سبيلها كان يراها عصية على الكسر والقهر والهوان؟ أم أنه كان يبتسم لأنه يريد تشجيعنا؟ أم لعله كان يضحك من مهزلة الاعتقال التي يعتقد السجانون بأنها ستكسر شوكة المقاومة؟ أبو الفجر كان يبتسم ببساطة، ولم أنس تلك الابتسامة. ولم يخطر ببال ابن السابعة عشرة حينها أنه سيلتقي

Digitized by Birzeit University Library

صاحب هذه الابتسامة لسنوات عديدة بعد سنوات عديدة. قيل لي إن رجال المخابرات ضربوه على رأسه فلم يعترف. طبعا لن يعترف، إذ ليس لديه ما يخفيه. فتاريخه النضالي مشهود له، وموقفه من الاحتلال الإسرائيلي، ومن القهر الرأسمالي لم يتغير، وكفاحه كان متواصلا.

هل كانت صدفة أن سلطات الاحتلال تمنعك من السفر لخارج البلاد إلى أجل مسمى، لتجد في جامعة بيرزيت ملاذك، الذي يصبح مستقبلك وحياتك كلها؟ ولتجد فيها من عشت مع بعضهم في السجن، وكافحت معهم ليلا ونهارا في سبيل حياة ذات مغزى رغم القهر واستبداد سلطة الاحتلال، حياة تجعل القاهر مقهورا، وتجعل المقهور ليس كعابر السبيل، بل الباقي على صدورهم كالجدار، كالصبار، وشظية من نار؟ وهل كانت مصادفة أن تتخصص في الإقتصاد وإدارة الأعمال، لتجد غسان حرب أستاذك في تاريخ الفكر الإقتصادي؟ وهل كانت مصادفة أن تلتحق بدائرة الإقتصاد لتصبح زميلا له؟ وهل كانت مصادفة أن تلتقيا في الولايات المتحدة بعد أن انتهى عهد بريجنيف، وبدأ عهد رونالد ريغان؟ وهل كانت مصادفة أن تلتقيا على أنقاض الفكر الكينزي، وانطلاقة الإقتصاد الريغاني معبرا عن احتلال النيوليبرالية لسدة الحكم في الولايات المتحدة وبريطانيا؟ هل كان يعني كل ذلك مصادفة أن لا تلتقيا إلا في عالم متقلب، متغير، لا يعرف التوازن، ويقهر الحركات العمالية والنقابية، وأنتما تكافحان مع آخرين في سبيل تنظيمها، وتحضيرها لمعركة فاصلة لا يأتي موعدها، كما لو كنا في انتظار ليفتي؟

لقد قابلت «أبو الفجر» إذاً ثانية وهذه المرة في جامعة بيرزيت حيث يحاضر في الإقتصاد. لقد عرفته ناشطا بين أعضاء الهيئة التدريسية على ثلاثة أصعدة:

١- الكفاح لتمكين الجامعة من الاستمرار في أداء رسالتها، والصمود بوجه الاحتلال وسياساته، وكان نشيطا ويحضر اجتماعات النشطاء من الهيئة التدريسية والطلبة مع إدارة الجامعة بشكل أسبوعي. وكان يقف ليدلي بآرائه بتواضع لم أشهد مثله. فهذا الإنسان لم أره يسعى لمنصب، ولم أره يلهث في السعي وراء الثروة. بل رأيته بكل هدوئه يفكر ويقول ما يراه مناسبا، ويجمع حوله الآخرين، دون رغبة في التنافس على قيادة الحركة بل في تنافس على أداء المهمات الصعبة. ولقد كان يسعى في تنفيذ ما يتفق عليه بروح المسؤولية العالية، وبتفان ما وجدت مثله.

٢- الكفاح لتمكين السجناء السياسيين، أي مناضلي الحركة الوطنية الذين غيبهم الاحتلال

Digitized by Birzeit University Library

في سجونه، من مواصلة تعليمهم الجامعي. ولقد كافح غسان لإدخال المواد التعليمية، ولعقد الدروس ونشاطات تقييم العمل الدراسي للطلبة المعتقلين، واتصل بالمحامين، ولم ييأس، بل كان يواصل عمله بجرأة وصبر في مجال غير تقليدي.

٣- الكفاح لتحسين شروط حياة وعمل الأكاديميين في الهيئة التدريسية. ولقد قاد غسان جمعية إسكان أساتذة وموظفي جامعة بيرزيت، وكان من المبادرين إلى تأسيسها، وثابر في هذا العمل الذي نرى ثمرته في حي إسكان الجمعية في الطيرة في رام الله.

كان غسان دقيقا في عمله، ومخلصا ومثابرا، ويسعى للأفضل دائما. كان واضحا للجميع من الطلبة أنه لا يأتي لمحاضراته إلا وهو على أهبة الاستعداد لما سيطرح من أفكار. وكان يطرح الأسئلة ويثير نقاط الجدل التي تجعل محاضراته مثيرة وحيوية. وكان عادلاً في تقييمه للطلبة. ولا أزال أذكر ما كتبه لي على إحدى أوراق امتحان قدمته في المساق الذي درسته عنده. كتب لي «لو كنت سأجيب على أسئلة الامتحان، لأجبت مثلك بالضبط، ولكن الكثيرين سيقولون إني أعاملك معاملة تفضيلية، لذلك سأخصم لك بعض العلامات». فهل تعتقدون أن ذلك منع عنه ألسنة سوء الظن؟ هناك من قال «لقد التقيتما في السجن، وهناك علمك، وأعطاك أسئلة الامتحان»! فهل كانت مصادفة؟! لم أراجعه ورضيت بعلامتي، وأظنه كان مرتاح الضمير. وعامل طلبته بإنصاف ومهنية. ولطالما دعاني إلى منزله لتناول العشاء مع أسرته الكريمة. وعندما دخلت بيتهم، أحسست بالحب الذي يعشش فيه ويملأ حيزه بالأمل ويشعر ضيفه بأنه من أهل البيت.

كان غسان اجتماعيا، ويشارك الطلبة في نشاطاتهم الترفيهية. ولقد ذهب معنا في رحلة مغامرة إلى أم الرشراش (أي إيلات)، وسهر مع الطلبة وشاركهم أغانيهم وطعامهم، ونام في خيمة على شاطئ البحر الأحمر، واضطر معهم إلى اقتصار الرحلة على يومين وليلة لأن سلطات الاحتلال اعتقلت بعض الطلبة ومنهم السيد متري زبانة بسبب الإقامة في بلادنا دون إذنهم! ونحن الآن نقيم في بلادنا دون إذنهم، وستستمر أجيال من هذا الشعب تقيم في بلادها دون إذن المستعمرين الكولونياليين، الذين لن تغفو عيونهم قبل أن يرونا خارج هذا الوطن، فليبقوا مستيقظين لأن أعين الجبناء لا تنام.

وتشاء الصدفة أن نلتقي في الولايات المتحدة. بعد تخرجي بدرجة البكالوريوس أعطتني الجامعة فرصة للانضمام إلى هيئتها التدريسية، كمساعد أكاديمي لعامين، تُوِّجا بمنحة دراسية للحصول على درجة الماجستير. ولقد حصل ذلك؛ ففي نهاية عام ١٩٨٢ حصلت على

Digitized by Birzeit University Library

منحة للدراسة لدرجة الماجستير في جامعة فاندربلت Vanderbilt في ناشفيل عاصمة ولاية تنيسي. ووفرت الجامعة لي منحة من هيئة الأميدإيست الأمريكية. فهل تسمح لي سلطات الاحتلال بالسفر لتمكيني من الدراسة؟ لقد احتاج الأمر شهرين من المحاولات، واتصالات أجرتها إدارة الجامعة بمبادرات من د. جابي برامكي رحمه الله، وتدخلات من السيناتور آل غور عضو مجلس الشيوخ عن ولاية تنيسي. وقد حاولت قطع الحدود إلى الأردن مرتين، ومرة إلى مصر، وكل مرة كانت سلطات الاحتلال تعيدني من حيث أتيت، «وعليك مراجعة المختصين، يعني جهاز الأمن»، وكنت أذهب للمقاطعة في نابلس، فيطلبون مني الانتظار من الساعة الثامنة صباحا إلى الساعة الرابعة بعد الظهر، وأنتظر صابرا إلى أن يأتي جندي ليخبرني بالذهاب للبيت! وشهران انقضيا على هذا المنوال. ثم طلب القنصل الأمريكي مقابلته في القنصلية الأمريكية في القدس الشرقية، ليأخذ محضرا عن أسباب اعتقالي، والتهم التي صدر الحكم بموجبها علي. وبعد انقضاء الشهرين، وفي المرة الرابعة سافرت إلى عمان وتركوني أمر من بوابة السجن الكبير هذه المرة، وبتأشيرة مرور إلى الولايات المتحدة بعد منحي استثناء من قوانينها لأني سجنت صغيرا، وهو أمر لم يتكرر حديثا وما زلت ممنوعا من السفر إلى الولايات المتحدة، إذ يبدو أنك إذا كبرت في السن تكبر معك التهم التي سجنت بسببها، وتصبح خطيرا على الأمن، وإرهابيا محتملا!

انتظرت في عمان أسبوعين، لأني كنت موعودا بمنحة دراسية للاتحاد السوفياتي، وكنت أراجع المركز الثقافي السوفياتي في عمان يوميا، ولا جواب! ثم مات بريجنيف، فقلت في نفسي لم أحصل على المنحة في حياته، وبالتالي لن أحصل عليها في مماته. وأراد مدير المركز أن يخفف الصدمة عليّ حيث «أنه لا يوجد جواب من موسكو»، فشجعني أن ألعب معه الشطرنج، لعل ذلك يسرّي عن نفسي. فلعبنا وشاءت الصدفة أن أتغلب عليه. فتغلبت على نفسي وحملت متاعي إلى المطار، وسافرت إلى أمريكا في أول رحلة جوية، عندها انخلع قلبي من صدري لأول مرة أغادر فيها الوطن. وهناك في أمريكا تواصلت مع غسان، بمبادرة منه في الحقيقة. فلقد كان الأخ الراعي لتلميذه السابق. ودعاني في العطلة الشتوية لزيارتهم وقضاء العطلة معهم. وذهبت إلى بافالو Buffalo لزيارته وعائلته الكريمة، حيث كان يحضر لدرجة الدكتوراه. وقد قضيت أياما جميلة عندهم في ضيافته وضيافة رفيقة دربه أم فجر، الرفيقة عفاف. وأخذنا في رحلة بالسيارة إلى شلالات نياغرا التي كانت متجمدة آنذاك ورأيتها لأول مرة في حياتي. ثم سافرنا معه والعائلة إلى مدينة آن آربور Ann Arbor في ولاية ميتشيغان حيث زرنا الرفيقة لميس أبو نحلة أخت الرفيقة عفاف، والتي كانت تحضر لدرجة الدكتوراه هناك. وسافرنا بعدها بالسيارة مع غسان وعائلته ولميس إلى مدينة

Digitized by Birzeit University Library

سينسيناتي Cincinnati في ولاية أوهايو، حيث كنا في ضيافة الدكتور نضال حرب، وهو ابن أخ غسان، وكان يدرس الطب هناك. مكثنا في ضيافتهم بضعة أيام جميلة لا تزال ذكرياتها معي، وطعم عصير التفاح apple cider اللذيذ الذي تناولته لأول مرة في حياتي عندهم، لا أنساه.

كانت أياما جميلة، خففت من وحشة الغربة في الولايات المتحدة على نفسي. ثم بقينا على صلة، وفي الحقيقة كان غسان هو من يتصل ويسأل عني، ويبقينا على اتصال بأحوال البلاد، ولكن شدة الدراسة والامتحانات والعمل على رسالة الماجستير أخذا وقتي في الأشهر الأخيرة من عام ١٩٨٣، لأني كنت قد قررت أن أنهي الدراسة والرسالة في وقت قياسي خلال عام واحد، درست أثناءه في إجازة الصيف ثلاثة مساقات في الجامعة. ولم أكن أعرف أن غسان كان يودعني، ولم أعرف أنه سيمرض بمرض خطير بعدها. لقد استمريت في دراستي وعدت بعد التخرج مباشرة في شهر شباط من عام ١٩٨٤ لأمارس مهام عملي كعضو هيئة تدريس في دائرة الإقتصاد في جامعة بيرزيت. والتقيت رفيقنا الغالي المرحوم الصيدلي إميل طوباسي في صيدليته الشهيرة في الشارع الرئيسي في رام الله، حيث أخبرني بمرض غسان. ولقد تفاجأت. «لماذا يختبر الله رجاله الصالحين ويبتليهم؟ أليصبروا؟ وهل لصبرهم حدود في كفاحهم ضد الغزاة المستعمرين ولأجل السلام والعدل والمساواة، أفلا يكفيه هذا الصبر؟» .

توفي غسان، وكانت جنازته مهيبة. ولقد عرفت قلبه المحب، وخبرت فكره المتقد، ولامست كفاحه الهادئ والعنيد. فهل يتوقف قلب كبير كهذا؟ وهل يموت كفاح كهذا؟

وشاءت الظروف أن أكون أستاذا لابنه الأصغر فادي ولرفيقته التي تزوجها بعد أن تخرج كلاهما بدرجة البكالوريوس في الإقتصاد من جامعة بيرزيت. وقد رأيت في فادي استمرارا لمسيرة والده، وتمنيت لهما السعادة والنجاح. وكلما أتى فادي لزيارة البلاد كان يسأل عني ويطمئن علي.

ساهم غسان في تأسيس دائرة الإقتصاد وهي ناشئة، وعلّم جيلاً من طلبة جامعة بيرزيت، أيام كانت الجامعة تشق طريقها الجبلي الصاعد. وساهم في تعمير جمعية إسكانها، كما ساهم في تمكين السجناء من حق التعليم، وكانت رحلته جبلية صعبة، وفي كل مسالكها ودروبها الوعرة تعود ابتسامته الظافرة التي ظللتُ أحملها في ذاكرتي إلهاما بأن الفجر أحلى، وأنه آت يا أبا الفجر. فنم قرير العين يا رفيقي، ومعلمي، ولروحك السلام ولذكراك الغالية الخلود.

Digitized by Birzeit University Library

غسان حرب.. المتواضع المحبّ للناس

نهى البرغوثي

اختار الرفيق غسان كما عرفته منذ نعومة أظفاره ومن على مقاعد الدراسة طريق النضال من أجل الاستقلال الوطني والديمقراطية والعدالة الاجتماعية، وقد دفع ثمن ذلك ثماني سنوات من عمره في معتقل الجفر الصحراوي في الأردن، تبعتها أربع سنوات اعتقال إداري في سجون الاحتلال الصهيوني، كان ذلك عام ١٩٧٤ عندما شنت سلطات الاحتلال حملة اعتقالات ضد أبرز أعضاء الجبهة الوطنية الفلسطينية التي اعتبروا أن الحزب الشيوعي كان عمودها الفقري، وعليه فقد طالت هذه الحملة عددا من قادة الحزب وأعضائه من مختلف مناطق الأراضي المحتلة، بأوامر الاعتقال الإداري؛ أي دون توجيه لائحة اتهام أو محاكمة، إذ كثيراً ما كانت سلطات الاحتلال تستخدم هذا الإجراء كعقوبة جماعية للمعتقلين وذويهم الذين استبسلوا في الدفاع عن أبنائهم لنيل حريتهم وشرعية نضالهم من أجل التحرر والاستقلال، وذلك دعما للموقف المشرف للمحامية الشيوعية فيليتسيا لانغر التي كرست كل الأدلة القانونية والجماهيرية للدفاع عنهم، وتم تجنيد حملة تضامن واسعة وقوية من أهالي المعتقلين وأصدقائهم والقوى التقدمية والديمقراطية محليا وعالميا؛ مما كان له أكبر الأثر في إطلاق سراحهم لاحقا.

كثيرا ما يتبادر إلى الذهن أن المناضلين المميزين والشخصيات العامة يعيشون حياة مختلفة بعيدين عمن حولهم، ويصعب الاقتراب من حياتهم الخاصة والتعامل معهم، لكن شخصية الرفيق غسان، أبو الفجر غيرت هذا الانطباع من خلال تواضعه مع الصغير والكبير.. الأكاديمي والطالب...السياسي وغير السياسي، وأكثر من ذلك تقديره ودعمه اللامحدود للمرأة في كل

Digitized by Birzeit University Library

المواقع، في البيت وفي العمل، فكان الاحترام والوقوف بجانبها ومساعدتها لتحقيق المزيد من النجاح والأهداف ،وقد ثبت ذلك عمليا عندما وقف بجانب رفيقة دربه زوجته الرفيقة عفاف أبونحلة حرب لإتمام دراستها الجامعية؛ إذ تحمّل غيابها، وتحمل مسؤولية الاعتناء بطفلهما الأول (فجر) لتتفرغ عفاف لدراستها وتحقيق أهدافها مكرسا مفهوم الشراكة والمساواة وتوزيع الأدوار في الأسرة والعمل والمجتمع، إذ كان دوره الفعلي منسجمًا مع دعم ومساعدة من الأم الباسله فيروز أبو نحلة (أم خليل) والدة عفاف وأيضاً شقيقتها الرائعة د. لميس أبو نحلة، حيث كانتا مع غسان مثالاً يحتذى به في الرعاية والاهتمام بالطفولة، بكل القيم الإنسانية والوطنية الحقة.

لقد عرفت غسان عن قرب؛ وكان أول من يهنئني بمناسبة يوم المرأة، وكان يدعم نضال المرأة مفتخرا بإنجازاتها، كما كان يفعل ذلك في كل المناسبات الدينية والوطنية دون تمييز أو تحيز، كان منسجما مع كل من يجلس معهم بغض النظر عن العمر والجنس والوضع الاجتماعي، ليشعر جميع أفراد العائلة أنه واحد منهم.

ذات يوم؛ بعد عودتي من العمل أخبرني والدي أن «غسان حرب جاء يسأل عنك، لكنني لم أعرف ما يريد، أرجو أن تتصلي به وتستفسري منه، فلربما كان يحتاج إلى مساعدة». بكل بساطة أتذكر هذا الموقف من والدي الذي تجاوز عمره السبعين عاماً في ذلك الوقت، لقناعته في دماثة خلق غسان وثقته في نبل العلاقات الاجتماعية، بعيداً عن الجنس والدين، بل الاحترام والثقة والالتزام بالقيم الإنسانية المتجسدة في كليهما.

سمعت عن نضاله ونشاطه واعتقاله في السجون الأردنية، ولكنني لم أقابله لأنه غادر رام الله مباشرة - بعد الإفراج عنه من سجن الجفر - إلى (الاتحاد السوفييتي) لإكمال تحصيله الجامعي، لكنني في العام ١٩٦٩ كنت قد حصلت على تصريح لمّ شمل العائلات للالتحاق بعائلتي في الوطن، حيث كنت أعمل في مدينة الرياض، وأثناء عودتي إلى عمان وإقامتي في بيت شقيقتي بهيجة وزوجها بشير البرغوثي (أبو العبد) عرّفني أبو العبد على ضيفه غسان، الذي بادرني بالسؤال: هل تعرفين يعقوب أبو نحلة؟ إنه يعمل في شركة العسعس للسياحة والسفر، وكلفني بأن أخبره بأن إجازة غسان قد قاربت على الانتهاء، عندها تساءلت ماذا يعني بذلك؟ فأخبرني بأنه ينتظر حضور خطيبته عفاف وعائلتها من رام الله لإتمام مراسم زواجهما في عمان.

Digitized by Birzeit University Library

فوجئت لهذا الوضع ولَم تطأ قدماي أرض الوطن بعد، فذلك يعني أن أدق خصوصياتنا رهن بسياسة الاحتلال، فالأقارب والأصدقاء لا يستطيعون مشاركتهم أفراحهم لعدم منحهم تصاريح للمغادرة إلى عمان للمشاركة في مراسم الزفاف، لذلك تكون الأفراح محدودة، وتقتصر عَلى مشاركة الأقارب من الدرجة الأولى. ولم تترك سلطات الاحتلال فرصة للفرح إلا تفننت في إفسادها. أخيرًا تمّ زفاف غسان وعفاف في عمّان.

رزقا بطفلهما الأول «فجر» في موسكو، وعندما رزقا بطفلهما الثاني «فادي» كان غسان معتقلا إداريًّا في السجن الإسرائيلي، وقد أصرت عفاف أن يختار غسان اسمًا لطفله، وصادف يوم الزيارة في السجن، إذ كان يتاح لعشرة سجناء أن يكونوا في نفس الوقت، فكان الأهل يحرصون أن تجمع الزيارة لكل من يرغب أن تزورهم في نفس الوقت، وعندما دخلنا غرفة الزيارة، لم تكن عفاف معنا، إذ ما زالت في مستشفى الولادة، كانت معنا لميس شقيقتها، ومعها قائمة بالأسماء المقترحة، وطلبت من غسان أن يسمي الطفل، فاقترح الرفيق بشير البرغوثي (أبو العبد) الذي كان معتقلاً في السجن نفسه، اسم فادي؛ فوافق الجميع، وقد عمت الفرحة من في السجن وخارجه، رغم قهر المحتلين بتشتيت العائلة، وحرمان الأب من احتضان طفله فادي الذي أصبح وشقيقه فجر خير شابين ومثّلا امتدادًا أصيلاً لذكرى والدهما الخالدة والمشرفة.

لهما ولذويهما ولرفاق أبيهما ومحبيه طول البقاء، والمجد والخلود لروح غسان، وإننا باقون على العهد.

Digitized by Birzeit University Library

المناضل غسان حرب
ما تعلّمته منه كإنسان ثوري ومثقّف عضوي

عصام العاروري

يرتبط اسم المناضل الراحل غسان حرب إبان حقبة الاعتقال أواسط سبعينات القرن الماضي بالحالة الثقافية التي ميزت الحركة الاعتقالية في تلك الحقبة. فقد ضمت حملة الاعتقالات التي استهدفت الجبهة الوطنية الفلسطينية في نيسان ١٩٧٤ عددا كبيرا من قادة وكوادر الحزب الشيوعي. كان قسم من هؤلاء ممن قضوا سنوات طويلة في سجن الجفر الصحراوي واكتسبوا خبرة طويلة في إدارة الحياة الداخلية في السجن وتحويله إلى مدرسة لبناء الكادر وتعزيز قدرة المناضلين على الصمود. وامتاز قادة الشيوعيين ومنهم الراحل غسان حرب في تلك الفترة بثقافتهم ومستواهم التعليمي العالي.

كانت مكتبات السجون فقيرة بالأدب الثوري والكتب الجادة، وكان الحصول على نسخة من كتاب أمرًا في غاية الصعوبة، وكان المعتقلون ينسخون أي كتاب يقع بين أيديهم بخط اليد لتوزيعه أثناء حركات تنقلهم بين السجون، سواء لحضور المحاكم أو النقل التأديبي.

كان من مزايا الراحل غسان حرب تعليمه العالي واتقانه للغات وخطه الجميل. ويذكر كاتب هذه السطور أن أولى الكتب الماركسية التي قرأها كانت منسوخة بخط اليد الجميل للراحل غسان حرب، الذي ليس فقط كان ينسخ تلك الكتب، بل كان وغيره من المناضلين ينظمون الحلقات النقاشية حولها.

فضلا عن تلك الثقافة فقد كانت في السجن دروس لتعلم اللغات وأخرى لمحو الأمية، وتعليم منظم لطلبة المدارس الذين كنت واحدا منهم، وكنا نتلقى دروسا استعدادًا للامتحانات وخاصة التوجيهي، بل إن بعضنا درسوا بعض المواد في السنوات التحضيرية للجامعات،

Digitized by Birzeit University Library

وخاصة جامعة بيرزيت، مع أنه لم يكن هناك نظام التحاق للأسرى بالجامعات أو تقديم امتحانات.

وربما الأهم من التعليم بمختلف أشكاله هو مساهمة هؤلاء القادة في التربية على إيثار الآخرين ونكران الذات والصمود في مواجهة ظروف السجن، من تعذيب وعزل وضغوط حياتية تتعلق بتلبية الاحتياجات الأساسية، والتعامل مع الاختلاف والتنوع الفكري والسياسي.

كان المرحوم غسان حرب مطبوعًا على الأدب الجم، محاورًا لبقًا، هادئ الطباع، واسع الأفق والثراء المعرفي، وكانت تلك الصفات تساهم في ترطيب العلاقات الداخلية بين المكونات السياسية المختلفة، وتجنب الأسرى الصراعات الحادة وممارسة العنف الداخلي، خصوصا وأن التوتر الداخلي أقسى بمراحل من المواجهات مع إدارات السجون مهما وصلت درجة وحشيتها.

صفة أخرى عرفتها عن الراحل أبي فجر، وكانت بعد تحررنا من الأسر والتحاقي بجامعة بيرزيت طالبا وكان أستاذا للاقتصاد فيها، ورغم أنني لم ألتحق بأي من المواد التي يدرّسها فقد عرف بجديته في التدريس، لا يضيع وقتا ويحضر جيدا، يحاور طلابه ويتعلمون بمنهجية تشاركية لا تقوم على التلقين، وكان بعض الرفاق يسجلون في مساقاته طمعا في أن «يراعيهم» ليكتشفوا أنه كان يقسو في تشدده وعلاماته على رفاقه ومن يعرفهم أكثر من غيرهم، مقدمًا نموذجًا للشيوعي الذي لا يميز، والذي يفترض في غيره أن يكون مبنيًّا على العطاء لا على الأخذ، وأن من يخدم شعبه ينبغي أن يتقن عمله ويعمل بصدق وإخلاص، وأن الانتماء لحزب يجب ألا يمنح المنتمي للحزب امتيازات بقدر ما يتطلب منه التزاما حياتيا ومعرفيا وخلقيا تجعله رياديا بممارسته وسلوكه وليس بأقواله أو تعاليه. هذا ما علمنا إياه الراحل غسان حرب ورفاقه وجيله الذي يصعب أن يتكرر، فقد تفولذ هذا الجيل في ظروف خاصة، وكان نتاج مرحلة نهوض ثوري وإنساني عالمي وعربي ومحلي، استوعبوه فكرا وسلوكا معرفيا وممارسة إنسانية يصعب تكرارها.

كم نحن بحاجة لتمثل تلك القيم والسلوكيات في ظروف تراجع المنظومة القيمية، وكم نحن بحاجة لنماذج قيادية من طراز غسان حرب وجيله ممن رحلوا، بشير البرغوثي وسليمان النجاب وتيسير عاروري وخلدون عبد الحق وراجح السلفيتي وخضر العالم وراغب البرغوثي وعادل البرغوثي وعبد الله أبو العطا، والشهداء منهم: خضر عيسى وأحمد دحدول وبلال عوض الله. والعمر الطويل لمن ما زال على قيد الحياة من تلك الكوكبة.

Digitized by Birzeit University Library

غسان حرب.. مثال للوطنية

كريم الدباح/ فنان تشكيلي

يعتبر غسان حرب واحداً من ألمع المثقفين الفلسطينيين الذين ساهموا في تطوير الحركة الوطنية الفلسطينية. لقد شارك غسان حرب في المطالبة بالديمقراطية وإسقاط حلف بغداد الأمر الذي تحقق عام ١٩٥٦ ومهد الطريق لتعريب الجيش الأردني، وتشكيل حكومة وطنية في الأردن برئاسة سليمان النابلسي، ولكن أحزاب الطبقة الوسطى في العالم العربي كذلك استهانت بالمخاطر التي يشنها الاستعمار الأمريكي والرجعية العربية الأمر الذي أدى إلى إسقاط حكومة النابلسي. وعلى الأثر تم اعتقال المئات من المناضلين الثوريين الأردنيين والفلسطينيين في السجون والمعتقلات الأردنية، وكان من ضمنهم غسان حرب ورفاقه الذين نبهوا سلفاً إلى الأخطار التي هيمنت على الأردن وغيره من البلدان العربية، وتسببت في الخلافات والانشقاقات في العراق وسوريا وجمهورية مصر العربية.

وفي عام ١٩٦٥ قرر الملك حسين؛ ملك الأردن الإفراج عن المعتقلين السياسيين ... الأمر الذي أدى مع ملابسات كثيرة في العالم العربي إلى تراجع الحركة الوطنية فيه.

بالنسبة للحركة الوطنية الأردنية والفلسطينية فقد انتعشت إثر الإعلان عن تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية التي شكلت فرصة هامة على طريق النضال لإحياء الشخصية الوطنية الفلسطينية المتميزة في الصراع الذي أعطى الأمل أمام الفلسطينيين والأمة العربية.

وكان من نصيب المناضل غسان حرب والكثير من رفاقه وزملائه بالسفر والدراسة في الاتحاد السوفيتي حيث نجح في الحصول على درجة الماجستير في علم الإقتصاد من جامعة الصداقة بين الشعوب (باتريس لومومبا).

بعد أن أصبح غسان حرب مدرساً محاضراً في جامعة بيرزيت ورئيس دائرة الإقتصاد، وفيما

Digitized by Birzeit University Library

بعد قائم بأعمال كلية الإقتصاد؛ حيث أوفدته جامعة بيرزيت في بعثة إلى الولايات المتحدة لنيل شهادة الدكتوراة. وقد سافر غسان مع أسرته إلى بفلو في ولاية نيويورك، ولكن الأطباء هناك اكتشفوا معاناته من مرض عضال لا أمل في علاجه، لذا قرر غسان العودة إلى رام الله ليموت في بلده بين أهله ورفاقه.

كان غسان حرب مثالاً للوطنية والإخلاص للقضية الفلسطينية وفيما كان يعمل في جامعة بيرزيت عمل في جريدة «الطليعة» بدون مقابل، وكان محرراً للصفحة الإقتصادية، وكان له عمود أسبوعي بعنوان «تحت المجهر»

كل من عرف غسان قد لمس اهتمامه بالتراث والأدب القديم والمفكرين من أمثال ابن خلدون وابن سيناء وغيرهما، إضافة إلى اهتمامه بالأدباء مثل محمود أمين العالم وإميل حبيبي... لقد تميز غسان بالبساطة والتواضع في تعامله مع زملائه أثناء عمله في التدريس في جامعة بيرزيت وفي جريدة «الطليعة» حيث كنا نعمل سوياً.

وأذكر مرة أن حضر الشاعر محمود درويش إلى موسكو، وقد صادف أننا كنا نحتفل بعيد ميلاد غسان، وكانت حلسة جميلة تجاذبنا فيها الأحاديث، وفي هذه الجلسة وجه غسان سؤالا إلى محمود: «ما هي الأوقات التي تكتب فيها الشعر؟» فأجابه محمود: «الشاعر يكتب في كل الأوقات حتى ولو كان ذلك أثناء استخدامه الحمام.»

ضحك الجميع واستمرّينا بالاحتفال.

Digitized by Birzeit University Library

غسان حرب

زوج أختي وصديقي الإنسان

د. لميس أبو نحلة

لم تكن بداية تعرّفي بغسان شخصية؛ غير أنه ومنذ طفولتي وأنا أعرف غسان من خلال ما كان والداي يحدثاننا عن نضاله وصموده وهو لم يشتد عوده بعد، وبذلك رسمتُ له صورة في مخيلتي إلى أن تعرفت عليه عندما رغب في أن نكون عائلة، وجاء لخطبة أختي عفاف.

ولدتُ لوالدين يتدفق النضال والإنتماء الوطني في عروقهما، وينتميان إلى الفكر والمبادئ الشيوعية، ويقدمان كل ما في وسعهما لخدمة مسيرة النضال بالرغم من أنهما لم يكونا منتمين رسمياً للحزب. وقد تربيتُ في كنف العائلة التي كوّناها مما أتاح لي الفرص ومنذ نعومة أظفاري أن أسمع وأتعلم الكثير عن نضال الوطنيين، وعن كفاح وتضحيات الرفاق والرفيقات آنذاك. كان والدي يتصدر الحديث وبفخر يكرر قصصاً وحوادث تشيد بأخلاقهم وكفاحهم وصمودهم. وعندما يتغيب والدي وتسنح الفرصة تقوم والدتي بسرد هذه الحكايات. من بين هذه الروايات كانت روايتان علقتا بذهني؛ هما روايتا الرفيقين فؤاد نصار وغسان حرب.

تحكي رواية الرفيق فؤاد نصار كما رُويت لنا: «خبأنا فؤاد نصار في مخزن البيت الذي كنا نسكن فيه لأن السلطات الأردنية تلاحقه لاعتقاله. عاش الرفيق في هذا المخزن مدة تزيد عن شهر في ظروف لا تصلح لمعيشة إنسان؛ حيث كانت شديدة البرودة والرطوبة دون تهوية، وكان المكان بالكاد يمكن استخدامه للخروف الذي كنّا نربيه ونسمنه ليذبح في

Digitized by Birzeit University Library

العيد.» (هذا البيت يقع في رام الله التحتا بالقرب من البنك العربي، الذي اشترته البلدية من أولاد عمتي، وحولته إلى متحف وأطلقت عليه اسم «دار الصاع» على اسم عائلة زوج عمتي، المالك الأصلي للبيت).

بينما كانت قصة الرفيق فؤاد نصّار تُروى للإشادة بتواضعه وتضحيته، وبنضاله كنموذج لنضال الرفاق والوطنيين آنذاك. وكانت رواية غسان حرب، تُروى لنفس السبب، ولكن أيضاً لنعرف أهمية التعليم ونتعلّم الإصرار والتحدي. سمعنا من الوالدين أن السلطات الأردنية اعتقلت غسان حرب وهو لم يتجاوز سن السابعة عشرة، أي كان طفلاً بالأعراف الدولية وغير الدولية، وأنه عندما اعتُقل لم يكن قد تقدم لامتحانات المترك. فكانت الشرطة ترافقه من سجن رام الله (المقاطعة حالياً) إلى مدرسة بنات رام الله الثانوية وهو «مكلبش» اليدين ليقوم بتقديم الامتحان ومن ثم يعود إلى السجن برفقة الشرطة ويداه مكبلتان بالقيد، ومع ذلك كانت نتائجه ممتازة. وكان والدايَ أحياناً ينهيان القصة ويقولان لنا: «إللي بدّه يدرس ما في شي بعيقه. الواحد ممكن يدرس ويناضل في نفس الوقت.»

حكاية غسان جعلتني أرسم له صورة في مخيلتي على أنه مناضل مخلص لحزبه ووطنه، حيث قضى ٨ سنوات في سجن الجفر ورغم صغر سنّه لم يرضخ لطلب المخابرات باستنكار حزبه. لقد تبين لي هدوء غسان ويقظته عام ١٩٧٣ عندما كان يتوقع أن سلطات الاحتلال الإسرائيلي تنوي اعتقاله، فأخذ الحيطة وكان يقضي الليل في بيتنا. وفي إحدى الليالي اقتحم جنود الاحتلال بيتنا، وما أن دخلوا وبدأوا بالاستجواب توجهت أنظار كل من في البيت إلى غسان، وكانت والدتي تغمز له حتى يقوم ويستعد للاعتقال. لكن غسان ظل جالساً على طرف السرير بهدوء، ما جعله يعطي الانطباع بأنه غير مكترث بما يحصل، مع أنه كان متأكداً بأنه هو المقصود. في النهاية تفاجأ الجميع بأن المستهدف من الاعتقال كان أخي إلياس.

هذا كل ما كنت أعرفه عن غسان إلى أن جاء لزيارة عائلتنا والتعرّف على عفاف بهدف خطبتها.

عندما تقدم غسان لخطبة عفاف كانت هي مترددة، ليس لأن غسان لم يكن بالشخص المناسب، وإنما لأنها كانت مستاءة من الأعراف الاجتماعية التي تتم فيها الخطبة والزواج،

Digitized by Birzeit University Library

والتي قد تقود إلى إشكالات عائلية تلقي بأعبائها النفسية على الفتيات. قبل بضعة أشهر من زيارة غسان للعائلة كان قد تقدم لخطبتها شاب من أمريكا، وقد تم الاستفسار عنه وتبين أنه شخص مناسب، وككل الفتيات في عقد الستينيات كان رأي الفتاة من رأي الوالد أو الوالدين. وبعد أن تم الاتفاق على الخطبة، جاءت إحدى قريباتنا وصرّحت بأنها تريد خطبة عفاف لابنها. وهنا وقعت الواقعة: الوالد أعطى كلمة لأهل العريس من أمريكا، والوالدة تريد أن تبقى ابنتها في البلد إلى جانبها، والأهم لا تريد أن ترفض لقريبتنا طلبها وتُحدث مشاكل. في النهاية تم الاعتذار للشاب من أمريكا. وهنا أصبح لعفاف رأيها الخاص دون التأثر برأي الآخرين. رفضت عفاف رفضاً قاطعاً الارتباط بابن القريبة؛ حيث رأت في سلوكه الاستعلاء والذكورة وساندها أبي بذلك. وعندما رأيتها مترددة حول فكرة الزواج قلت لها: «ولك يا هبلة أجاك عريس وبعثة. شو بدك أحسن؟ » وأضفت للمزاح: «شوفي ما أحلى بنطلونه الشارلستون! » وضحكنا! كان هذا الموديل من البنطلونات قد ولّى إلى عهد سابق.

لكن في واقع الحال كانت عفاف مقتنعة تماماً أن الشخص المناضل والمخلص لحزبه ووطنه كما كان حال غسان، لا بد أن يكون شهماً ومخلصاً لزوجته وعائلته. وبالواقع هكذا كان غسان مخلصاً ومحباً وداعماً لعفاف كزوجة ولولديه الصغيرين، فجر وفادي.

وكلما كانت تزداد معرفتي بغسان بعد زواجه من عفاف كنت أرى أنه يتحلى أكثر وأكثر بالإنسانية والأخلاق النزيهة. كان إنساناً قليلاً ما أجد شبيهاً له. رغم أنه ليس بدوري أن أكتب عن علاقاته العائلية، لكن شدة إعجابي بأساليب تعامله مع أطفاله ومع زوجته والكم من التقدير والحب الذي أحاطهم به، يشجعني أن أكتب كلمتين في هذا المجال. العديد من المرات سمعت وشاهدت كيف يطلب غسان من عفاف أن تُحضّر له فنجاناً من الشاي. كان يقول «يا عفاف شو ها الريحة الزاكية؟ عملتي لنا شاي بالميرمية؟ يسلموا ايديك يا حبيبتي. » كان هادئاً ودمثاً في تعامله وطيلة معرفتي به لم أسمعه يرفع صوته ويصرخ بعفاف أو الأولاد أو يكلمهم بفظاظة. كان يعامل ولديه بلطف ومزاح. عندما كان يحاول إيقاظهم من النوم يفعل ذلك بهدوء وبأسلوب غنائي.

بعد عودته من الاتحاد السوفيتي وحين كان يأتي لزيارتنا وليرى فجر الذي كان يقطن معنا لوجود عفاف في الاتحاد السوفيتي تكمل دراستها، كان كأي أب يحضر له كل الحلويات

Digitized by Birzeit University Library

التي يحبها، ولم يكن يرفض له أي طلب حتى ولو كان غريباً. فمثلاً، كان فجر يطلب منه أن يجلس معه تحت الشمسية داخل البيت، وكان يفعل ذلك دون تردد وحتى لو لمدة ليست بالقليلة.

وفي إحدى المرات ونحن في أمريكا وقع فجر وجرحت يده جرحاً كبيراً مما اضطره للمعالجة في المستشفى. وبالطبع أخذ الأقارب الاتصال للإطمئنان عليه، وآنذاك شعر فادي الطفل الصغير بالإهمال، وأراد هو أيضاً أن يحظى بالاهتمام. لفّ يده بلفافة مدعيّاً أنها كُسرت. وحتى لا يخيب أمله، اتصل بي غسان وطلب مني أن أخابر فادي للاطمئنان عليه. هكذا كان غسان ينتبه لكل صغيرة وكبيرة.

هذا الأسلوب الدمث واللطيف والواعي هو أسلوب تعامل غسان مع الجميع، أفراد عائلته وزملائه وزميلاته في العمل. في أعوام السبعينيات من القرن العشرين كان غسان يعمل أستاذاً في جامعة بيرزيت، وكانت الهيئة التدريسية في الجامعة تعتمد على سكرتيرات لمساعدتها في طباعة أسئلة الامتحانات وأوراق العمل على الآلة الكاتبة. وعندما كان غسان يذهب إلى مكتب أميلي مخلوف «الله يرحمها »، إحدى سكرتيرات الجامعة العريقات، كان يبدأ بعبارات التصّبيح والتحية بكل رهافة وذوق قائلاً «شو هالشعرات يا ست أميلي » أو «ياسلام على هالطقم الحلو! كلك ذوق. » كانت كلماته لها صادقة وكانت هي تفرح بهذا الإطراء وتنجز له المهمة براحة وبسرعة.

وعندما كنا نجتمع مع أقاربنا في الناصرة كان حضوره يضفي جوّا من المرح والدعابة التي يحبها الجميع. كان يقول لابنة عمي، الصغيرة آنذاك، التي كانت تلثغ بحرف الراء: «بتعرفي يا شادية تقولي «ضربت الشرقرقة بحجر مرقرقة وراحت تقول وررر » وكانت شادية تستجيب وتقول العبارة أكثر من مرة وهي تضحك من صميم قلبها والجميع يضحكون أيضاً.

كما كان غسان أحياناً يستخدم أسلوب المزاح ليخفف من جوّ التوتر أو الألم. في إحدى المرات كنت في زيارة لهم في بفلو وكان ذلك بعد وفاة أخي إلياس عام ١٩٨٢ وكنت في فترة حداد على وفاته. كنت ألبس فستانا أسمر مخملياً بأكمام طويلة، وكان على طول جانبي كل منها الفتحات والأزرار _ أي لم يكن الفستان يُمثل لباس الحداد المتعارف عليه في ثقافتنا،

Digitized by Birzeit University Library

ولكن هذا ما كان متوفراً في أسواق أمريكا. عندما رآني غسان علّق «شوف لميس حادة على الموضة». عندما سمعت ذلك امتعضت جداً. لم أردّ لاحترامي ومحبتي له، ولكن الأهم أنني كنت أعرف حق المعرفة أن غسان لم يقصد إهانتي بتاتاً، ولكنه كان يمازحني لتخفيف حزني.

كان هذا الأسلوب اللطيف الظريف الصادق هو أسلوب غسان في التعامل مع أفراد عائلته وزملائه وزميلاته في الجامعة. بحكمته وهدوئه الذي أكسبه احترام كل من كان حوله، كان يعمل كل ما في وسعه، وينجح في فض الخلافات العائلية ومعالجة الاختلافات السياسية. لم يكن يتحمل أن يكون أحدٌ مظلوماً أو أن يكون في علاقة قطيعة مع الآخرين. لقد كان لحكمته وبعد نظره أكبر الأثر على حياتي شخصياً وعلى حياة أختي، زوجته.

كان لغسان الأثر الأكبر في أن عفاف أنهت الدراسات العليا في مجال علم المكتبات والمعلومات، وحصلت على شهادة ماجستير ثانية حتى تستطيع الحصول على وظيفة ذات قيمة مهنية. عندما تخرجتْ من موسكو بشهادة ماجستير في اللغة والأدب الروسي (Philology) وعادت إلى البلاد لم تحصل على وظيفة أكثر من مدرّسة اجتماعيات في مدرسة ثانوية. وبالرغم من أنها تقدمت بطلبات للعمل في الجامعات الموجودة في حينه، لكن طلباتها قوبلت بالرفض.

كانت الجامعات في بداية أعوام السبعينيات لا توظّف خريجي وخريجات الاتحاد السوفيتي لأن الاعتقاد السائد كان أن الشرط الأساسي للحصول على منحة للدراسة هناك أو في دول أوروبا الشرقية هو الانتماء للحزب الشيوعي أو لفصيل يساري، وكان الظن أن المستوى الأكاديمي المدرسي لم يؤخذ بالاعتبار لدرجة أن الجامعات في هذه الدول كانت تمنح القبول لمن لم ينجح في امتحان الشهادة الثانوية العامة. وكان غسان وتيسير العاروري وزكي عبد المجيد هم أول من تم تعيينهم كخريجي الدول الاشتراكية في جامعة بيرزيت، وقد أثبتوا عكس ما كان يقال حيث تبين أن الكلام المنتشر حول هذا الأمر هو مجرد إشاعات مغرضة.

لم يواجه غسان مشكلة في تعيينه أستاذاً في جامعة بيرزيت. عندما تقدم للعمل في الجامعة، تم تعيينه بتوصية من د. جورج جقمان، رئيس دائرة الفلسفة آنذاك. كان الدكتور جورج إنساناً منفتحاً لا يمارس الإقصاء أو التمييز، وكان همّه جمع وتطوير الكوادر التدريسية التي ستنهض بالجامعة. في بادئ الأمر حصل غسان على عقد جزئي في دائرة الفلسفة والدراسات

Digitized by Birzeit University Library

الثقافية، حيث هذا كان الشاغر المتاح حينها. وبما أنه قد أثبت جدارته وإمكانياته ومعرفته الأكاديمية ومهاراته التدريسية تدرج في الوظيفة إلى أستاذ بنصاب كامل في كلية الإقتصاد؛ وهو المكان الذي يناسب تخصصه، ومنها تدرّج حتى أصبح قائما بأعمال عميد الكلية. ولتميزه على عدة مستويات أكاديمية وإدارية ونشاطات أكاديمية ثقافية ونقابية منحته الجامعة فرصة إكمال الدراسات العليا للحصول على الدكتوراة وابتعثته إلى جامعة بفلو في أمريكا.

منذ وصوله والعائلة إلى أمريكا في صيف عام ١٩٨١ بدأ يخطط لعفاف للحصول على شهادة الماجستير في علم المكتبات، وكان يحلم بأن تحصل على وظيفة متخصصة في مكتبة جامعة بيرزيت. أثناء مرضه؛ وعندما ما كان في أوج ألمه،كان يفكر بزوجته ومستقبلها الأكاديمي حتى أنه أصرّ عليها بعد مرور يومين فقط على خروجه من عملية جراحية كبيرة وخطيرة أن تذهب إلى الجامعة وتحضر المساقات الجامعية، وتركز على الدراسة حتى تحقيق هدفها بالسير في طريق الدراسات العليا وتحقيق هدفه أيضا.

ورغم كل الصعوبات التي مرّت بها العائلة بسبب المرض العضال الذي أصاب غسان، لم يفقد هو الأمل وكان يتحدى الصعاب، ولكن عندما أصبح شفاؤه مستحيلاً اهتم بأن تنهي زوجته دراستها. وبالفعل أنهت عفاف دراستها وحصلت على الشهادة بتفوق.

عاش غسان ليرى عفاف قد حصلت على درجة الماجستير، لكنه للأسف لم يرَ حلمه قد تحقق بالكامل. بعد سنوات من وفاته، تم توظيف عفاف في مكتبة جامعة بيرزيت، وأصبحت بعد فترة قصيرة مديرة المكتبة.

بالنسبة لي، كان غسان زوج الأخت الحنون والمعطاء، لا يتردد في تقديم العون والدعم لي في الأوقات التي كنت أحتاج فيها لأن يقف إلى جانبي. عندما كنت أدرس في جامعة ميشيغان في آن آربر في أمريكا، أجريت لي عملية جراحية بسيطة، وصادف ذلك يوما واحداً قبل عطلة الشتاء، وقد أصرّ غسان أن يأتي هو والعائلة من بافلو لقضاء العطلة معي والاهتمام بصحتي، مع أنه كان بالإمكان أن أسافر أنا للإقامة عندهم بسهولة وبأقل تكلفة كوني فرداً واحداً وهم أربعة.

وعندما أكون في زيارتهم سواء قبل مرضه أو بعده؛ كان يهتم بأن يجعلني أستمتع بزيارتي

Digitized by Birzeit University Library

لهم بالخروج في رحلات لمشاهدة الأماكن، كشلالات نياغرا، وقضاء الوقت على شاطئ البحر وغير ذلك. وفي مناسبة هامة جداً، كان غسان حريصا أن يكون هو وعفاف بجانبي؛ وذلك عندما توفي أخي إلياس عام ١٩٨٢، فقد جاء بصحبة أختي من بافلو إلى آن آربر حتى يخبراني بالمصاب الأليم، وليكونا معي ويساعداني في ترتيب أمور سفري إلى البلاد. كان يقدرني ويحترمني جداً حتى أنه أصرّ قبل عودته الأخيرة للبلاد بأن لا أحد يمكنه أن يحصل على سيارته غيري، وقد قدتها وعدت فيها إلى مكان دراستي بعد أن غادر هو والعائلة إلى الوطن ليعيش أيامه الأخيرة.

في واقع الأمر، لم يكن غسان فقط زوج الأخت الذي أعتز به وأحبه وأحترمه وأقدره، ولكنه كان مصدراً رئيسياً تعلمت منه وكان صديقي الذي يقدرني ولا يتوانى عن تقديم الدعم والتقدير لي. أمر أساسي تعلمته من غسان أفادني بعملي المهني كأستاذة في الجامعة كان من خلال تعامله مع طلبته وتقديم النصائح والإرشاد لهم. كان يُصّر على أن لا يتغيب الطلبة عن المحاضرات وأن يبذلوا جهوداً كبيرة ليتميزوا أكاديمياً؛ خاصة القادة والمنخرطون منهم في نضال الحركة الطلابية. كان يقول «لن تؤثروا في أحد لو كنتم متميزين نضالياً إلا إذا تميزتم أكاديميا أيضا.» أصبحت هذه العبارة مبدأي في التعامل مع الطلبة عندما يقدمون لي الحجج للتغيب عن المحاضرات، أو لعدم تمكنهم من تقديم امتحان ما بسبب انشغالهم بالنضال.

كان غسان يفكر في مستقبل كل من حوله وخصوصاً النساء. بعد أن قام بتأسيس نقابة العاملين والعاملات، شرع في تأسيس إسكان لهم، وأخذ يعمل على جمع الاشتراكات لمشروع إسكان جامعة بيرزيت. حينها كنت أعمل في الجامعة ولكن لم يكن لي رغبة في الاشتراك في الإسكان لأنني لم أرَ أهمية لذلك. بذل غسان جهداً وأقنعني بأهمية اشتراكي وأنه سيكون ضماناً وأمناً لمستقبلي.

لقد كان لبعد نظر غسان واهتمامه بمن حوله الأثر في تغيير مسار حياتي. وذلك عندما توظفت عام ١٩٧٨ في جامعة بيرزيت كمساعدة تدريس لمدة عام، حيث كان توظيفي مقروناً بأن أسافر في نهاية العام الدراسي في بعثة دراسية للولايات المتحدة، للحصول على درجة الماجستير كجزء من مخطط الجامعة لتطوير كادر تدريسي. وقد تم توظيفي وقرار ابتعاثي بتوصية من د. حنان عشراوي. ولكن تبين عند نهاية العام أن من كان يشغل منصب

Digitized by Birzeit University Library

عميد كلية الآداب في الجامعة آنذاك، د. محمد الحلاج، قد سحب رسالة ابتعاثي للدراسة، وترشيح شخص آخر بدلاً مني، وعند الإلحاح على رئيس الدائرة لتوضيح سبب إلغاء ابتعاثي كان رده: «لأنك شيوعية وهو يريد أن يبتعث أحداً من فتح، جماعته.» عندها نصحني غسان بأن أذهب للدراسة على حسابي الخاص. قال لي «انت جمعت بعض النقود من عملك يمكنها أن تضمن دراستك لمدة فصل، وأنا متأكد أنك ستحصلين بعدها على بعثة لأنك ستتميزين في الدراسة.» شجعني تقديره لي وأخذت بنصيحته وقررت السفر لاستكمال دراستي. وعلى ما يبدو فإن التفاؤل يأتي أحياناً بالخير. قبل سفري حصلت على منحة من مؤسسة لمساعدة الطلبة العرب، حيث علم أخي خليل من صديق له أنه مسؤول عن اختيار طلبة لمساعدتهم في استكمال الدراسات العليا على أن يعودوا لخدمة بلدهم أو أي بلد عربي آخر. وهكذا اصطحبني لزيارته وتقدمت بطلب للمساعدة، وتمت الموافقة على منحي البعثة بنفس اليوم، وكنت أول طالبة فلسطينية تستفيد من هذه الفرصة.

لكن الأهم من هذا، كان لغسان أثر في أنني أنهيت دراستي وحصلت على درجة الدكتوراه. كان غسان كلما جاءت المناسبة يكرر لي هذه الجملة: «أوعك يا ميس ترجعي دون أن تنهي رسالة الدكتوراة ». وأحياناً يضيف: «لازم ترجعي ومعك الشهادة. راح يكون صعب كثير تكتبي الرسالة وتخلصيها هون وانت مشغولة في التدريس، وكمان الأوضاع هون صعبة كثير مش مثل بلاد ثانية.»

عندما توفي أخي إلياس في أيلول عام ١٩٨٢ وتلقينا الخبر المشؤوم أسرع غسان وجاء مع أختي ليكونا معي ويدعماني قبل عودتي إلى البلاد لمشاركة العائلة في المصاب الأليم. تعثرت عودتي إلى أمريكا مدة ثلاثة أشهر بسبب عدم سماح سلطات الاحتلال لي بمغادرة البلاد، وقررت عدم العودة لإنهاء دراستي. ولكن تدخل غسان من أمريكا لمحاولة إقناعي بالعدول عن رأيي. «إرجعي يا ميس وخلصي دراستك. مش ضايلك إلا الرسالة. ارجعي وخلصيها». عدت لاكمال رسالتي.

لم يمض وقت طويل حتى توفي غسان في كانون الثاني عام ١٩٨٤. ولم أتمكن من العودة إلى البلاد والمشاركة في تشييع جثمانه بسبب عدم تمكني من التغيب أكثر مما تغيبت. ولم يمر ثلاثة شهور على وفاة غسان حتى جاء خبر وفاة والدي. كنت قد أنهيت امتحان ما قبل الرسالة وشرعت في العمل عليها. ولكن عند سماعي هذا الخبر اسودّ العالم في وجهي وعدت

Digitized by Birzeit University Library

إلى البلاد لحضور تشييع جثمان والدي. كنت في حالة نفسية سيئة جداً جعلتني أتشاءم وأفقد الأمل. لقد فقدت ثلاثة من أحبائي في مدة لا تزيد عن ١٨ شهراً وأنا أدرس في أمريكا. قلت «اللعنة على أمريكا» وقررت عدم العودة إليها. عندها تقدمت بطلب للعمل في جامعة بيرزيت كمدرسة، وقُبل طلبي وتم تعييني وقررت العمل والبقاء في البلاد. ولكن كان عليّ السفر إلى أمريكا لإنهاء الأمور العالقة هناك، من انسحاب من الجامعة وتسليم البيت ودفع فواتير إلى غير ذلك من الأمور.

عندما وصلت أمريكا وبدأت بتخليص الأمور ترددت في ذهني عبارة غسان «اوعك يا لميس ترجعي بدون ما تخلصي الرسالة». قلت في نفسي «لن أخذلك يا أبو الفجر. إكراما ومحبة لك سأبقى وأنهي ما علي إنهاؤه، يكفي أنك أنت عدت دون إنهاء رسالتك. لكنك أنت لم تقرر ذلك، بل كان لسلطة المرض عليك اتخاذ القرار بدلاً منك». هكذا نحن الفلسطينيين؛ أحياناً كثيرة لا سلطة لنا على اتخاذ قراراتنا، يتخذها رغمًا عنا إما الاحتلال وإما المرض.

آن أربور في ولاية ميتشيغان ١٩٨٢- زيارة د. لميس أبو نحلة برفقة د. عادل الزاغة

Digitized by Birzeit University Library

غسان حرب كما هو في الذاكرة

د. شوقي حرب

كان غسان حرب ابن عمومتي يصغرني بحوالي سنتين ونصف، إلا أنه على الرغم من صغر سنه فقد تميّز بنضوجه الفكري وعمق تحليله للأمور السياسية السائدة.

وأذكر أنه في أوائل الخمسينيات انتقل من الكلية الوطنية إلى مدارس الفرندز؛ حيث حملة «غسل العقول» آنذاك تلك الخطة التي كانت تهدف إلى ترويض ذوي الآراء اليسارية كي يعتنقوا مبادئ الحرية والديمقراطية التي كانت تنادي بها الولايات المتحدة، هادفةً لكبح جماح المد اليساري الماركسي.

وخلال إحدى الندوات بين طلاب المدرسة وأستاذ التاريخ؛ وكان اسمه مستر جونز «Mr. Jons» على ما أعتقد، قام غسان بتوجيه سؤال إلى ذلك الأستاذ عما إذا كانت الولايات المتحدة ستقوم بتطبيق مبادئ الحرية والديمقراطية التي تنادي بها أيضاً داخل الولايات المتحدة، وبخاصة فيما يتعلق بمعاملة السود وغيرهم من ذوي البشرة الداكنة. وكان جواب الأستاذ الأمريكي الذي بدت عليه معالم الذهول أن الموضوع يحتاج إلى وقت. ولم يكن جوابه مقنعاً، فقام غسان بشرح مشكلة الزنوج من خلال التحليل الماركسي؛ مما استوجب تصفيق الطلبة.

وفي ندوة أخرى وجه غسان سؤالاً أخرَ عن «النقطة الرابعة» في الأردن «لماذا لا تقوم الولايات المتحدة بتزويد المزارعين بالتركتورات لاستصلاح الأراضي؛ بدلاً من إعطاء مِنحٍ مالية لبعض الإقطاعيين»؟ وكان جواب الأستاذ الأمريكي أن طبيعة الأراضي الجبلية لا تسمح بعمل التراكتورات. وكانت المفاجأة أن قام غسان بتقديم إحصائيات عن مساحة الأراضي الصالحة للزراعة في الغور الشرقي والغربي، مما أذهل الأستاذ الأمريكي لدرجة كبيرة، ولم يكن عنده إجابة واضحة.

Digitized by Birzeit University Library

كان غسان يعيش آلام شعبه بصورة يومية، ولم يقتصر نشاطه على الحرم المدرسي؛ بل كان يشترك في المظاهرات ضد غلوب باشا والسلطات الأردنية بصورة مستمرة. وإن نسيت؛ فلن أنسى كيف كانت الشرطة الأردنية تقوم بضربه أثناء المظاهرات حتى يسيل الدم من وجهه وأنفه، ومن ثم تقوم باعتقاله. وفي حادثة أخرى قامت الشرطة بجره من مقعده الدراسي في مدرسة الفرندز واعتقلته حيث قضى سنوات عديدة في السجون الأردنية، ومن ثم في السجون الإسرائيلية بسبب مقاومته للاحتلال الصهيوني.

غسان حرب كان يعيش حياة الماركسي الأممي، فينعكس ذلك في تصرفاته اليومية؛ كان يحب كل الناس ويعطف على الضعيف. وكان يدندن النشيد الأممي كلما سنحت له الفرصة. وكان يؤمن بأن مجموعة صغيرة من البروليتاريا العمالية بإمكانها الانتصار على بطش السلطة إذا كانت منظمة تنظيماً ثورياً لينينياً. وقد سألته يوماً: هل الاعتقاد بوجود الله يمنعك من أن تكون شيوعياً ماركسياً؟ أجاب بالطبع لا ما دمت تقوم بتفسير الوجود الإلهي من وجهة نظر الديالكتيك المادي.

ثم افترقنا أنا إلى ألمانيا الغربية لدراسة الطب؛ ومن ثم إلى الولايات المتحدة للتخصص. وأما غسان فسافر إلى الاتحاد السوفيتي للدراسة أيضاً، ولم أكن أدري متى سافر إلى هناك، لكنني استلمت منه رسالة وأنا في فلوريدا يذكر فيها أمرين أثارا انتباهي: الأول تأكيده على شدة البرد في موسكو ذاكراً المثل العربي «الدفء عفا»، والأمر الثاني تأكيده على وجود الفواكه بكثرة، وكأنه يريد أن يرد على الدعاية الأمريكية بنقص هذه المواد في موسكو. لا أذكر تاريخ الرسالة والتي لا أدري مسيرها ربما كانت عام ١٩٦٩.

عدت إلى مسقط رأسي رام الله عام ١٩٧٥ لأجد غسان قابعاً في سجون الاحتلال؛ تحت قانون الاعتقال الإداري التعسفي، الذي كان يتم تمديده كل ستة أشهر بدون إبداء الأسباب. وبعد محاولات عدة تمكنت من زيارته في السجن مع والدته وبعض أقاربه. وأول شيء ذكره لي خلال لقائه معي «إذا كنا شرارة أصبحنا الآن بركان».

غسان قبع في سجون الاحتلال من سنة ١٩٧٤ حتى عام ١٩٧٧ حيث أطلق سراحه دون تقديم أية تهمة له.

بعد خروجه من السجن استمرت علاقتنا؛ وذات يوم سألني عن رأيي بأحد أطباء الامتياز من خريجي الاتحاد السوفيتي، وعندما أبلغته أنه في منتهى الذكاء وعلى دراية طبية، وقوة تحليل سريرية ممتازة، أجابني أنه يحترم هؤلاء الذين يجمعون بين العلم وبين الانتماء الوطني. ولم يكن هذا الطبيب سوى الدكتور مصطفى البرغوثي رئيس المبادرة.

Digitized by Birzeit University Library

قصتي مع غسان حرب

د. عودة أبو نحلة

حاولت مراراً أن أكتب عن غسان ولم أستطع أن أكمل. منذ طفولتي وأنا أسمع عن الشيوعيين أنهم وطنيون وأصحاب مبادئ، وتأكد لي الأمر عندما سُجن والدي سنة ١٩٥٦، وخرج وآثار التعذيب على جسده، وهذا عزز الفكرة لدي: إنهم أناس جيدون، لأن أبي كان أحدهم. كما أستذكر كيف كان الشيوعيون ينظمون المسيرات؛ وأذكر أن إحدى هذه المظاهرات كانت في رام الله التحتا بالقرب من كازية رام الله الحالية وسمعت الناس يقولون إن اسم الشخص الذي كان يهتف هو «طلعت حرب» شقيق غسان.

عندما حدثت الاعتقالات للشيوعيين وتم أخذهم إلى سجن الجفر، سمعت أن بينهم كان شاب صغير اسمه غسان حرب، والذي كان أصغرهم سناً، منذ تلك الفترة وأنا أعتبره مثلي الأعلى، وإنه قدم التوجيهي وهو في السجن.

بعد العفو الملكي العامّ، سنة ١٩٦٥، وبعد أن تم الإفراج عنهم أذكر أن مجموعة منهم قدموا لزيارة والدي، ولا أتذكر إنْ كان غسان بينهم، لكنني سمعت عنه الكثير كشاب مناضل في ذلك الوقت. في شهر أيار عام ١٩٦٧ أي قبل الاحتلال الإسرائيلي، تقدمت بطلب انتساب للحزب، كنت آنذاك أشعر أن غسان كان مثالاً للشباب من جيلي، وتم قبول طلبي بعد انتهاء حرب عام ٦٧ عندما عدنا للمدارس. من هنا بدأت علاقتي بالحزب.

أول مرة التقيت بغسان حرب عندما جاء لطلب يد أختي عفاف أبو نحلة عام ١٩٦٩، أنا فرحت جداً لذلك، لأنه يتمتع بسمعة جيدة، وهو كان بمثابة مثلي الأعلى طوال الوقت. وأول مرة التقيت به وقضيت معه وقتاً عندما كان في دمشق، وكان هو وأختي عفاف في انتظار الفيزا لكي تسافر معه إلى الاتحاد السوفيتي، وكنت أنا أيضاً مسافراً إلى الاتحاد

Digitized by Birzeit University Library

السوفيتي أثناء انتظاري لأخذ الفيزا من السفارة السوفيتية في دمشق، كانت قعدة جميلة جدا، وكان أخي خليل موجوداً معنا، فقد حضر من القاهرة حيث كان يدرس، لكي يحضر زواج أختي وغسان في عمان. كان غسان يتمتع بالجدية وفي نفس الوقت يتمتع بروح الفكاهة، ويستطيع أن يوصل ما يريد بأسلوب فكاهي ظريف، ومن الحوادث الطريفة أننا في تلك الجلسة طلبنا وجبة ضفادع، وأخبرني غسان ألاّ أخبر عفاف على أنها ضفادع حتى لا تأكل، وقال لها هذه «عصافير المية». بالطبع قمت بإخبارها لاحقا.

سافرنا كل واحد منا إلى بلد، غسان وعفاف إلى موسكو، أخي خليل إلى القاهرة، وأنا إلى رستوف. والمرة الثانية التي التقيت به بعد أن افترقنا كانت عندما كنت أنوي المشاركة في مؤتمر الطلبة أثناء دراستي في الاتحاد السوفييتي عام ١٩٧٠، ذهبت أولاً إلى موسكو حيث استضافوني عندهم لمدة أسبوع، وبعدها ذهبنا إلى «كييف» لحضور مؤتمر اتحاد الطلبة الأردنيين الذي عقد هناك. وكان غسان رئيس الجلسة، وقد ذهلت من أسلوبه في احترام الرأي الآخر مهما كان مختلفاً أو حتى تافها، وكان يحاول دائماً أن يوضح وجهة نظره فيما يقوله الآخرون بطريقة حكيمة لبقة لطيفة وبدون إحراج، وكان يبدأ تعليقه ب «أنت على حق بس لو...» هذه الجملة التي كانت تساعد على سير النقاش بأسلوب سلس دائما.

كان غسان قائداً بفضل معاملته للطلاب وأسلوبه في الحديث معهم وحبهم له وثقتهم بآرائه، فعلا كان قائداً بكل ما للكلمة من معنى. عندما وضعت عفاف ابنهما فجر، وكنت ما زلت أدرس في الاتحاد السوفيتي ذهبت بصفتي مندوبا عن العائلة، لأبارك لهما، ذهبت للمستشفى ونظرت إليهما من خلف الزجاج، مكثت مع غسان أسبوعاً لغاية خروج عفاف وابنهما فجر من المستشفى وعودتهما للبيت، في هذه الأيام التي قضيناها أنا وغسان وحدنا بينما كانت عفاف في المستشفى شاهدت كم الفرح الذي غمره بولادة فجر، والاهتمام بعفاف وفجر وكمية الورود التي أحضرها للمستشفى والبيت، للتعبير عن فرحته وتقديره لعفاف وابنهما.

أثناء هذه الأيام التي قضيناها سوياً حدثني غسان مطولاً عن تجربته في سجن الجفر، حدثني بفخر عن معاناة وإنجازات الرفاق الشيوعيين في السجن، كيف كانوا يشترون الأكل من البدو، كيف اشتروا البيض وكيف استطاع الرفيق موسى اسطفان (أبو جميل) على ما أذكر اختراع «فقاسة الصيصان» من القنديل، حيث تفاجأ حراس السجن بالصيصان، وكبرت الصيصان وأصبحت دجاجاً، وأخذ الحراس دجاجة وأعدوا للضابط منها وجبة، واحتج المساجين على ذلك. تعلمت من غسان أيضاً في هذه الأيام كيف يتم طبخ المنسف.

Digitized by Birzeit University Library

كان غسان يدافع عن الاتحاد السوفيتي بكل قوة، وأذكر عندما قلت له: «نيالكم أنتم في موسكو لديكم كل شيء، أنواع مختلفة من الأكل والأجبان، جبنه بيضاء وصفراء....الخ، بينما نحن في رستوف ليس لدينا سوى نوع واحد من الجبنة»، أجابني قائلاً «يا أبو ناصر (كان اسمي الحركي ناصر ولكنه كان يناديني بأبي ناصر) بكفي نوع واحد، يعني بدك انت تغمّس الجبنة البيضاء بالجبنة الصفراء، بكفي نوع واحد».

كانت هذه أهم لقاءاتي مع غسان في الاتحاد السوفييتي، بعدها رجع غسان وأسرته للوطن. وعندما عدت من رستوف بعد تخرجي كان قد تم اعتقاله ضمن الحملة التي شنتها قوات الاحتلال عام ١٩٧٤ على الرفاق والوطنين والمناضلين الآخرين بتهمة قيادتهم للجبهة الوطنية في ذلك الوقت. ذهبنا أنا وعفاف وزوجتي غالينا لزيارته في سجن الخليل فوجدته كما أعرفه شامخا وصلبا، وبعد خروجه من السجن في عام ١٩٧٧، أصبحت ألتقيه باستمرار في اللقاءات والمحاضرات التي يلقيها لجمهور عريض من الناس، وكان هذا الجمهور يحبه ويثق برأيه.

قمنا كأطباء شيوعيين بإنشاء وافتتاح عيادة لمعالجة العمال في نقابة عمال البناء والمؤسسات العامة، وكنت أراه هناك يقوم بإلقاء المحاضرات وإعطاء الدورات النقابية للعمال والنقابيين.

عام ١٩٨١، سافر غسان وعفاف وإبناهما فجر وفادي إلى أمريكا لاستكمال الدراسة، وبعد مرضه بالسرطان عاد للوطن عام ١٩٨٣، كنت كطبيب أساعده وأحاول التخفيف عنه ما أمكن، كان جبارا يتحمل الألم بطريقة غريبة، يرفض أخذ مسكن المورفين بشكل دائم بالرغم من الألم الفظيع، وعندما يشتد عليه الألم يقول لعفاف: «أريد عودة، نادي عودة» وعندما أحضر يقول لي احكي لي نكتة، وكان يضحك وعلامات الألم بادية على وجهه، أو كنا نغني معا «ليالي موسكو» (подмосовные вечра) باللغة الروسية، وهي أغنية روسية تراثية جميلة، كان يغنيها وهو متألم.

أخبرني كيف شجّع عفاف على استكمال دراستها وهو مريض، لأنه كان يعرف مصيره، وهو كان يريد لعفاف أن تجد فرصة عمل تساعدها مع ولديهما على الحياة بكرامة.

عرفت غسان كأب حنون وزوج مسؤول يعتني بتفاصيل حياة عائلته، عرفت غسان المناضل، غسان استحق لقب القائد بامتياز والمناضل بامتياز، والأب والزوج والإبن بامتياز.

أذكر يوم وفاته كيف رفض طلابه نقله للمستشفى، وأبقوه مسجىً في البيت لليوم التالي حتى موعد الجنازة، وذلك لإلقاء نظرة الوداع عليه، وكيف شكل طلابه والرفاق من الشبيبة

Digitized by Birzeit University Library

الشيوعية له حرس شرف يرتدون ياقات حمراء على أعناقهم، وتناوبوا على الوقوف حول الجثمان وحراسته كقائد عظيم.

وأذكر أنني وقفت فوق رأسه وأنشدت له «النشيد الأممي» إيمانا مني بأنه قائد وشيوعي عظيم فعلا.

رحل أبو فجر مبكراً، افتخرنا به حياً وافتخرنا به ميتا. لم تشهد رام الله جنازة كجنازة غسان حرب، وسيبقى غسان في قلوبنا ووجداننا ما حيينا.

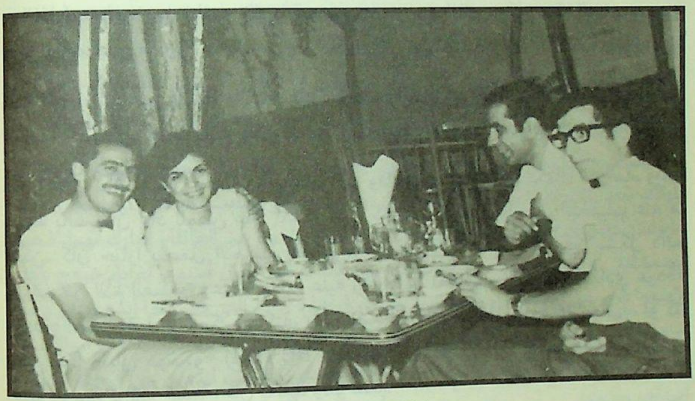

سوريا ١٩٦٩- مع خليل وعودة أبو نحلة

Digitized by Birzeit University Library

غسان حرب كما عرفته
عاش مناضلاً، وقضى عظيمًا
عدنان داغر

لا أذكر تاريخ لقائي الأول به بالضبط.

كان ذلك في عام ١٩٧٣، وأظن الفصل كان خريفا أو شتاءً، ذلك أن الرفيق «الطويل المائل إلى النحافة»، الذي جاء كرفيق زائر لمنظمتي الحزبية، كان يرتدي معطفا.

هذه هي الصورة التي ترسخت في ذهني عن أول لقاء مع الرفيق غسان حرب.

عرفت لاحقا، ولا أدري كيف، أن الرفيق الزائر هو غسان حرب، الابن الأصيل لمدينة رام الله، أصغر رفيق في معتقل الجفر الصحراوي سيء الصيت، أيام العهد الأردني، إذ قضى فيه مع رفاقه من الحزب الشيوعي الأردني نحو ثماني سنوات (١٩٥٧-١٩٦٥).

تتالت لقاءاتنا بعد ذلك، إما في مهمات حزبية، أو عرضًا، إلى أن جمعنا الاعتقال الإداري في سجن رام الله الاحتلالي، آنذاك، في عام ١٩٧٤، فيما عرف باعتقالات الجبهة الوطنية، وللمصادفة كنت أنا في ذلك الوقت، أصغر معتقل إداري، بين رفاقي الشيوعيين الفلسطينيين في ذلك السجن.

لا أزال أذكر ليلة الثاني والعشرين من نيسان ١٩٧٤، حينما جاءت قوة من الجيش الإسرائيلي لاعتقالي بعد منتصف الليل (كان ذلك الاعتقال الثالث)، وعلى رأسها المدعو موريس كوخابي، نائب الحاكم العسكري لمنطقة رام الله، من أصل عراقي، ويتحدث العربية بطلاقة.

وكالعادة في أي اعتقال، جرى وضع القيود في يدي، وتغطية عيني، ثم أجلسوني في أرضية

Digitized by Birzeit University Library

جيب عسكري، وانطلقوا بي نحو غرب مدينة رام الله، حيث كان يسكن الرفيق غسان حرب مع عائلته.

عرفت من كلام الجنود أنهم أمام بيت الرفيق غسان حرب، وأنه غير موجود في تلك الليلة في بيته، لكنهم وجدوا من تطوع ليدلهم على مكانه، حيث كان يبيت وزوجته عفاف أبو نحلة، عند أهلها في عين مصباح.

عندما أحسست بحركته وهم يقتادونه بالقرب من الجيب العسكري، لجأت إلى حيلة لأعرف من هو، ولأخبره أنني موجود، فخاطبت الجنود، «بلاش يقعد فوقي أنا مش شايف إشي»، فرد قائلا بنفس الطريقة، «في مكان بالجيب بلاش أدعس على رجليه».

كان جواب الجنود بضع صفعات ولكمات، والطلب مني أن «اخرس»، فخرست بعد أن أخبر كل منا الآخر من يكون.

خضع غسان إلى تحقيق قاسٍ جداً مع ثلة من قيادة تنظيم الشيوعيين الفلسطينيين في الضفة الغربية آنذاك، في معتقل صرفند العسكري، الذي كان مجرد ذكر اسمه يثير الرعب في قلوب الأسرى الفلسطينيين، لمعرفتهم بأن الداخل إليه يمكن أن لا يخرج منه حيا!

خضعنا كلنا (معتقلو الجبهة الوطنية من الشيوعيين) لاعتقال إداري تراوح بين سنتين إلى أربع سنوات، بدأت بثلاثة شهور، جرى تجديدها لستة شهور، وتتالت التمديدات إلى أن جرى الإفراج عن آخر معتقل بعد نحو أربع سنوات.

كنا ثمانية معتقلين إداريين من الحزب في سجن رام الله، ولنا رفاق آخرون في سجون الخليل، نابلس، بيت ليد (كفار يونا).

غسان كان معنا في سجن رام الله، ثم جرى نقله لاحقاً إلى سجن الخليل، وبقي هناك إلى أن أفرج عنه.

كان بيننا، إضافة إلى غسان، معتقلون آخرون ممن قضوا ثماني سنوات في سجن الجفر الصحراوي أيام الحكم الأردني للضفة الغربية (خضر العالم - أبو حازم من كفرعين، وعبد الله البياع - أبو إياس من كفر مالك)، حيث كانوا يتحدثون لنا عن تلك الفترة وعن بطولات الصمود للمعتقلين الشيوعيين، ولا تخلو أحاديثهم من بعض الطرائف التي كانت تحدث معهم هناك.

Digitized by Birzeit University Library

غسان كان يعاني من البواسير، التي كانت تنزف باستمرار، نتيجة الإهمال في العلاج الذي كان يقتصر على التحاميل بين فترة وأخرى، وبقي يعاني منها إلى أن تم الافراج عنه فأجرى عملية في الخارج لاستئصالها.

رغم الآلام المبرحة التي كانت لا تفارقه نتيجة ذلك، لم نسمع منه شكوى ولا مرة واحدة!

بعد الإفراج عنه، كان يكتب زاوية ثابتة بعنوان «تحت المجهر» في المجال الإقتصادي في جريدة الطليعة الأسبوعية (الجريدة العلنية للحزب آنذاك، والتي صدر قرار من الحاكم العسكري للضفة الغربية بمنع توزيعها في الضفة)، فاقتصر توزيعها العلني على مدينة القدس، وكنا نقوم بتهريبها وتوزيعها سرًّا في مدن وقرى ومخيمات الضفة الغربية وقطاع غزة.

عمل غسان لاحقا، محاضراً في مادة الإقتصاد في جامعة بيزيت، التي أرسلته في منحة دراسية الى الولايات المتحدة لنيل درجة الدكتوراة في الإقتصاد.

سافر غسان وعائلته إلى الولايات المتحدة، وهناك أظهرت الفحوصات الطبية إصابته بمرض سرطان الأمعاء، فأجريت له عملية لاستئصاله، لكن المرض الخبيث عاد إلى جسمه مرة أخرى، وأخبره الأطباء أن لا شفاء من المرض هذه المرة!

اضطر غسان وعائلته للعودة إلى أرض الوطن قبل إنهائه الدراسة، ليموت في مدينته التي أحب، رام الله، كما قال لنا في حينه.

لم نكن ندري، نحن رفاقه ومحبيه، بأي الكلمات نعزيه ونخاطبه، وهو يعلم، ونحن أيضاً، بأن النهاية ليست بعيدة.

كان ثابت الجأش، مرتفع المعنويات، رغم فداحة الأمر.

عندما تفاقمت حالته الصحية، واقترب فراقه، لم تعد المهدئات والمسكنات قادرة على التخفيف من ألمه.

مات غسان بين أيدينا وتحت أنظارنا، ونحن لا نملك إلى دفع الألم والموت عنه سبيلا.

مات عظيماً كما عاش طوال عمره.

قرر الحزب أن يشيّعه في موكب مهيب.

Digitized by Birzeit University Library

تقدم جنازته شبيبة الحزب ورفاقه بشارات حمراء على أذرعهم، وكان لي شرف تنظيم مسيرة الجنازة، من بيته وحتى مثواه الأخير في مقبرة المدينة، وألقيتُ على قبره كلمة مؤثرة في وداعه الأخير.

ذكرى غسان الطيبة باقية ما بقي شعبه وحزبه، فكلما أتينا على ذكره، نتذكر رفيقا وهب حياته وطاقاته وفكره لشعبه وقضيته وحزبه.

فلترقد روحك بسلام يا أبا فجر.

Digitized by Birzeit University Library

تسعون يومًا في الكومونة

د. جبرا الشوملي

كغيري من الشباب المدفوع بالحس الوطني في منتصف السبعينات من القرن الماضي، قذفتني أمواج المعركة الوطنية التي كانت شراراتها تشتعل تحت وفوق السطح إلى الأسلاك الشائكة في سجون الاحتلال، ومن صدف الحياة الكريمة وجدت نفسي بعد فترة التحقيق في الزنازين، في نفس غرفة السجن مع المعلم غسان حرب، ومعه عدد من المعتقلين الشيوعيين الذين أنهوا معركة التحقيق في الزنازين بشرف الطلائع وهزموا الجلادين وسجلوا مآثر بطولية، أسست لمدرسة عدم الاعتراف في التحقيق.

وقتها كنت شاباً لم يتجاوز السابعة عشرة من العمر، وكانت صفحة رأسي بيضاء كطالب في الصف التمهيدي في مدرسة السجن.

وما أن أصبحت واحداً من سكان غرفة السجن حتى لفت انتباهي نمط حياة تلك المجموعة من الشيوعيين التي كانت منظمة ونابضة كخلية نحل.

في أوقات القراءة الصباحية يخيل لك أنك تسمع طنين الصمت، في مواعيد الطعام تنساب لوحة فذة من الإيثار: يتسابقون من لا يكون الأول الذي يمد يده للطعام، متحفزون من يكون الأول الذي يترك مائدة الطعام ويخلي المائدة لغيره، وفي الليل تبدأ الأمسيات الفكرية والوجبات الثقافية الدسمة، وفي الصباح يستيقظون مبكراً قبل أن يقرع الجندي جرس العدد، كل ذلك محفوزاً بهيبة رجل كرزماتي اسمه غسان حرب.

في الأمسيات الفكرية الليلية التي غالبا ما كان يقف على رأسها أبو الفجر كان جميع سكان الغرفة ولمدة ساعات يستمعون بإصغاء عالٍ كأنهم ذاهبون غدًا الى الامتحان، وكان أبو الفجر كعادته بلغته العميقة يسترسل في السرد والتحليل والمرافعة النظرية التي تشبع

Digitized by Birzeit University Library

العقول، كما كان يسترسل في فتح مغاليق القضايا المعقدة بمفاتيح لغته الدقيقة بعد أن يقوم بتبسيطها وتوضيحها بطريقة السهل الممتنع الذي لا يقوى عليه سوى المثقفين الموسوعيين.

جمعتني مع أبو الفجر لقاءات ثنائية، كنت دائما متحمسا وساعيا أن أغرف من بحره الدرر الثمينة، وكان أبو الفجر دائما كريما في إشباع نهمي للمعرفة.

أعترف أن تشكيلي الثقافي الأول قد تم بريشة أبو الفجر، فوجدت نفسي منحازاً لمدرسة أبو الفجر الفكرية، وأكثر من ذلك فقد شدني هدوؤه بعكس طفولته الصاخبة، كما شدني تواضعه وفطنته وفراسته وإشعاعات ذكائه المتقد.

كان أبو الفجر معلماً وخادماً مبهرا؛ وهذا الجمع بين المعلم والخادم لا يتمتع به إلا الأنبياء، جريًا على نموذج السيد المسيح الذي زرع الفكر وغسل أرجل التلاميذ، معلماً نظرياً ومرجعاً فكرياً لرفاقه وعامل نظافة له ولرفاقه في آن واحد، يؤدي كغيره من رفاق السجن دوره في النظافة وتحضير الطعام وغسل أكواب القهوة والشاي دون تعالٍ أو تأفف من العمل اليدوي اليومي.

لم يكن هناك في غرفة السجن سيد وتابع، كان هناك رفاق ثوار أشبه بثوار كومونة باريس، ثوار معدمين من كل شيء إلا من الأحلام بالحرية والخبز والسلام، وكما حول أبو الفجر ورفاقه غرفة السجن إلى أكاديمية ثورية، اقتحم عمال كومونة باريس السماء كما وصفهم كارل ماركس وحولوا باستيلات باريس إلى مدارس للعمال الفقراء.

في الفترة الصباحية من بين الكتب التي طالعتها: كتاب أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة لمؤلفه أنجلز، وعندما واجهتني صعوبات في فهم هذا الكتاب المعقد، ذهبت إلى أبو الفجر، فقام بتبسيط الكتاب لي، وبلغته البسيطة والواضحة فك شيفرة هذا الكتاب وفتح أمام عيوني دروب تطور التاريخ البشري.

إنني مدين لهذا الرجل الاستثنائي بالكثير من الجميل، وفي قلبي يسكن في منطقة الشغاف الدافئ، أتذكره بكثير من حنان الأخ الكبير، أتذكر وجهه الجميل وإنسانيته الشامخة وروحه المتمردة وثقته المطلقة بالنصر.

لزوجته الوفية أم الفجر ولولديه وأحفاده ومحبيه أطبع على جباههم قبلات المحبة والوفاء.

Digitized by Birzeit University Library

غسان حرب.. الثقة في المستقبل

داود مطر

الظروف الصعبة وغير الواضحة سياسياً التي تمر بها قضيتنا، وعدم وجود آفاق لحل مستقبلي تجعلنا نرجع ليس بالبعيد الى الوراء (فترة السبعينات من القرن العشرين) ونتذكر أيام النضال من أجل القضية الفلسطينية عندما كان لدينا ثقة في أنفسنا وفي المستقبل، على الأقل هذا ما كنا نشعر به ونفتخر بأنفسنا حيث كان هذا يشد عزيمتنا للنضال ضد الاحتلال.

بعد الاعتقال للكثير من أعضاء الحزب المشاركين الأساسيين في الجبهة الوطنية للمقاومة بالسبعينات وفي السجن الذي يحوي على جوانب كثيرة مظلمة غير ظلام السجن نفسه، على الرغم من ذلك فقد احتوى على جوانب منيرة من خلال رفاقنا المخضرمين، ومنهم غسان حرب (أبو الفجر) الذي سجن شاباً يافعاً في زمن الأردن، وسجن معنا في سجن الخليل.

كان غسان مناضلاً سياسياً واثقاً بعدالة قضيته، وكان ضمن مجموعه من الرفاق الذين لم نكن نعرفهم نتيجة لظروف العمل السري، وتعرفنا على بعضنا بعضًا داخل السجن.

تعلمنا منهم الكثير، وخاصة المرحوم غسان حرب الذي أقل ما يقال عنه إنه كان مناضلاً واثقا من نفسه، حيث جمعتنا غرفة رقم ٧ في سجن الخليل التي لم تكن تتسع لأكثر من سبعة أشخاص، وكان عددنا أنا ذاك ١٤ سجينا، حيث كنا ننام متراصين مثل ورق العنب في القدر، وهذا كان جزءاً من أنواع الإذلال والضغط علينا من قبل إدارة السجون، وقد قمنا بالاحتجاج على الوضع المزري الذي كنا نعيشه وعلى التجديد للاعتقال الإداري المتتالي، حيث أضربنا عن الطعام أحد عشر يوما ولم نرضخ لضغوطات الاحتلال علينا، بل على العكس من ذلك، إذ ان الغرفة رقم ٧ أصبحت منارة للسجن والمساجين في الخليل، لوجود رفاق مثل غسان حرب الذي كان له الفضل الأكبر في ترتيب أمور الغرفة من خلال النظام،

Digitized by Birzeit University Library

حيث قام بترتيب أوقات الندوات والمحاضرات وأوقات للتثقيف السياسي وأوقات للقراءة الشخصية وقراءة الجريدة بصوت مرتفع لكي يسمع الجميع مع تحليل ما كنا نقرأه لفهم ما بين السطور، حتى الكانتينا التي كانت ١٠ ليرات وأصبحت ١٥ ليرة قام بترتيب أمورها لشراء ما يلزم لجميع أفراد الغرفة، وهذا كان يسد حاجتنا حتى نهاية كل شهر.

قد يبدو هذا الأمر للبعض تافها للوهلة الأولى، ولكن في الواقع تعلمنا الكثير من التضامن والعمل الجماعي المشترك ونبذ المصلحة الشخصية والوصولية التي نعاني منها اليوم في الوظائف وإدارة شؤوننا.

حاولنا نقل ضرورة الوعي والتثقيف السياسي بين شبابنا وشباب التنظيمات الأخرى بتوجيه من الرفيق غسان حرب، وهذا ما عرضنا لكثير من المضايقات، حيث تم الاعتداء عليَّ شخصيا، وبعد مراجعة مسؤولين في التنظيمات الأخرى وبعد النقاش معهم من قبل غسان وتوضيح ضرورة وأهمية الوعي لشبابنا داخل السجون حتى لا يعيشوا في فراغ سياسي كان الرد (عجبًا)، وهذا تعبير استخدمه الرفيق غسان إذ كانوا يجيبونه بالقول: إن عنصرنا دخل السجن كذا ويخرج كذا وهذا شأن خاص بنا!

ويمكننا القول ان الرفيق غسان كان بمثابة الموجه السياسي، هذا الانسان لو عاش لفترة أطول لأصبح رئيساً لبلدية رام الله بدون منازع وقائداً جماهيرياً وبوصلة سياسية داخل (عاصمة السراب) لحكمته واحترام الناس له.

الذين عرفوا غسان حرب يشهدون بأنه كانت له (كاريزما) وحضور محبب لدى الجميع، وليس صدفة انني سميت ابني على اسمه.

وعندما ألتقي مع بعض أصدقاء السجن القدامى نتذكر اننا كنا نعيش بكرامة أكثر من اليوم، وكان لدينا أمل في المستقبل وفي استقلالنا، والان تتلاشى امام اعيننا آفاق بناء الدولة، من خلال ما يجري من المحسوبية والوراثية بالمناصب.

ونتذكر غسان حرب (أبو الفجر) الذي أعد دراسة عن مقومات الدولة الفلسطينية المستقبلية ومن ضمنها زراعة الأغوار والسياحة..الخ. وللأسف نفتقد الدور المنوط بالسياسيين والثقافيين والعاملين بجد من أجل إنشاء دوله فلسطينية وعاصمتها القدس الشريف.

Digitized by Birzeit University Library

ذكرياتي عن والدي ومعه

فجر حرب

من الصعب أن أتحدث عن والدي الذي توفي وعمري ١٣ سنة، أمضى منها ما يقارب ٣ سنوات في السجن وسنتين في المرض، بالإضافة إلى الفترة التي قضيتها في بيت جدي أبو خليل (والد أمي) اثناء دراسة أمي في الخارج. لكن كانت هناك أحداث ومواقف هي التي تذكرني به. كان أبي يأتي ويصحبني من بيت جدي أبو خليل إلى بيته؛ حيث كان يسكن مع جدتي أم حرب كي أبقى على تواصل مع عائلته. ربما كان يتوقع أننا سنسكن يوماً ما هناك لهذا أراد أن يصبح الجو مألوفا لي. كنت طفلاً صغيراً وكان يدللني كثيراً ويسمح لي بالوقوف على رجليه، وأذكر مرة أنني أخذت ساعة يده ورميتها على الأرض وكسرتها وقال لي بتهكم: «شاطر يا بابا» لم يعنفني أو يعاقبني. كان يسايرني كثيرا.

أتذكر أحداثاً كثيرة أثناء وجود أبي في عدة سجون (في الخليل ورام الله ونابلس)، ولكن القليل منها كان مرتبطاً به كسجين.

في إحدى المرات ذهبنا لزيارة والدي في سجن رام الله، وعندما كنا ننتظر أن يسمحوا لنا بالزيارة، كان أحد الجنود جالساً على مقعد يحرس المدخل، سألته «هادي البارودة إلك؟» أجابني «نعم». فقلت له «انت كذاب انت سرقتها منا مثل ما سرقتوا أرضنا فلسطين». كانت النتيجة أننا حُرمنا نحن ووالدي من الزيارة الخاصة التي نادراً ما كان يحظى بها بعض العائلات. أي حُرمنا من أن نجلس معه في غرفة مخصصة وأن نستطيع أن نجلس في حضنه وتقبيله، وليس زيارته من خلف الشباك. كان الحاكم العسكري المدعو «موريس» آنذاك هو الذي قرر حرماننا من هذه الزيارة، وكان يصرخ ويقول «انتو عيلة حرب مشاغبين وبتعرفوش كيف تربوا ولادكم.»

Digitized by Birzeit University Library

وفي إحدى المرات ونحن عائدون من زيارة والدي في سجن الخليل. سألني سائق السيارة «انت مبسوط انك شفت ابوك اليوم» فنظرت إلى الغطاء الشبكي للمدفأة الصغيرة على لوحة السيارة الأمامية وقلت له مشيراً إلى اللوحة «اذا انت شفت ابوك من هذا الشبك بتكون مبسوط!!!»

حصلت في إحدى المناسبات على تلفون لونه أحمر وكنت أستطيع أن أتحدث منه مع شخص آخر. وفي إحدى المرات كنا مجتمعين في بيت جدي أبو خليل، وحاول أحد الأقارب لست أذكر من هو أعتقد أنه كان يدرك مدى اشتياقي لوالدي، وأراد أن يفرحني فذهب إلى الغرفة الداخلية واتصل من هاتفي وقيل لي «إسرع جاوب على التلفون والدك يريد التحدث معك» فرحت كثيراً ولكنني غضبت كثيراً عندما ميزت صوت المتصل ولم يعجبني ذلك.

كما أن لي ذكريات تدور حول وجود والدي بالسجن وزياراتنا له؛ أتذكر المعاناة لأهالي الأسرى الذين كانوا مع والدي وكيف كنا نذهب سويا للزيارة.

كنا نلتقي كأهالي سجناء في باحة السجن، وفي انتظار الزيارة كنت ألعب مع سلام حمدان ابنة الأسير المناضل عبد المجيد حمدان، ومع إياس البياع ابن المناضل العم عبد الله البياع في باحة السجن في الخليل وفي رام الله. وأحياناً كنا نتشاقى في محاولة للفت انتباه الجنود والحراس الذين كانوا يتواجدون في ساحة الانتظار، ففي إحدى المرات قمنا أنا وسلام بإشعال النار في العشب المحيط بسجن نابلس. بعد الزيارة كنا نذهب إلى بيت الأسير المناضل عبد الحافظ زيدان في حلحول كي نستريح قليلا ونحن عائدون من الزيارة في سجن الخليل، وأتذكر كيف كانوا يستقبلوننا بحفاوة، وكنت أحب الحمام الذي يربونه. كذلك كنت أفرح بزيارة منزل الرفيق عبد الله البياع، لأنهم أناس طيبون ولهم بيت في القرية حيث يربون الأغنام ولديهم بغل. وكنت أعتقد أنها فرصتنا الوحيدة لنعيش لحظات في القرية على طريقة أجدادنا الفلاحين.

ومن خلال هذه اللقاءات أصبحت تربطنا ببعض، نحن كأهالي أسرى، علاقات قوية مع أهالي السجناء، فهمُّنا واحد وكنا نشعر مع بعضاً كثيرا، وبعدها تعلمنا معنى أن يكون أحد أفراد الأسرة بالسجن، وحجم المعاناة التي يعيشها أهالي السجناء.

بعد خروج أبي من السجن بدأ بتجهيز وتأثيث البيت الذي سنسكن فيه، الواقع بجانب بيوت جدتي أم حرب وأعمامي غاندي وطلعت، وذلك ببناء غرفة إضافية للبيت، وأذكر أن

Digitized by Birzeit University Library

والدي كان يرافق العمال طوال الوقت أثناء بنائها.

كان أبي يصحبنا أنا وأخي من البيت إلى المدرسة وبالعكس، وأذكر حادثة أثرت في نفسي كثيراً، ففي أحد الأيام بينما كنا في طريقنا من المدرسة اللوثرية إلى بيتنا بالقرب من مدرسة عزيز شاهين، دعسنا قطة بالسيارة مما صدمني وأزعجني كثيراً، ولاحظ والدي ذلك فقال لي «إن هذا ما حدث» فتعلمت منه أن ما حصل قد حصل، وأن بعض الأشياء التي تحصل بالصدف وبدون قصد تكون قدرنا وعلينا أن نتحمل هذا القدر.

وفي أيام الصيف كنا نذهب في الصباح إلى مخيم الشبان المسيحية (YMCA) في مقر الجمعية في بيت دار الناطور في البيرة، وفي فترة بعد الظهر كنا نذهب يومياً للسباحة في جمعية الشبان في القدس. وأذكر أنه في يوم من أيام الصيف عام ١٩٨٠ عندما كنا نجهز أنفسنا للذهاب إلى المخيم سمعنا صوتاً قوياً ونحن ذاهبون لتركب السيارة، اعتقدت ابنة عمي أن هذا صوت إحدى الطائرات أثناء إقلاعها، حيث كان بيتنا يطل على مطار قلنديا، ولكن بعدما تحركنا في السيارة باتجاه شارع يافا؛ وإذا بتجمع كبير للناس والجيش الإسرائيلي وحرس الحدود على الجبل المقابل لنا، فأوقفنا السيارة بعيدا، وعندما اقتربنا فإذا بسيارة جديدة ذات لون أخضر تحترق من الأمام فقط، وعلمنا كيف تمت محاولة اغتيال رؤساء البلديات في الضفة الغربية، وأن هذه السيارة هي سيارة رئيس بلدية رام الله المنتخب في حينه السيد كريم خلف، وفي هذه اللحظة غضب والدي واحتد، وكانت هذه هي المرة الأولى التي أراه في هذه الحالة، والمرة الأولى التي أسمع أبي فيها يسب على الجيش الإسرائيلي ويقول كلاماً بذيئاً في وجههم. كما أذكر كيف اصطحبنا والدي؛ أمي وأخي وأنا، بعد عدة أيام إلى نابلس لزيارة رئيس البلدية المنتخب السيد بسام الشكعة، الذي كان قد تعرض لمحاولة الاغتيال أيضاً وبترت ساقاه. وعندما وصلنا رأينا الجماهير الغفيرة هناك، وكيف كان هو محمولاً على الأكتاف والجماهير كانت تطلق الهتافات.

كان والدي يتابع دروسي ويقرأ ما أكتب أثناء المدرسة، وأتذكر أنه كان يعلق كثيراً على ما أكتب لأنني لم أكن أضع نقاطا فوق الحروف، مثلاً: «كلمة فن يقرأها من» لأني لا أضع نقطة للفاء، كان حنوناً وهادئا، فعندما يأتي ليوقظني أنا وأخي من النوم يوقظنا وهو يغني. كان يتحدث معي وينصحني حين أرتكب خطأ ما بطريقة لطيفة تخلو من أي تعنيف، وأذكر حادثة في هذا السياق، ففي إحدى المرات عندما كنا نسكن في بفلو أردت أن أذهب لحفلة مع زملائي في المدرسة، ولم يكن عمري يتعدى ١٢ سنة آنذاك، لم يكن والدي راضياً عن ذهابي، لكنه لم يمنعني وأثناء حضوره لأخذي للبيت سألني: كيف كانت الحفلة؟ وكم

Digitized by Birzeit University Library

سيجارة دخنت؟ لأن رائحتي كانت ظاهرة، لم أنكر وقلت له دخنت، لم يوبخني لكنه أخذ يشرح لي مساوئ التدخين، كان أسلوبه لاذعاً بدون عنف.

كان والدي يصحبنا أنا وأخي للسينما «سينما دنيا آنذاك» ونحضر الأفلام الشهيرة مثل «فيلم السيارة بدون سائق» (لا أذكر اسم الفيلم)، أو الأفلام الهندية التي كان هو يحبها. كان والدي يحب أن يشتري الخضار والفواكه من الحسبة في البيرة ورام الله، وكان يصحبني معه دائما، كما كان يشتري صناديق الكوكا كولا ذات الزجاجات، ومن ثم عندما تفرغ نعيدها إلى الدكان الذي اشتريناها منه، وكنت أستمتع وأنا أرافقه للقيام بهذه المهام. عمل والدي بعد خروجه من السجن في مصنع شركة باطون رام الله، وكنت أذهب معه في بعض الأحيان وأستمتع بركوب خلاطات الباطون وماكنة زراعة الطوب اللتين كان هو مسؤولاً عنهما.

من أكثر الأحداث التي أتذكرها؛ الرحلات العائلية التي كان يقوم أبي بترتيبها، أو تحدث بشكل فجائي عشوائي أحيانا، كنا نذهب في سياراتنا كعائلة أو كمجموعة نحن والأعمام وعائلاتهم إلى عين قينيا أو دير اللطرون وبركة أبو غوش. وفي إحدى المرات اصطحبنا والدي إلى بركة أبو غوش وخيمنا هناك ليلة واحدة وأمضينا وقتاً ممتعاً كعائلة.

كما أذكر أن أبي كان يصحبنا كثيراً لزيارة الأقارب في الناصرة، وحضور الأعراس التي كانت تمتد لعدة أيام. وأذكر جيداً مشاركتنا كأسرة في مخيم العمل التطوعي في الناصرة، أتذكر إحدى الرحلات التي نظمتها كلية الإقتصاد في جامعة بيرزيت إلى إيلات، وكيف أوقف الإسرائيليون الباص وتم اعتقال أحد الطلبة الذين كانوا معنا في الرحلة، لأنه لا يوجد معه تصريح، ولأننا كنا قد خيمنا في مكان غير مسموح به التخييم.

من الأحداث التي تُذكرني بوالدي أيضاً الرحلات حين كان يصحبنا معه لزيارة المناطق الفلسطينية المختلفة، التي كانت محطتها الأولى الناصرة. كنا نذهب إلى الناصرة بسيارتنا حيث كان السفر بالسيارة إلى المناطق الفلسطينية في الداخل مسموحاً أثناء النهار، ولكن المبيت هناك كان ممنوعاً، ففي المساء كنا نخفي سيارتنا بين سيارتين تحمل اللوحات الصفراء (الإسرائيلية). كنا نقضي الليل في الناصرة عند دار عم أمي، وفي الصباح نستقل السيارة ونذهب إما إلى طبريا أو إلى الجولان وأحياناً إلى رأس الناقورة، كما كنا نمضي أوقاتاً ممتعة على شاطئ البحر.

كانت العائلة تحترم رأي والدي وفي أغلب الأحيان رأيه هو الذي يؤخذ به في أي موقف خلافي.

Digitized by Birzeit University Library

وأذكر أن والدي كان يحرص على زيارة الأقارب في الأعياد، وكان يصحبنا أنا وأخي معه لكي نُعيّد على الأقارب، وكنا أحياناً نزور ١٢ بيتاً في صباح العيد.

وكان والدي يصحبني معه للجامعة، وأذكر جيداً أنه في إحدى المرات كنت معه في مكتبه في المبنى القديم الذي كان يطلّ على ساحة كمال ناصر، وكان يوجد في زجاج الشباك ثقب صغير، وقد أخبرني والدي أن هذا الثقب هو من رصاصة جيش الاحتلال التي مرت من تحت ذراعه على بعد سنتمرات من قلبه.

في صيف سنة ١٩٨١، أخبرتني أمي أننا ربما نسافر إلى أمريكا إذا ما حصل والدي على الفيزا، إذ إنه كان متوقعاً أن لا يحصل عليها بسبب أنه سجين سابق، وقالت لي إن الوالد قد حصل على بعثة لاستكمال دراسته في إحدى الجامعات الأمريكية. حصل والدي على الفيزا وسافرنا، أذكر جيدا كيف بقينا في بيت للطلبة غير مؤهل للسكن، وذلك أثناء توقفنا في واشنطن في انتظار موعد إقلاع الطائرة التي ستقلنا إلى بفلو في نيويورك، المدينة التي سنسكن فيها. وأذكر كيف كان أبي يصبرنا ويقول لنا بأننا سوف ننتقل إلى بيت أفضل وإن هذا الوضع مؤقت.

بالرغم من انشغاله الكبير في الدراسة إلا أنني شعرت بأن العائلة في الغربة أصبحت أكثر قرباً من ذي قبل، وكان أبي يقول نحن قدمنا لإنجاز مهمة محددة وبعدها سنعود للوطن. كنا في «بفلو» حيث الثلج الكثيف، لم يكن والدي يحب الثلج، سكنا بالقرب من أحد الأقارب؛ ابن خال والدي؛ العم فريد حرب (المعروف بالكَزِن فريد). بعد وصولنا إلى أمريكا اشترينا سيارة حيث كان العيش مستحيلاً بدون سيارة، وكان والدي قد رتب أمر شراء السيارة مع زوج عمتي نبيلة؛ زكي سالم، الذي كان يعمل مع شركة لبيع السيارات في جاكسون فيل فلوريدا.

بعد عدة أشهر علمت أن والدي مريض، وبالرغم من ذلك كان يدرس كثيراً وكانت له غرفة خاصة للدراسة، كان يدرس وهو يتألم، أجريت له عملية كبيرة، وبعد فترة تحسنت صحته قليلاً وعاد إلى الدراسة، وقد حضر عدد من الأقارب لزيارتنا والاطمئنان علينا وعلى صحة والدي؛ حضرت جدتي أم حرب وعمتي نبيلة من فلوريدا وعمتي عبلة من سان فرنسيسكو وخالتي لميس من آن آربر وجدي وجدتي (أبو خليل وأم خليل) من فلسطين. بعد مدة انتقلنا إلى بيت آخر أقرب إلى الجامعة، مما تطلب تغيير مدارس والتعرف على أصحاب وجيران جدد. ولكن صحة والدي ساءت حيث انتشر المرض وظل الأقارب يتناوبون على زيارتنا للوقوف بجانبنا، كان أبي يتألم كثيراً رغم الأدوية الكثيرة التي كان يتناولها.

Digitized by Birzeit University Library

ما كان يميز إقامتنا في الولايات المتحدة الرحلات التي كنا نقوم بها لزيارة الأهل والأصحاب في مختلف المدن والولايات الأمريكية، وأيضاً الرحلات إلى شلالات نياغارا ودارين ليك التي كنا نقوم بها إما وحدنا أو مع الضيوف والأهل الذين كانوا يزوروننا. وأذكر أننا عندما كنا في إحدى الزيارات لخالتي لميس في آن آربر التقينا بالفنان الموهوب المقاوم جورج قرمز وغنينا معه «أنا اسمي شعب فلسطين». و «سجل أنا عربي» وغيرها من أغانيه.

وأذكر كيف كان أبي يشجع أمي على استكمال دراستها بالرغم من مرضه، وكأنه يريد لها أن تتسلح بالشهادة لمواجهة القادم.

في شهر أكتوبر/ تشرين الأول عام ١٩٨٣ أخبرتني أمي أننا سنعود للوطن فلسطين، وأن أبي لن يعيش أكثر من عدة أشهر حسب رأي الطبيب، وفي هذه الفترة كنت قد تعودت على حياتي الجديدة وبدأت أتأقلم مع المعيشة في أمريكا، ولم أكن أرغب بالعودة. لكنني تفهمت الوضع بعد أن شرحت لي أمي حالة والدي، وكيف كان خياره العودة للوطن.

عدنا لبيتنا في رام الله، ما زالت رائحة البيت عالقة في ذاكرتي، هذه الرائحة التي تذكرني بأبي، كان يذهب للمستشفى باستمرار، ويزوره أناس كثيرون من كل أنحاء الوطن، وأحياناً يأتون في باصات من بئر السبع وغيره، أتذكر كيف كنت أمسك بيده أحياناً وهو يتألم، وأضع له الموسيقى الكلاسيكية التي كان يحبها كي أخفف عنه الألم.

بكاه جدي بحراره يوم وفاته، وبدأت مراسم الدفن، وأصر رفاقه وأصدقاؤه على بقائه يوماً وليلة في البيت لإلقاء نظرة الوداع الأخيرة عليه، وتناوبوا على حراسة جثمانه، ملفوفا بالعلم الفلسطيني، بكتْهُ رام الله وكل محبيه وأصدقائه، فقد كان قائداً وطنياً ومناضلاً بارزاً.

رام الله ١٩٧٦- اثناء الاحتفال بعيد الميلاد المجيد اثناء وجود غسان بالسجن الاسرائيلي

Digitized by Birzeit University Library

ذكريات مع والدي

شحيحة بأيامها غنية بمعانيها

فادي حرب

على الرغم من السنوات القليلة التي عشتها مع والدي إلا أنها كانت غنية بمعانيها وذكرياتها. فقد ولدت ووالدي يقبع في السجون الإسرائيلية تحت حكم إداري يتجدد كل ستة شهور حتى نال حريته سنة ١٩٧٧، و كنت لا أكاد أبلغ من العمر ثلاث سنوات. لم أكن أعرف والدي إلا من خلال زيارات السجن التي أذكرها كالخيال. كانت مهمتي الأولى كطفل صغير أن أعرّف والدي بي. كانت بيننا مسافة صغيرة سرعان ما تلاشت. قيل لي أنه في بداية تعارفنا كنت أسرع لإحضار (حفايته) لحظة وصوله إلى البيت آخذاً بذلك مبادرة من أجل لفت انتباهه والحصول على رضاه، وبالفعل كان يسعدني رده.

لقد حرص والدي على أن يهتم بنا أنا وأخي بشكل مميز.

من أجمل الذكريات التي ترسخت في ذاكرتي من أيام طفولتي هي ساعة نومي، حيث كان يهلل لي بصوته الجميل والحنون: يا حمام يا حمام ...وين فادي ينام ...تحت ظل القطيفة ...فوق ريش النعام.

كنت أرى والدي إنساناً رائعاً. كان دائماً أنيق المظهر مبتسم الوجه ويردد العبارات اللطيفة لكل من يلقاه، سواء كان ذلك في السوق أو في العمل أو مع العائلة في المنزل. كنا نسكن مشارف رام الله التحتا خلف منزل جدتي أم حرب، في شارع كان يسمى شارع المسكوبية. كانت لدينا سيارة من نوع فولكسفاجن (صرصور) لونها أبيض وصوتها مميزٌ. كنت أفرح كثيراً حين أسمع صوتها يقترب من المنزل فذاك يعني عودة والدي.

Digitized by Birzeit University Library

كان الوالد يصحبنا معه لزيارة الكثير من المدن والقرى الفلسطينية. كما أذكر رحلاتنا العائلية مع الأعمام وأبنائهم للتنزه بمناطق مختلفة كبلدة عين قينيا ودير اللطرون وغيرها. أيضاً أذكر زياراتنا العديدة إلى الناصرة حيث يقطن أقارب والدتي.

من أعز ذكرياتي مع الوالد كانت عندما أرافقه إلى جامعة بير زيت (الحرم القديم)، حيث كان يُدرّس علم الإقتصاد فيها. وعلى الرغم من صغر سني كنت ألاحظ محبة الناس له ومحبته للناس. كان له حضورٌ مميزٌ أينما ذهب وكان يسعد في خدمة الغير. كان أصدقاؤه من مختلف أنحاء فلسطين يحضرون لنا أطيب المحاصيل من خيرات أراضيهم معبرين بذلك عن محبتهم له. وهو كان يسعد بهم، وكان يحب أرض فلسطين وكل ما تنتجه هذه الأرض.

مبدأ العطاء بلا حدود كان يجري في عروقه. وبالرغم أنني لا أذكر أنه كان يتحدث إليّ مباشرة عن واجب الخدمة الاجتماعية والتضحية من أجل الغير، إلا أنني بلا شك تشربت منه هذه القيم، فقد كان هو أكبر وخير مثال حي لي. لقد بذل حياته في العطاء بشتّى ألوانه آملاً أن ننعم نحن وأولادنا من بعدنا بمستقبل أفضل.

وهكذا أمضينا كعائلة ما يقارب الأربعة أعوام نعيش فيها حياة سعيدة خالية من الاعتقالات الإسرائيلية أو المشاكل الصحية. حتى جاء عام ١٩٨١ وأبلغنا الوالد أننا سوف نسافر معه إلى الولايات المتحدة إذ أنه حصل على بعثة دراسية لنيل درجة الدكتوراة في جامعة بافلو الأمريكية. كان الخبر بالنسبة لي حزيناً ومفرحاً في آن واحد، إذ كنت لا أريد مغادرة رام الله والأصدقاء من جهة، ومن جهة أخرى كنت كأي طفل صغير أتوق للسفر على متن طائرة لأول مرة.

وبالفعل سافرنا إلى الولايات المتحدة في صيف عام ١٩٨١ وكانت بداية جديدة لنا. بالطبع كان علينا أن نتأقلم للعيش في مجتمع جديد ومختلف. مجتمع لا يعرفنا ولا نعرفه. أذكر أنه في الأسابيع الأولى لي في المدرسة الابتدائية وكوني لا أجيد اللغة الإنجليزية كنت أعود إلى المنزل غاضباً كل يوم وأطالب والديّ بالتدخل قائلا: «قولوا للمعلمة أنني فلسطيني ولا أعرف الإنكليزية». وكانوا دائماً يطمئنونني ويؤكدون لي بأنني سأتقن اللغة قريباً. كما وأذكر جيداً كم ساعدنا وجود ابن خال أبي، السيد فريد حرب بالقرب منّا. فقد كنا محظوظين بأننا وجدنا بيتاً للإيجار مقابل بيته. كان العم فريد إنساناً رائعاً؛ وقد وفر لنا هو وزوجته شعوراً

Digitized by Birzeit University Library

جميلاً خفف علينا ثقل الشعور بالغربة.

طبيعة البيوت في بافلو كغيرها من المدن الأمريكية كانت مختلفة عن بيوت رام الله وفلسطين، إذ كان كل منها بيتاً مستقلاً تحيط به مساحة مزروعة بالعشب الأخضر. فكان علينا أن نقص هذا العشب الذي يحيط بمنزلنا بشكل دوري. كنت أستمتع بمرافقة والدي في هذه المهمة. وما زالت رائحة قص العشب الأخضر المميزة عالقة في ذاكرتي، وكلما فاحت تعيد إليّ ذكريات تلك الأيام وتلك اللحظات الثمينة بصحبة الوالد.

اعتدنا على نمط الحياة الجديد بسرعة، وقضينا أياماً جميلة ميزتها الرحلات العديدة مع الأصدقاء والأقارب الذين كانوا يزورونا من مختلف الولايات المتحدة أو من فلسطين. وبالرغم من أن كثيراً من هذه الزيارات كانت للدعم النفسي والوقوف بجانبنا خلال مرض الوالد إلا أنني كطفل كنت أراها فرصاً سعيدةً لتمضية الوقت الجميل معهم. فقد زارنا في بافلو جدتي أم حرب وجدي وجدتي (أم خليل وأبو خليل) وعماتي عبله شامية، ونبيلة سالم وابنها طارق وخالتي لميس أبو نحله وعمي حرب حرب. وأذكر أيضاً أنه جاء لزيارتنا ابن العم ناصيف حرب قبل أن يتوجه إلى جامعته في كنتاكي؛ حيث أصرّ الوالد على ذلك ليقدم له النصائح الضرورية لتسهيل مشواره الدراسي كطالب مغترب في الجامعات الأمريكية. كما وأذكر أنه جاء لزيارتنا ابن العم د.نضال حرب وزوجته مباشرة بعد زواجهما في رام الله؛ ففرحنا واحتفلنا بهم. زارنا الكثير من الأحبة والأصدقاء وذهبنا بصحبتهم لزيارة أماكن مختلفة، أذكر منها شلالات نياغارا ومدينة الملاهي داريان ليك.

ومن المواقف الطريفة التي نتذكرها دائماً وتضحكنا لهذا اليوم أنه أثناء هذه الرحلات وخاصة حين نكون نحن الأربعة وحدنا في السيارة، كنّا أنا وأخي فجر كأطفال أشقياء نلهو باللعب بأي شيء تصله أيدينا وخاصة (زرفيل باب السيارة) حيث كان له النصيب الأكبر. كنّا نعبث به بلا ملل مما يستفز والدي لأنه لم يكن بالإمكان التمييز إن كان الصوت آتياً من داخل السيارة أو من خارجها، فكان يقلق ويتوتر، ولكن كان هو بلطفه وحكمته المعهودتين يصرف انتباهنا إلى أمور أخرى، فنتوقف عن عبثنا لبعض الوقت إلى حين أن نتذكر (الزرفيل) مرة أخرى ونبدأ العبث به من جديد!

أما من المفارقات التي لن أنساها وتضحكني كلما خطرت على بالي كانت في يوم عيد

Digitized by Birzeit University Library

المساخر (هالووين). ففي هذا اليوم يقوم الأطفال بإرتداء أزياء تنكرية تمثل شخصيات من الأفلام أو القصص الخيالية وينطلقون عند غروب الشمس إلى الشوارع، يطرقون الأبواب فيقوم أهل المنازل بتقديم الحلوى لهم. كنا أنا وأخي متشوقين للمشاركة ولكن الوالد رفض في البداية بشدة. فهو لم يكن يقبل أن يتمثل أولاده بشخصيات شريرة أو وحشية حتى ولو كان ذلك لليلة واحدة، وكجزء من

احتفال بسيط، ولكن بعد مفاوضات لا بد من وصفها بالعسيرة نجحنا بإقناعه ففرحنا كثيراً. وفي تلك الليلة انطلقنا مع أصدقائنا وطرقنا أبواب بيوت الحارة وجمعنا الكثير من الحلوى. وعندما عدنا إلى البيت كانت دهشتنا كبيرة جداً. كان أبو الفجر وأم الفجر ينتظروننا على أهبة الاستعداد، وقد أخذا موقفاً موحداً وغير قابل للمفاوضات هذه المرة! إذ يبدو أن الحس الأمني الفلسطيني واليقظة الثورية كانا قد أخذا مقعد القيادة عندهما، فطالبانا بعدم تذوق أيّ قطعة من الحلوى حتى يتأكدا بنفسيهما منها. و فعلاً أخذا منا الأكياس وجلسا حول طاولة الطعام وبدآ بتفحص حبات الحلوى واحدة واحدة للتأكد من أنها سليمة وخالية من المخدرات أو أي شيء من هذا القبيل!

وسرعان ما ابتدأت رحلتنا الأصعب في الحياة، رحلتنا مع مرض الوالد حيث تم تشخيصه بمرض عضال. فخضع لأول عملية جراحية لاستئصال الورم، وقد اعتقدوا حينها أنها «تكللت بالنجاح». لكن من الواضح لي الآن أن والدي كان قد أدرك منذ ذلك الحين أن نهايته قد اقتربت، وأدرك حجم التحدي الذي ستواجهه عائلتنا في المستقبل القريب. فأخذ ينتهز الفرص لتمضية وقت أكبر معنا ومع العائلة، فأثرى حياتنا بأروع وأجمل الذكريات. وقد اصطحبنا كلما سنحت الفرصة لزيارة الأقارب والأحباء الذين يقطنون في مختلف أنحاء الولايات الأمريكية. أذكر جيداً عندما ذهبنا لزيارة خالتي لميس في مدينة آن آربر في ولاية ميتشيغان. قضينا هناك وقتاً رائعاً. وأذكر أنه رافقنا لزيارتها الصديق العزيز والذي أصبح أستاذي في جامعة بير زيت فيما بعد، الدكتور عادل الزاغه. كما وجاء لزيارتنا عندها الفنان الفلسطيني جورج قرمز، فكانت فرحتنا كبيرة للغاية خاصة بمشاركتنا له في غناء أغنيته القريبة من قلوبنا جميعا «أنا اسمي شعب فلسطين». لقد كان للأغاني حصّة كبيرة في حياتنا حيث كان والدي يعلمنا ويغني معنا مختلف الأغاني وخاصة الوطنية والفلكلورية منها، مثل: يا علمي يا علم، بلاد العرب أوطاني، وعالروزنا وغيرها فعلمنا منذ طفولتنا أن نتغنى

Digitized by Birzeit University Library

بالوطن والحريّة.

ومن المحطات المميزة لي أيضاً كانت زيارتنا لبيت عمتي نبيلة وزوجها زكي سالم وعائلتهم في جاكسونفيل. فأبناء عمتي كانوا قريبين منا في السن مما جعل أوقاتنا معهم ممتعة للغاية. أذكر كثيراً من الأحداث الطريفة خلال هذه الزيارة. منها ما كان في صباح يومٍ مشمس، عندما كان الوالد يقرأ الجريدة كعادته، ولكن هذه المرة كان مسترخياً على طوّافة في مسبح منزل عمتي، قررنا أنا وأخي أن نسحب طوافته إلى المياه العميقة بخفة شديدة دون أن يلاحظ. وكان هو لا يجيد السباحة ولا يحب المياه العميقة. وبالفعل نجحنا بمفاجأته، وبالرغم من توتره إلا أنه حافظ على هدوئه واعتقدنا أننا نجونا بفعلتنا، إلا أن والدتنا كانت لنا بالمرصاد.

أما آخر رحلة لنا كعائلة مع الوالد فقد كانت في صيف عام ١٩٨٣. بالرغم من أن المرض قد عاد وانتشر في جسده، وكان يخضع لجلسات العلاج الكيماوي، إلا أنه اصطحبنا في رحلة أخيرة لزيارة عمتي عبلة وزوجها زيادة شامية وعائلتهم في سان فرانسيسكو. قضينا هناك وقتاً جميلاً مع العائلة وزرنا الكثير من المناطق السياحية الجميلة. وتوّجت هذه الزيارة باحتفالنا بعيد زواج والديّ الرابع عشر والأخير.

لقد كان والدي بارعاً في إخفاء ألمه، فعلى الرغم من كل الآلام التي كانت تلازمه خلال مرضه لم أشعر في يوم أنه ضعيف. لقد كان كالجبل الشامخ ولم يسمح للمرض أن ينال من عزيمته وروح عطائه.

وباختصار؛ لقد أثرى والدنا من خلال هذه الرحلات والزيارات حياتنا بأروع وأجمل الذكريات. أحداث بسيطة لكنها حفرت في قلوبنا أجمل المشاعر وأرقها، أدركنا عمق محبته لنا واهتمامه بنا، تلامسنا مع لطفه وحكمته التي زرعت فينا مشاعر الفخر والاعتزاز بأننا أبناء هذا الرجل العظيم.

وفي الربع الأخير من عام ١٩٨٣ أجمع الأطباء في أمريكا أن فرص التحسن في صحة والدي معدومة وأن النهاية قريبة. حينها قرر الوالد وقف دراسته والعودة إلى أرض فلسطين لكي يلتف بعلمها ودفء ترابها. فعدنا إلى رام الله في شهر تشرين الثاني من ذلك العام. حينها أصبحت حركة الوالد أكثر صعوبة وقد نحل جسده. لم يمهله المرض طويلا فقد رحل عنا في

Digitized by Birzeit University Library

يوم الثامن من كانون الثاني عام ١٩٨٤.

أذكر بوضوح هذا اليوم. ففي الليلة الأخيرة قبل رحيله؛ دعاني أنا وأخي العم الدكتور شوقي حرب (الذي كان يشرف على العناية بصحة الوالد في أيامه الأخيرة) وقال لنا اجلسا مع والدكم قليلاً وقولا له ما تشاءان فهو على الأرجح يسمعكما رغم أنه نائم، (في الواقع هو كان في غيبوبة) إذ قد تكون هذه هي المرة الأخيرة التي يسمعكما فيها. أذكر أنني أمسكت بيده ورهبة الموقف تخيم عليّ وقلت له: «لا تقلق يا بابا كل شيء راح يكون منيح، وإحنا مناح، وأنا بحبك كثير». وبالفعل كانت هذه المرة الأخيرة التي حدثناه فيها.

توفي في صباح اليوم التالي. وقع خبر موت الوالد عليّ كالصاعقة، لم أتوقع حدّته. أما جنازته فكانت مهيبة شارك فيها آلاف من الناس من بينهم شخصياتٌ وطنية عامة ومناضلون وأكاديميون، طلاب وموظفون وعمال وفلاحون من كل أطياف الوطن شمالاً وجنوباً. وأذكر مشهد مئات أكاليل الزهور التي ملأت طريق المدخل الطويل المؤدي إلى بيت جدتي أم حرب آنذاك.

أصر رفاق الوالد على إبقائه مسجىً في وسط المنزل وذلك حتى يكرموه كالأبطال؛ فقاموا بتشكيل مجموعات تتناوب على حراسته، كل مجموعة كانت مكونة من ٤ أشخاص يقفون حوله؛ إثنان بالقرب من رأسه ويقابلهما إثنان قرب قدميه. وقفوا بشموخ ثابتين على حراسته حتى موعد الجنازة.

لن أنسى الدقائق العشرة التي وقفت فيها عند رأسه لحراسته. شعور مليء بالحزن والفخر في وقت واحد. كان ملفوفاً بعلم فلسطين كما تمنى ورائحة عطره المفضل(بروت) تفوح في المنزل. أذكر ذلك اليوم وكأنه الأمس. برد كانون الثاني ممزوج مع سماء رام الله الملبد بالغيوم السوداء التي ظلت صامتة حتى ساعة دفن الوالد، وحينها انفجرت الغيوم وسقت بدموعها رام الله وفلسطين، وبكت على فراق رجل كان من أروع أبنائها.

رحل أبو الفجر عنّا ولكنه ترك لنا إرثا أبدياً. ترك لنا السمعة الطيبة وحب الوطن وحب الحرية. زرع فينا مبادئ جميلة لا تعلّمها الكتب ولا تشترى بالمال. فقدان الوالد من حياتي كان خسارة فادحة. الموت اختطفه منا في عمر صغير، ولكن ستبقى روحه حية في قلوبنا. وستبقى مبادئه وقيمه النبيلة كالبوصلة ترشدنا للطريق.

Digitized by Birzeit University Library

كم تمنيت في كثير من المناسبات لو كان ما زال بيننا. تمنيت أن أعرّف شريكة عمري وأطفالي به ليفخر بهم ويستمتع معهم. كم كنت أتمنى أن يكون أول من يحضن ابنتي كارين -حفيدته الأولى - ويهلل لها كما كان يهلل لي. ليته بقي بيننا وتعرف إلى أحفاده. تمنيت أن يعرفوه ويتعلموا منه ويشربوا من نبع حنانه وعطائه. نعم افتقدته كثيراً، لكن عزائي الوحيد أنني أقتدي به وبمبادئه التي أرشدتني وقادتني في كثير من المواقف الصعبة.

كم أفخر وأعتز بمقدار احترام الناس له وفخرهم به. فكثيرا ما تجمعني في أمريكا الصدف الجميلة بأصدقاء لأبي كانوا معه أيام الدراسة أو النضال أو الاعتقال، أو كانوا طلاباً عنده أو زملاء له في جامعة بيرزيت. يسعدون جدا عندما يعرفون أنني ابنه، وكثيراً ما تنهمر دموعهم. أشعر بالفخر والامتنان خاصة عندما يشاركونني بذكرياتهم عنه فيصفونه بأنه كان إنسانا محبوباً جداً، حكيماً، شريفاً، ويحب الجميع.

أرى في أبي مثالاً رائعاً للأب المحب والابن البار والزوج المخلص. ما زال محفوراً في ذاكرتي بوضوح مدى احترامه للمرأة وللأم بشكل عام، ولأمي بشكل خاص. وهنا لا أستطيع إلا أن أذكر أنني لن أنسى أبداً أصالة أمي والدور العظيم الذي قامت به، فقد وهبت حياتها مع أبي ولأبي. خلال أسره ناضلتْ لتحريره وخلال مرضه كانت هي سنده الأكبر، وعندما رحل عنا حملت الشعلة لتكمل المشوار من بعده. وبقيت وفية على عهده، ضحّت كل التضحية لتوفّر مستقبلاً مشرقاً لي ولأخي فجر، وقد نجحت في ذلك رغم كل الصعوبات.

دمتِ لنا يا أم الفجر. وليكن ذكرك مؤبداً يا أبا الفجر.

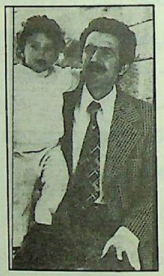

غسان حرب مع ولده فادي والذي ولد أثناء وجود والده في السجن.

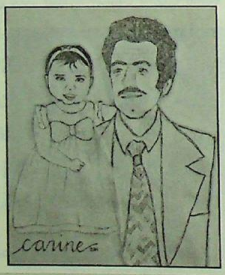

صورة من رسم كارين فادي حرب حاولت فيها أن تحقق امنية والدها في أن يحتضنها جدها غسان.

Digitized by Birzeit University Library

ذكرياتي عن عمي غسان

آمال حرب شامية

ذكريات مليئة بالفخر والاعتزاز رغم قصر المدة التي قضيتُها مع عمي غسان؛ كونه كان معتقلاً في سجون الاحتلال مدافعاً عن حقوق الطبقة العاملة وعن حقوق الفقراء وعن القضية الأم؛ القضية الفلسطينية.

ذكرياتي مع عمي غسان بدأت عندما كنت أذهب مع جدتي أم حرب في زيارة ولديها طلعت وغسان في سجن المسكوبية في القدس. كنت طفلة صغيرة عندما بدأت أتعرف على نضال العائلة؛ كون أن الوالد حرب حرب (أبو نضال) كان أيضاً من المناضلين واعتقل عدة مرات، وأن الجد أبو حرب سجن أيضاً مع أولاده حرب وطلعت وغسان. ولما سئل الجد أبو حرب: «شو رايح تعمل على السجن يا أبو حرب»؟ أجاب: «رايح أغطي أولادي بالليل وأتأكد أنهم بخير وعافية».

كان عمي غسان منذ صغره إنساناً وطنياً محباً لشعبه، وكان ذكياً جداً محباً للمعرفة بشكل رهيب. بالرغم من صغر سنه ورغم اعتقاله تقدم لامتحان التوجيهي، ودرس وطوّر علمه بنفسه، وتعلم اللغة الفرنسية وأتقن اللغة الإنكليزية في سجن الجفر، حيث قضى مع عمي طلعت ٨ سنوات. في هذه الأثناء توفي جدي أبو حرب، ومن المواقف المؤلمة التي لا تُنسى أنه لم يُسمح للأعمام الحضور والمشاركة في جنازة والدهما. لقد كان هذا الموقف مؤلماً ومؤثراً بالنسبة لي شخصياً؛ كونهما لم يتمكنا من وداع والدهما، وهذه الحادثة التي حُفرت في ذاكرتي التي لم ولن أنساها مدى الحياة.

عندما اعتقل عمي غسان في سجون الاحتلال مضت فترة طويلة دون معرفة أين هو وماذا حصل له. بعد شهر ونصف تقريباً أخبرنا الحكم العسكري أنه بالإمكان زيارته في سجن

Digitized by Birzeit University Library

الجلمة. ذهب والدي أبو نضال ووالدتي أم نضال وامرأة العم الغالية أم فجر للزيارة. كان اللقاء مؤثراً جداً حيث أنهم لم يستطيعوا التعرف على عمي غسان؛ كونه بدا منحني الظهر لا يقوى على رفعه، كان نحيلاً شاحباً ولم يكن قادراً على التحدث إلا قليلاً.

أخبرهم عن أساليب التعذيب الأليم، ووضعه في زنزانة صغيرة لم يستطع الوقوف ولا النوم فيها، وعن تعرضه للكلاب المتوحشة تنهشُ جسمه، إضافة إلى أنه كان ينزف دماً دون أي علاج وهو في السجن. عند رجوع العائلة كانت هذه الحادثة مؤلمة جداً للجميع. وبالنسبة لي ستبقى هذه الحادثة في ذاكرتي كما هي في ذاكرة كل المناضلين والمناضلات الذين يتعرضون لشتى أنواع العذاب.

وقد أخبرني والدي حرب حرب (أبو نضال) عن اجتماع لشركة كهرباء القدس عقد في عمان؛ من أجل بحث تزويد شركة الكهرباء في القدس بمولدات لتغطية احتياجات المواطنين من التيار الكهربائي في المنطقة. وكان حاضراً في هذا الاجتماع أعضاء مجلس إدارة شركة الكهرباء برئاسة الأستاذ أنور نسيبة، كما حضر الاجتماع أيضاً السيد محمود عباس (أبو مازن) ممثلاً عن منظمة التحرير الفلسطينية. وقد أبلغ السيد محمود عباس والدي السيد حرب حرب (أبو نضال) أحد أعضاء مجلس إدارة شركة الكهرباء أنه تلقى رسالة من السيد خليل الوزير (أبو جهاد) مستفسراً عن الدراسة التي طلبها أبو جهاد من الخبير الإقتصادي السيد غسان حرب (أبو الفجر) للقيام بها في بحث كامل عن الوضع الإقتصادي في فلسطين.

بعد ذلك أُبلغ أبو مازن أن هذه الدراسة الإقتصادية المفصلة قد تم إرسالها إلى أبو جهاد. وكان هذا جزءاً من النضالات التي قام بها عمي غسان مع المناضلين والمناضلات رفاق دربه من أجل التحرير وقيام الدولة الفلسطينية المستقلة.

عائلة غسان ١٩٦٦ - في احتفال عائلي في بيت خال غسان
«لطفي حرب» تظهر فيه الطفلة آمال

Digitized by Birzeit University Library

غسان حرب

الرجل المعلم والقائد المثالي

محمود الشيخ

زاد احتكاكي بالرفيق غسان حرب إبان تعثر زواجي من زوجتي بسبب عدم وجود إخوتها جميعا في البلاد؛ فقسم منهم طردته إسرائيل وقسم آخر لا يتمكن من دخول الأردن، وهي وحيدة في البلاد مع شقيقتها الأكبر منها سنا، وبحكم علاقتنا القوية وعلاقة إخوتها بالرفيق غسان وبحكم أن معظمهم رفاق تولى الرفيق غسان مسؤولية إخوتها، بعد أن رحب بالفكرة ليتبناها كبنت له في عرسنا، فكان هو أهلها وسندها، وعندما حان وقت «طلوع العروس» أحاطته النساء من كل جانب وهن يرددن الغناء عنه دون أن تعرف أي واحدة منهن أنه صديق ورفيق العائلة، بل هو الأخ والسند، حيث سار مع الجاهة وطابور سيارات العرس إلى بلدة المزرعة الشرقية حتى بيت العريس، وهنا قام بتسليم العروس للعريس، «الرفيقة للرفيق»، شكرته على موقفه النبيل الذى غطى به غياب دور إخوتها القاطنين في بيروت.

هذه كانت أول تجربة ومعرفة لي بالرفيق غسان حرب رحمه الله.

وأما التجربة الثانية فقد كانت عندما اشتد صراع القوى السياسية على نقابات العمال، وعلى رأسها نقابة عمال البناء والمؤسسات العامة في رام الله، بدفع من بعض الدول العربية،كانت تلك الفترة عصيبة على مختلف القوى السياسية في البلاد نتيجة للتباري والتنافس غير المبرر للقوى السياسية التى كان إيمانها بالعمل السري وليس العلني والجماهيري أو المؤسساتي، فاتجه نشاط تلك القوى؛ بعضهم يريد هيأتها الإدارية بلا تعب، بدعوى التمثيل النسبي،

Digitized by Birzeit University Library

وأي تمثيل نسبي هذا! وكيف هنا يختلف مفهومهم عن مفهومنا في مسألة التمثيل النسبي، نحن نفهمه بقياس حجمك في الهيئة العامة للنقابة، وهم يفهمونها بحجمهم في الشارع، وهنا ما دخل الشارع في النقابات وما دخل اتساع حجم تنظيمك في التمثيل النسبي لإدارة النقابات! وفريق آخر يريد الدخول إلى الهيئات الإدارية من الشباك وليس من الباب، واعتبروا في تلك الفترة أنهم تخطوا المرحلة الجنينية التي كانوا يعيشونها، وفي نفس الوقت نواجه ليس فقط صراع الأخوة من الفصائل، بل أيضاً من الإحتلال الإسرائيلي وكذلك الأردن؛ إذ كانت ساحة الداخل مفتوحة للصراع على الجماهير بين أطراف ثلاثة: الإحتلال من جهة، والأردن من جهة ثانية، و(م.ت.ف) من جهة ثالثة، رغم أن أطراف (م.ت.ف) غير موحدة ومتصارعة فقط على المؤسسات التي يقودها الشيوعيون لأسباب عدة يقع على رأسها أنه الأسلوب الأريح لهم؛ كون هذه المؤسسات ليست صفراء ونظيفة، ولسهولة الصراع مع الشيوعين، إذ إن البعض رغم ادعائه بالماركسية أخذ يحرض على الشيوعيين بطرقه الخاصة التي يدعي فيها إيمانه بالدين وعدم إيمان الشيوعيين به. وهنا لا أريد فتح ملف انتهى وذهب مع الريح منذ ما يقرب من الأربعين عاما، إلا أن ما قصدته هو سرد بعض الوقائع التي دعتنا في لجنة الطوارىء الحزبية التي كانت مهمتها التصدي لمحاولات السيطرة على النقابات، وبالذات نقابة رام الله التي كانت مشعلاً وقبلة يؤمها العمال، وشكلت في مواقفها رافداً من روافد الحركة الوطنية بغض النظر من هي من خلال نشاطاتها وفعالياتها ومواقفها السياسية التي كانت تجاهر بها وتدعو الجماهير للتمسك بها.

هنا بعد أن استبعدت فكرة سيطرة الذين دفع بهم العقيد القذافي بملايين الدولارات مقابل الإستيلاء على نقابة رام الله، مع استبعاد فكرة التبرع بهيئات النقابات كما كان يفكر بعض مفتشي العمل المدفوعين من الأردن لإبعاد الشيوعيين عن النقابات، خاصة بعد أن اتخذ اتحاد عام نقابات العمال قراراً يقضي باعتبار (م.ت.ف) ممثلا شرعياً ووحيداً للشعب الفلسطيني، إذ جرت محاولات ثني الإتحاد عن القرار مقابل المال الوفير، لكن من يقود الإتحاد هم الشيوعيون أصحاب العقيدة والمواقف الصلبة، لذا فشلت كل المحاولات ومنذ ذلك التاريخ من أوائل سنة ١٩٧٤ والمحاولات جارية للإستيلاء على هيئات النقابات واتحادهم. فجاءت صراعات ١٩٨٠ مع الفصائل مكملة للصراع مع الإحتلال، وحتى فتح الإحتلال يومها الملفات ووقف ينظر إلى الصراع من بعيد يراقب ليتعرف من خلال ذلك على

Digitized by Birzeit University Library

النشطاء وطبيعة دورهم، وما يحصل إلى أن انتهت المعركة وبدأ بحملة اعتقالات. ولجنة الطوارىء الحزبية أدركت أن قيادة الهيئات الإداريه يلزمها قادة واعون نقابياً وسياسيا، يتمتعون بصلابة فكرية وسياسية، لهذا وقع الإختيار على الرفيق غسان حرب لتنظيم دورة كادر نقابي في صيف عام ١٩٨٠ وفي مقر نقابة عمال البناء والمؤسسات العامة في رام الله والبيرة، ثم بدأت الدورة ومعلوم أن الرفيق غسان حرب محاضر في جامعة بيرزيت لمادة الإقتصاد، درس الإقتصادين الرأسمالي والإشتراكي، فبدأ في تعريف ما هي النقابات العمالية، ولماذا تأسست وما هي مكانتها في المجتمع. هذه المحاضرة شدت انتباه المشاركين في الدورة التى كانت تشمل عمالاً من مدن رام الله وبيت لحم والقدس، إذ أدرك هؤلاء أنهم إن نجحوا في قيادة حركة عمالية تعد بالآلاف سيكون لهم ولنقاباتهم شأن عظيم، ثم محاضرة أخرى كانت حول فائض القيمة، أي من أين تأتي أرباح أصحاب العمل، ثم عن الأساليب المعتمدة من قبل أرباب العمل لخدعة العمال وتمزيق صفوفهم وإبعادهم عن حركتهم العمالية، ثم عن الدور الوطني للنقابات وللحركة العمالية؛ وكيف تصل إلى مكانها في قيادة العمل الوطني، ثم كيف يتمكن النقابيون من التوفيق بين النضال المطلبي للعمال والنضال الوطني، هنا كانت آذان المشاركين في الدورة مرهفة للسمع لمحاضر يتقن استعمال الكلمة في وقتها وموضعها، معتمداً أسلوباً سهلاً جداً بمستوى المشاركين الذين بعد كل محاضرة كانوا يشاركون في نقاش المادة التي طرحها الرفيق غسان حرب، طبعاً كان يستخدم في محاضراته أمثلة حية حتى يتمكن من الإجابة على كل سؤال ومن أجل تبسيطها ودخولها سريعاً إلى العقول في مثال حي من الواقع، وفي نهاية الدورة وزعت شهادات أولا مشاركة في الدورة ثم تقدير لفعالية المشارك في النقاش الذى كان نشيطاً في الدوره وأثناء المحاضرة. كان لنصائحه التى يسديها للمشاركين في الدورة؛ وهم بطبيعة الحال إما أعضاء هيئات إدارية أو مرشحين أن يكونوا أعضاء في انتخابات قادمة أو لقيادة لجان عمالية في مواقعهم التى يعملون فيها، فالنصائح كان لها أثر إيجابي على شخصياتهم ووعيهم وزادت معرفتهم في كيفية إدارة النضال العمالي دون الوصول إلى اصطدام مع تحقيق الطلب، هذه النصائح التى نمّت عن وعي وتجربة عميقة وإدراك لطبيعة الصراع أدت إلى نقلها للمشاركين في الدورة حتى يتسنى لهم قيادة العمل النقابي بوعي ومفهوم وقيادة ناجحة. هنا يتضح لنا أن الرفيق غسان لم يقتصر دوره على القيادة السياسية بل اجتماعياً يشارك في تحمل مسؤوليات، ويغطي دور رفاق منعوا من أن يكونوا إلى جانب بناتهم؛ فكان الرفيق غسان

Digitized by Birzeit University Library

خير سند لهؤلاء ثم يشارك في إنتاج قادة نقابيين أخذ بعضهم دوراً قيادياً في الحركة النقابية، بتواضعه ووعيه وإدراكه للمهمة التي اختير لها.

كان يتميز بدفء علاقته بالرفاق والناس، ولذلك كان قريباً جداً من الكل بغضّ النظر كان رفيقاً أو صديقاً أو شخصاً عاديا.

Digitized by Birzeit University Library

غسان حرب

مناضل ملتزم ومثقف واسع الأفق

محمود شقير

التقيتُ بالرفيق غسان حرب أوّل مرة في العام ١٩٧٢، ولم أكن أعرفه شخصيًّا من قبل.

لكنّ اسمه كان معروفًا لديّ منذ سنوات. وكنت أسمع عن تضحياته وعن تضحيات شقيقيه حرب وطلعت جرّاء المبدأ الذي اعتنقه الأشقاء الثلاثة، وكان غسان أصغرهم سنًّا، كما كان أصغر معتقل في سجن الجفر الصحراوي الذي أمضى فيه ثماني سنوات؛ بسبب انتمائه للحزب الشيوعي وهو ما زال طالبًا في الصفوف الثانوية في المدرسة.

التقيتُه حين عاد إلى الأرض المحتلة بعد أن أنهى دراسته في الاتحاد السوفياتي. وللمفارقة، كان اسمه مقترحًا من قيادة الحزب في عمان للسفر من الاتحاد السوفياتي إلى تشيكوسلوفاكيا لتمثيل الحزب في قيادة اتحاد الطلاب العالمي، ثم تراجعت قيادة الحزب عن اقتراحها، وحبّذت عودة غسان إلى الأرض المحتلة للإسهام في نضال الحزب ضد الاحتلال، واقترحت اسمي للسفر إلى تشيكوسلوفاكيا لتمثيل الحزب في قيادة الاتحاد.

غير أن قيادة فرع الحزب في الضفة الغربية المحتلة، وبعد التشاور معي حول الأمر، قررت ألا توافق على الاقتراح، فلم أسافر، وبقيت أمارس مهامي الحزبية في اللجنة القيادية التي انضم إليها غسان فور عودته إلى البلاد، وبعد أشهر معدودات أصبح عضوًا في مكتب قيادة الضفة الغربية.

ومنذ الاجتماع الأول الذي حضره غسان وشارك فيه أدركت بعضًا من سماته ومزاياه. كان يتسم بتواضع شديد، يلقي باقتراحاته وآرائه بهدوء ومن دون ادعاء أو مبالغة، وكان يتسم

Digitized by Birzeit University Library

بقدرة على الإصغاء وتقبُّل الملاحظات التي تتعارض مع اجتهاداته تجاه مسألة ما أو قضية ما من قضايا الناس أو من قضايا النضال.

كانت لغسان ابتسامة لا تفارق وجهه، وهي تشكّل مع أنفه البارز بعض الشيء سمة خاصة به لا يمكن نسيانها، وكان يميل في بعض الأحيان إلى المزاح الظريف الذي لا يجرح أحدًا ولا يؤذي أحدًا، وفي ذلك تعبير عن رهافة حسّه واحترامه الفائق للآخرين.

كانت اجتماعات قيادة الضفة الغربية تُعقد مرة كل ثلاثة أشهر أو أربعة؛ وكنا نجتمع إما في بيت الرفيق عربي عواد أو في بيت الرفيق خلدون عبد الحق أو في بيت الرفيق خليل حجازي في نابلس، وكانت تلك هي الفرصة الوحيدة للقاء الرفيق غسان. لكنني ذهبت إلى بيته في رام الله مرة واحدة لحضور اجتماع له علاقة بلجنة خاصة بمهمة التثقيف داخل الحزب، وكان معنا في الاجتماع الذي قاده غسان عدد آخر من الرفاق.

بعد ذلك؛ التقينا أنا وغسان وعدد كبير من الرفاق في سجن رام الله في نيسان ١٩٧٤ حين شنت سلطات الاحتلال الإسرائيلي حملة واسعة ضد قيادة وكوادر وأعضاء الجبهة الوطنية الفلسطينية، وكانت غالبية المعتقلين ينتمون إلى الحزب الشيوعي ويشكلون العمود الفقري لتنظيم الجبهة. وكان معنا رفاق ممن قضوا في سجن الجفر الصحراوي ثماني سنوات بتهمة الشيوعية، وهم: غسان حرب، عبد الله البياع، وخضر العالم. كان معنا أيضًا رفاق في مقتبل العمر لم يمضِ على انتمائهم للحزب وللجبهة سوى أشهر معدودات. وكنّا التقينا في زنازين سجن رام الله، ثم في غرفة رقم ١ التي كان فيها ما يزيد عن ستين معتقلًا من مناضلي الجبهة والحزب ومن مناضلي القوى الوطنية الفلسطينية الأخرى، فتح والشعبية والديمقراطية وغيرها.

أمضيتُ في سجن رام الله معتقلًا إداريًّا مدة ثلاثة أشهر، وأمضى غسان مدة أقل من ذلك، لأنه استُدعيَ بعدها إلى التحقيق في سجون أخرى، وكنت نُقلتُ بعد سجن رام الله إلى سجن الجلمة وإلى سجن بيت ليد، ومن ثم أبعدتُ مع رفاق آخرين من هذا السجن إلى لبنان، فيما بقي غسان بعد جولة تعذيب شديدة ضدّه وضدّ عدد من الرفاق الآخرين، ليقضي مدّة ٣٣ شهرًا معتقلًا إداريًّا في سجون المحتلين، وليخرج بعد ذلك إلى البيت، وإلى ساحات النضال في الوطن من جديد.

في سجن رام الله، تأكّدتْ لي مزايا غسان، كان هادئًا طوال الوقت، متواضعًا معنيًّا بكل الذين معه من المعتقلين، وكان له إسهام بارز في عقد ندوات ثقافية وسياسية ينضوي فيها

Digitized by Birzeit University Library

معظم المعتقلين من مختلف التنظيمات السياسية.

وكان غسان لا يضيع وقته سدى. كان يستثمر الوقت في القراءة، وكان هو والرفيق تيسير العاروري من أكثر الرفاق الذين قرأوا قصصًا وروايات وكتبًا أخرى طوال فترة التوقيف في سجن رام الله.

وحين نُقلتُ من سجن رام الله إلى سجن الجلمة، أدخلني السجّانون إلى زنزانة في السجن وطلبوا مني التزام الصمت، وعدم التحدّث مع أيٍّ من الأشخاص في الزنازين الأخرى، لكنّني عرفت عبر الهمس من تحت باب الزنزانة أن جاري في الزنزانة المجاورة لزنزانتي هو الرفيق جمال فريتخ الذي أخبرني أن ثمّة أربعة رفاق آخرين في زنازين السجن هم: سليمان النجاب، خلدون عبد الحق، خليل حجازي، ومحمد أبو غربية. وكانت المفاجأة حين أخبرني أن الرفيق غسان حرب كان في الزنزانة التي حللت فيها، وأنهم اقتادوه إلى سجن آخر في صباح اليوم الذي وصلت فيه إلى سجن الجلمة.

هكذا تقاطعت طرقنا أنا والرفيق غسان حرب، ولم تكن لدينا فسحة من زمن لكي نلتقي على نحو أكثر امتدادًا وأكثر رحابة. كان غسان من الأشخاص الذين تروق المؤانسة معهم والاغتراف من بحر ثقافتهم وعمق اطلاعهم ومعرفتهم.

وحين كان غسان حرًّا طليقًا في رام الله بعد ما يقارب ثلاث سنوات من الاعتقال الإداري في سجون المحتلين، كنت منفيًّا في بيروت ومن ثم في عمان. وكانت صحيفة «الطليعة» تصلنا بين الحين والآخر، وكنت أتابع ما يكتبه غسان على صفحاتها من مقالات وتقارير.

وما زلت أذكر؛ حين جاءنا خبر رحيله الفاجع؛ أننا تألمنا أنا ورفاق آخرون لفراق رفيق مناضل شعَّ نجمه في سماء فلسطين لفترة خاطفة ثم غاب قبل الأوان، وعلى الرغم من هذا الغياب، فإنني على ثقة بأن فكر غسان ونبله وتواضعه واتساع ثقافته وسيرة نضاله لن تغيب من أذهان الجيل الذي تربى على يديه في صفوف الحزب وعلى مقاعد الدرس في جامعة بير زيت، وستكون سيرته هذه التي نبسطها في هذا الكتاب ملهمة للأجيال القادمة بكل تأكيد.

وحين كنت أتأمّل سيرة غسان وأنا أكتب هذه المقالة، وقعتْ لي مفارقة لم أكن منتبهًا لها من قبل، ذلك أنّني رحت أستذكر أعضاء قيادة الضفة الغربية التي كنّا أنا وغسان من أعضائها منذ العام ١٩٧٢ وهم: عربي عواد؛ سليمان النجاب، خلدون عبد الحق (هؤلاء الرفاق الثلاثة كانوا أعضاء في اللجنة المركزية للحزب، علاوة على عضويتهم في اللجنة القيادية التي كانت

Digitized by Birzeit University Library

تابعة للجنة المركزية للحزب الشيوعي الأردني، وذلك قبل إعادة تأسيس الحزب الشيوعي الفلسطيني)، خليل حجازي، غسان حرب، جريس القواس، ضمين حسين عودة، إبراهيم يوسف، عادل البرغوثي، محمد أبو غربية، ومحمود شقير.

أما المفارقة؛ فهي أن كل أعضاء القيادة المذكورين أعلاه قد طواهم الموت ما عَداي؛ الأمر الذي أشعرني بالقلق، وجعلني أستحضر قول الشاعر:

ذهبَ الذين أحبُّهم وبقيتُ مثلَ السيفِ فردا

ولربما كانت في ذلك حكمة ما، فقد كتبتُ عن الرفيق سليمان النجاب بعد رحيله نصًّا مطوَّلًا نشرته في كتابي «مرايا الغياب»، وأعددنا كتابًا عنه، أنا والرفيق الدكتور وليد مصطفى. وها أنذا أكتب عن الرفيق غسان حرب، ولربما استطعت أن أكتب عن الرفاق الآخرين الذين ارتبطتُ معهم بعلاقات إنسانية ونضالية لا تُنسى. وبطبيعة الحال، فإنني ما زلت أزهو برفاق كثيرين في الحزب وبأصدقاء أتمنى لهم طول العمر ودوام العطاء. وكنت كتبت مقالات عن رفاق آخرين من قادة الحزب: بشير البرغوثي الذي كتبت عنه في كتابي «مرايا الغياب»، راجح السلفيتي، د. يعقوب زيادين، عبد العزيز العطي، زكي الطوال. وكنت أعددت كتابًا عن الرفيق فائق وراد، صدر قبل أشهر معدودات.

أخيرًا، وأنا أستعيد بعضًا من سيرة الرفيق غسان حرب أقول بمرارة؛ وفي الوقت نفسه باعتزاز: ما زالت حاضرةً في ذهني منذ سنوات طويلة وحتى الآن صورةُ غسان التي نقلها أحد الرفاق القادمين يومها من رام الله إلى عمان، حين قال لي إن غسان؛ قبل الدخول في غيبوبة، قضى آخر لحظاته مع المرض الخبيث وهو ينشد للحياة ولحبّ الحياة.

الرحمة وبقاء الذكرى والخلود للرفيق المناضل المثقف الإنسان الأكاديمي المجد المثابر غسان حرب/ أبي فجر، والتحية والتقدير لزوجته الوفيّة عفاف أبو نحلة حرب التي تحملت معه مشاقّ الرحلة الصعبة وتبعاتها، ولنجليه فجر وفادي العزيزين، ولعائلتيّ حرب وأبو نحلة اللتين أنجبتا مناضلين مخلصين ومناضلات.

Digitized by Birzeit University Library

رام الله ١٩٧٩/ ١٩٨٠- من حفلات راجح السلفيتي يظهر فيها ثائر البرغوثي وفادي حرب

Digitized by Birzeit University Library

قصيدة في وداع غسان

الشاعر الشعبي راجح السلفيتي

غنّيت للعرسان ونحن صغار وغنيت لما وعيت للثوار
وعند الكهولة والعصب مهزوز جيت أرثي صفوة الأحرار
غنّيت أول عمري للعرسان ولما كبرت غنّيت للطوفان
ما كنت راغب في هالعمر يطول حتى أقف وارثيك يا غسان
ضيفك لفى يا تربة الأوطان من تعرفيه أبو الفجر غسان
كنتي على لسانو نشيد الروح كوني على جسمه طبق ريحان
يا أرض إلنا وإلك فيه شركة ولا بد من تقسيم هالتركة
إلك الجسم ساكن بلا حركة وإلنا العطاء الوافر وحر البيان
أول شبابه خاض حلبات الصراع يهتف أنا مظلوم حقّي ضاع
وصلب عوده في الوغى وسل اليراع وشن الحرب ع الجهل والطغيان
وعرف فتيّ العود درب الجفر وسما بثباته عالغيوم الصفر
ذنبه العظيم انو إشترك في قبر حِلف العهر والجور والبهتان
جرّب نصيبه معك حكم الاحتلال وكنتوا سَوَا نخبة أصيلة من الرجال
وطلعتوا منها قدوة للأجيال مثل الرواسي الشم تتحدّوا الزمان
في الجامعة كُنت المعلم للصفوف وفي الطليعة كنت قنديل الحروف
تباً لها شو قاسية يد الحتوف جلمود قُدّت من حجر صوان

Digitized by Birzeit University Library

أجريت من شهد الفكر شلال
منو استقوا الطلاب والعمال

أخلد رضي النفس هادي البال
لن تصل آثارك يد النسيان

يا رفيق دربي لو أريد أرثيك
لا فِكر يسعف ولا كَلَمْ يوفيك

آه لو البكا بجدي نفع لابكيك
تا يذوب رمشي وتورم الأجفان

فلتمضِ واثقاً كما عاهدناك
نعطي كما أعطيت نتقفى خطاك

مش بس احنا وحزبنا خسرناك
خسر الوطن والحب والانسان

ومن الخلود من عالم الأرواح
رافق خطانا واهدنا في كل ساح

حتى ترى بعيوننا أجمل صباح
يوم انعتاق الأرض والانسان

بتجول في أركان الذهن كلمات
وقفت على أعتاب اللفظ مرّات

أي الكلام يصلح عزاء للأمهات
اهدا ولا تتعِبِشْ حالك يا لسان

أمّ البطل غصّي بكاسات الفراق
وتجرعيهن حنظليات المذاق

بغياب نسر عانق الآفاق
لا لوم ان سال الجسم غُدران

راعي فراخه واشعريهم بالأمان

أم الفجر لو منها يهتز الجنان
من حقها تسح الدمع ألوان

بنبرتها ياما روعت سجان
بين القفل والسلك والقضبان

يا عفاف غسان بنقولك عفا
وبنعاهدك عهد الرجولة والوفا

شعلة ذكاها أبو الفجر ما تنطفا
وتبقى بوهجها تهتدي الركبان

وقفة رفاقه خففت وقع البلاء
ووداع شعبه الوفي كان أصدق عزاء

فيك ثقتنا وانت عنوان الوفاء
تبني الفجر حتى يباهي السائلين

هذي عفاف أمي وأبوي غسان

مجلة الكاتب عدد ٤٨ السنة (٥) نيسان ١٩٨٤

Digitized by Birzeit University Library

رسالة

من الشاعر خليل توما

ردّ الرفيق المرحوم الشاعر خليل توما بتاريخ ٢٠١٨/١٠/٢٤ على رسالة كانت أرسلتها له بتاريخ ٢٠١٨/١٠/١٨

الرفيقة عفاف أبو نحلة حرب طالبة منه الكتابة عن غسان بما يلي:

تحياتي أم الفجر،

أولا أرجو المعذرة حيث إنني لم ألاحظ رسالتك هذه إلا الآن.. آسف جداً جداً وأرجو ألا تزعلي علي. يسرني أن أساعد بأي شكل. لم أعمل مع المرحوم أبو الفجر مباشرة، ربما كان يعرف عني ولكن اتصالي لم يكن معه مباشرة...المرة الأولى التي قابلته فيها وهي مناسبة لا يمكن أن أنساها ما حييت، هي عندما زارني مساء بعد خروجي من السجن وقدم لي وردة حمراء ولم أكن أعرف اسمه.

في ذلك الوقت (هل كنتِ معه؟ ربما، أتذكر أنك كنت معه إذا لم أكن مخطئاً)، لم يدخل إلى البيت كما أذكر، بل انطلق لمقابلة رفيق آخر هو جاري عيسى عمرو، حيث قدم له وردة حمراء أيضاً...

في كل سنوات نشاطي الحزبي لم ألقَ تكريماً كهذا التكريم الذي بادر إليه هذه الرفيق الإنسان، على بساطته وبكل ما يحمل من رمزية...

في وقت ربما تجنب بعض الرفاق الاتصال بي في ذلك الوقت لإعتبارات أمنية.

شكرًا لك يا أم الفجر على ثقتك واتصالك..أنا جاهز بما أستطيع...مودتي...

Digitized by Birzeit University Library

حكاية

من ذكرياتي مع عمّي غسان

حنان طلعت حرب

كعادة الآنتي عفاف، وفي يوم ربيعي مشمس ... كل أثاث المنزل يخرج ليتشمس، الفرشات والمخدات والملاحف والكراسي تقريباً كل شيء يمكن تحريكه، وبدون أي نقاش يخرج ليتم تشميسه في ساحة المنزل. وفي هذا اليوم كان أبو الفجر يجلس في الساحة مرتدياً الروب ذا الألوان المتدرجة من الأبيض الناصع إلى الأسود وما بينهما من رمادي ...وعلى رأسه منشفة (بشكير) تقيه من أشعة الشمس وهو يرتدي نظارته البنية العدسات، وبين يديه كتاب سميك ثقيل.

وحين كان عمري ثماني سنوات، وأنا ألعب وأبحث عن شيء ما يشغلني حول الدار، وإذا بي أسمع عمّي غسان يقول لي «يا حنّونة أنا سامع حنفية بتنقط ماء»، وبالطبع بين دارنا من الخلف ودار عمي ساحة مساحتها بضعة أمتار يا ما جمعت العائلة بجلسات لطيفة لن انساها ابداً، وعلى السريع أدخل بيتنا وأتأكد أن حنفية المغسلة في الحمام الذي يطل على الساحة مغلقة جيداً. أقول: «لا مسكرة منيح» وأخرج ثانية للعب. بضع دقائق وعمي يقول لي: «يا حنّونة سامع الحنفية بتنقط». عالسريع أدخل لأتأكد من الحنفية لأجدها مغلقة تماماً، ولكن هذه المرة أتأكد من كل حنفيات الدار: البانيو، المطبخ والحنفية الخارجية التي كنا نستعملها للشطف والسقي... أقول: «لآ جميعها مغلقة تماماً».

تمر بضع دقائق أخرى... عمي: «يا حنّونة سامع الحنفية بتنقط» ...! سارعت بخطواتي ولكن هذه المرة إلى أمي داخل البيت وقلت لها : «شو مالو عمي بظل كل شوية يقل لي الحنفية بتنقط، وأنا اتأكدت خمسين مرة ...فش حنفية بتنقّط».

Digitized by Birzeit University Library

لمحتُ ابتسامة على وجه أمي وقالت: «يا حنّونة معناها العمو بدو كاسة ميّه». خجلت من غبائي وعدم إدراكي لطلبه من أول مرة.

سارعت للمطبخ وصببت ماء بارداً في كاسة زجاج كبيرة ... وضعتها على صحن قهوة صغير ووضعتهما على صينية تقديم «واجب الضيافة» وخرجت بها مبسوطة لعمي ... عمّو غسان شاف الكاسة، ورأيته يشرب ولم أرَ بحياتي استمتاعاً بشرب الماء كما شربه عمي...

وأنا استمتعت بأحلى عبطة وقبلة وثناء ومقولة ما زالت ترن في رأسي لهذا اليوم: «أحلى شعور لما تسقي عطشان كاسة مي، وأحلى وأحلى لما تكون من حنّونة» ...

حبيبي عمّي غسان.

Digitized by Birzeit University Library

من كتاب أولئك أخواني

فيليتسيا لانغر، ١٩٧٦ (ص. ٦٠-٦١)

لم تكن هيئة غسان حرب عندما أحضروه أحسن من سابقيه، حيث بدا نحيلاً ضامراً ومنهك القوى. وقال إنهم نقلوه إلى السجن العسكري منذ ١١-٦-٧٤، وهناك خلعوا عنه ملابسه وأدخلوا رأسه في كيس ثم طرحوه على أرض مفروشة بالحجارة المدببة، وراحوا يجرونه فوقها حتى تفتق جلده فتدفقت منه الدماء. وقد رأيت آثار الجرح الأخضر على ساعده الأيمن كما أفاد أيضاً أن المحققين كانوا يقفون على صدره وبطنه ويضغطون بكل ثقلهم، كما ضربه أحدهم بجسم صلب على رأسه ففقد وعيه، بينما كان رأسه في الكيس لا يرى ولا يبصر.

... كان عليّ أن التقي خارج أسوار السجن بالأهل، كي أطمئنهم على أبنائهم، وقد حاولت جاهدة أن أخفي ما جاش في صدري من انفعالات وأن أضفي على وجهي مسحة من الهدوء، ولكنني فشلت وأخبرتهم بالحقيقة.. فهل سيغفرون لي ضعفي الإنساني؟

ليلى النجاب وعفاف حرب تناضلان لإطلاق سراح زوجيهما، وقد أسهمتا في تجنيد الرأي العام وتنظيم المظاهرات الاحتجاجية. نشاط عفاف أثار الحميّة في نفوس بقية النساء، لأنها لم تتوانَ عن العمل الدؤوب حتى في أواخر أيام الحمل، والتي داهمتها في حقبة عصيبة وحرجة من حياتها. ليلى النجاب ظهرت مرات عديدة أمام جمهور من الإسرائيليين، وخاطبت فيهم الحجى والضمائر.. وأثرت فيهم بحكم صراحتها وقوة بيانها.

كما اشتركت بقية نساء المعتقلين في النضال لإطلاق سراح ذويهم الراسفين في أغلال الاحتلال: زوجة عبدالله البياع، وأم خليل توما الشاعر المعروف، وأم يعقوب فراح، وزوجات محمد وحسين أبو غربية ... وغيرهن ممن لا يتسع المجال هنا لذكرهن، وقد تركن جميعاً أبلغ الأثر في نفوس كل من حادثهن وسمع أقوالهن.

Digitized by Birzeit University Library

تجديد الاعتقال الإداري ص ١٠٥ من الكتاب

الأيام تمر تباعاً والسوء يتوالى... السلطات تمدد إقامة المعتقلين الإداريين في السجون ستة أشهر أخرى، بعد أن مضى على وجودهم فيها تسعة شهور بدون تهمة أو محاكمة.

بين الموقوفين: إبراهيم الجولاني، طاهر عرفة، ناجي أبو سرية، محمود شقير، أسعد سنقرط، عامر شرباتي، خليل توما، بسمان أبو رميلة، ماجد سدر، يحيى أبو شريف، حسني حداد، محمد سعادة، عطاالله رشماوي، عبد المجيد حمدان، عدنان داغر، غسان حرب، عادل البرغوثي، حسين فرح الطويل، فرحان أبو ليل، خلدون عبد الحق، لبيب فخر الدين، جمال فريتخ، عبد الباسط الخياط، عبدالله السرياني، سليمان النجاب، خضر العالم، بهجت الشعيبي، ميسرة الشعيبي، محمود أبو خرمة، عبدالله البياع، أحمد سمارة وآخرون.

وقد دعت عصبة حقوق الإنسان إلى تنظيم تظاهرة احتجاجية أمام مبنى الكنيست، فاستجابت جماهير غفيرة من العرب واليهود على حدٍّ سواء ولا سيما الطلاب والشبيبة، وقد جاءوا تحدوهم الرغبة في شجب كل أشكال الظلم والاضطهاد ونصرة الحق الهضيم. كما اشترك في المظاهرة عدد لا يستهان به من أهالي المعتقلين بينهم أمهات وأخوات وزوجات جثن وعلى رؤوسهن النقب البيضاء فأثرن حمية المتظاهرين وتعاطفهم. وقد ظهرت على اليافطات التي رفعها المتظاهرون «فليوضع حد للمحاكم الصورية» و «فليفرج عن القادة الفلسطينيين رسل الحرية والسلام» و «فليلغَ التوقيف الإداري، تركة الانتداب الإنكليزي»... كما انضم فيما بعد عضو الكنيست توفيق زياد وأعلن شجبه التام للاعتقالات الإدارية.

Le lundi 13 janvier dernier, une cinquantaine de femmes arrivaient en cortege au siège de la Croix-Rouge à Jérusalem. C'étaient les épouses de quelques-uns des emprisonnés. Parmi elles, il y avait la mère de Ghassan Harb, dont nous parlons dans ces pages. Il y avait la femme de Abdellah Al Rasmawi, secrétaire du syndicat du bâtiment, de Adnan Daguer, du même syndicat ; de Souleiman El Nadjab, dirigeant du parti communiste de Cisjordanie ; et de dizaines d'autres militants du Front national palestinien. Ces épouses, ces mères qui vivent dans des conditions difficiles, venaient demander une intervention de la Croix-Rouge afin qu'elles aient le droit de voir leur mari ou leur fils une fois par semaine, et non plus seulement une fois par mois. Elles voulaient attirer l'attention de l'opinion sur l'arbitraire dont elles sont victimes, et sur les conditions inhumaines de détention que connaissent les emprisonnés politiques de Cisjordanie.

DES FEMMES A JÉRUSALEM

Digitized by Birzeit University Library

غسان حرب :ذكرى ساحرة لا تغيب

بسام الصالحي: الامين العام لحزب الشعب الفلسطيني
عضو اللجنة التنفيذية ل م ت ف

شريط طويل من الذكريات ومن التاريخ يعود مع الحديث عن الرفيق العزيز غسان حرب.

الجنازة الغفيرة التي شهدتها مدينة رام الله كتظاهرة وطنية واسعة رغم أنف الاحتلال، والمشاركة المتنوعة في تلك الجنازة من رفاق ورفيقات دربه، ومن أبناء الحركة الوطنية، ومن زملائه من العاملين في جامعة بيرزيت و من طلبته من مختلف المشارب السياسية والفكرية، ومن أبناء رام الله والبيرة، ومن كل من تعرف إلى أبو الفجر أو سمع عن سيرته ودوره النضالي منذ نعومة أظفاره، وحيث تقدم تلك الجنازة قادة الحزب والحركة الوطنية وأفراد عائلة الفقيد وهم رفاق دربه الوطني ايضا.

ليلة الفجيعة في وفاته، والتي كانت امتداداً لليالي وأيام من الألم الشديد والذي لا يحتمل، خاصة بعد أن بات أثر مسكنات المورفين والأدوية الأخرى غير نافع في مواجهة انتشار وعنف وهمجية مرض السرطان اللئيم، حتى أننا في تلك الليالي الأخيرة، كنا نشعر بالعجز والضعف ليس فقط عن تقديم أية مساعدة لغسان، ولكن أيضاً لرفيقة دربه التي كانت تهتز مع كل أنّة أو صرخة بما يفوق عن الوصف من الألم والانفعال، أو مع أفراد أسرته، وحينها فقط بدأ يتسلل لنا معنى ما كنا نسمع به أحيانا من أن الرحيل يصبح أكثر رحمة من معاناة الألم الهائل للمرض.

وفي تلك الليلة سهرنا حراساً على جثمان رفيقنا الغالي بكل مراسم الصمت والرهبة والحزن والدمع الصامت أو الظاهر، نحرس جثمان رفيق عزيز، ونغوص في تاريخ ذكرياتنا الشخصية معه، وفي تاريخ ممتد للحركة الوطنية والشيوعية في فلسطين.

Digitized by Birzeit University Library

كنا طلاباً في جامعة بيرزيت، عندما فقدنا راحلنا الكبير، وكنا من ذاك الجيل الذي انضم إلى الحزب إبان إعادة تنظيمه بعد ضربة الاحتلال الموجعة للحزب والجبهة الوطنية عام ١٩٧٤، وحيث كان غسان من أوائل المعتقلين الذين تعرضوا للتعذيب الشديد، وكانت أسماء كل هؤلاء محفوظة غيبا لدينا ولدى كل الرفاق، إن سيرة حياتهم وتجاربهم كانت مادة ثقافية فاعلة في مواجهة الاحتلال، ففي تلك المحطة كان الصمود في أقبية التعذيب ومواجهة الاحتلال هو المظهر الأبرز لتجربة الشيوعيين الكفاحية، وقد كتبت عن ذلك المحامية الرائعة فيلتسيا لانغر في أكثر من كتاب، واصفة بأدق التفاصيل صور الصمود البطولي الذي واجه به الرفاق أساليب التعذيب المتنوعة، كما انتشر ذلك في تقرير شهير لصحيفة الصنداي تايمز، والذي أربك الاحتلال على مستوى الرأي العام الدولي، ويجب القول هنا إن تجربة صمود الشيوعيين هذه ألهمت الحركة الوطنية بأسرها فبات هذا الموقف من مواجهة الاحتلال هو المعيار المكمل للفعل الكفاحي قبل الاعتقال.

وبين مقالات أبو الفجر في صحيفة الطليعة حيث كان المحرر الإقتصادي فيها، وبين دوره الأكاديمي في جامعة بيرزيت كانت تجربتنا الشخصية معه.

كانت مقالات أبو الفجر مادة ثقافية هامة لنا، أولاً من أجل المعرفة وتعميق الوعي في مواجهة الاحتلال وسياساته، وفهم آليات حركته في الهيمنة الإقتصادية الكاملة على الإقتصاد الفلسطيني البسيط، وثانياً من أجل مساجلاتنا الفكرية والنظرية مع بقية الأطر الطلابية، وحيث كان السجال المعرفي السياسي والفكري عنصراً هاماً في المنافسة السياسية والتنظيمية للحركة الطلابية، وطبعاً غني عن القول هنا أن كل العاملين في صحيفة الطليعة كانوا عرضة للاعتقال في أي وقت كما هو الأمر أيضاً بالنسبة لموزعيها حيث كانت محظورة خارج القدس.

كانت أيام الأربعاء فرصة للقاء كل الرفاق المحررين وأشغالهم قليلاً قبل أو بعد أن يكونوا قد أتموا تحرير صفحاتهم، في أحاديث متنوعة، كانت جاذبية غسان حرب ولطف حديثه كما هو سلوكه وأدبه، هي الميزة الساحرة عند أبو الفجر، وخلفها كان هناك كنز معرفي كبير، وأيضاً صلابة كفاحية هائلة، كيف لا وقد كان أصغر معتقلي سجن الجفر الصحراوي الذي حوله الرفاق إلى مدرسة علمية وفكرية وحتى لغوية متميزة، وإلى تجربة غالبت وغلبت القهر والتحطيم الذي أريد لمعتقلي هذا السجن الرهيب.

في بيرزيت أثبت غسان أستاذ الإقتصاد (الشيوعي) خريج الاتحاد السوفييتي مواهبه الأكاديمية والعلمية إلى جانب أقرانه من خريجي الولايات المتحدة وأوروبا والخلفية

Digitized by Birzeit University Library

الإقتصادية والأكاديمية التي يحملها كل منهم، وكم كان ممتعاً لجيل من طلبة الجامعة أن درسوا على أيدي هذا التنوع، فاستفادوا من أفضل مما لدى الجميع خاصة في ظل الجدل الهائل بين المدارس والنظريات الإقتصادية في العالم، وكما هو خبث الطلبة فقد كانوا يستمتعون في إثارة موضوع ما خلافي لإشعال ردود متباينة من أساتذتهم عليه.

لقد شهدت جامعة بيرزيت في تلك الايام منافسة خفية وأحيانا واضحة بين العاملين فيها من خريجي الدول الاشتراكية وخاصة الاتحاد السوفييتي وبين خريجي الولايات المتحدة وأوروبا، ولكن مما لاشك فيه ان البصمة التي تركها رفاقنا الراحلون من العاملين في جامعة بيرزيت، غسان حرب وتيسير العاروري، ووصفي الكفري وعودة ناصر وغيرهم، هي بصمة لا تنسى كما هي بالنسبة لأولئك الرفاق الآخرين الذي أغنوا مجتمع الجامعة علمياً ونقابياً وممن لا زالوا يؤدون دورهم في الجامعة وخارجها.

إن الفكر النقابي والتعاوني الذي تميزت به جامعة بيرزيت مدين بشكل كبير للرفيقين غسان حرب وتيسير العاروري ورفاقهما من العاملين والعاملات وكذلك إلى المجموعة الرائعة من العاملين في الجامعة من مختلف الاتجاهات، وحيث عملوا سوية لتطوير هذا الفكر وتفانوا في خدمته رغم تبايناتهم السياسية. وقد كان لهذا الفكر مأثرة المضي سريعاً وبثبات في تحقيق شعار (ديموقراطية التعليم) وخاصة في الجانب المتعلق بتوفير مقومات دراسة الطلبة في الجامعة على أساس كفاءتهم العلمية وليس على أساس قدرتهم المالية، وتسنى وفقاً لهذا المفهوم تخريج الاف الطلبة الذين استفادوا من هذا الأمر ومن مكتسبات أخرى تحققت أثناء دراستهم من قبل مجالس الطلبة بالتعاون مع إدارة الجامعة.

أذكر بشكل خاص نجاحنا في ظل التنسيق الفعّال مع الرفيق أبو فجر الذي كان عضواً في لجنة القبول في حينه، بإقناع إدارة الجامعة بقبول خمسة طلبة استثنائياً للالتحاق بالجامعة دون شهادة التوجيهي، شريطة أن تحتسب موادهم بعد الحصول على الشهادة في السنة اللاحقة. كان قراراً صعباً ومبتكراً وجريئاً من إدارة الجامعة، ذلك أن هؤلاء الطلبة تم اعتقالهم من قبل الاحتلال كيديا ليومين فقط أثناء تقديمهم امتحانات التوجيهي وبهدف حرمانهم من النجاح. وقد برر هؤلاء الطلبة بنجاحهم في العام اللاحق صحة هذا القبول غير العادي.

غسان حرب (أبو الفجر) سحابة ساحرة يهطل مطرها الدافء مع كل ذكرى خاصة به او برفاقه، شركاء الدرب والذين عشنا معهم أجمل الايام .

Digitized by Birzeit University Library

٢

المقالات

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

في وداع غسان

بشير البرغوثي

كان غسان وحياته مسيرة وفاء. وكان وداعه الأخير رداً للوفاء بالوفاء. ولست أشك في أن جميع الذين شاركوا في وداعه من الطلاب والعمال والمثقفين كانوا يستذكرون جوانب من تلك المسيرة، ويرون في كل منها شيئاً منهم، أو يرون في أنفسهم شيئاً منها.

كان طالباً مبرزاً ومناضلاً مبرزاً في آن. دخل السجن في السادسة عشرة وقضى فيه ثماني سنوات، وتعلّم وعلّم. وخرج منه وفياً لأفكاره وتابع تحصيله العلمي وصار أستاذاً، وأهم من ذلك، نموذجاً لنمط متقدم؛ لم يكن أستاذاً حالماً أو باحثاً في صومعة عاجية، بل أستاذاً مناضلاً يربط بين الفكر والفعل، بين المعرفة والناس، الناس الكادحين. أبحاثه عن الطبقة العاملة في بلادنا، عن حركتها النقابية؛ كانت حصيلة تفاعل حي بينه وبين العمال، أعطاهم وأعطوه، وقدّم بعد ذلك حصيلة هذا التفاعل محاضرات لهم في دورات نقابية.

هذا مجرد مثال. وهناك الكثير على غراره. وسواء كان الأمر في سجون الأردن او في سجون الاحتلال، في بلادنا، او في البلاد التي اغترب إليها طلباً للعلم، كانت الماركسية بوصلته في شغفه المتوقد للعلم والفعل. وما أظن أحداً من رفاقه واصدقائه الكثيرين لم يتأثر بقوة هذه الميزة فيه، كان يؤمن بقدرة العقل وقوته، ولهذا كانت الكلمة المكتوبة والمسموعة سلاحه المشرع في السجن والشارع وقاعة التدريس. ولم يكن سلاحاً بارداً، بل يشع منه الدفء الإنساني والعلاقة الحميمة التي كانت سرعان ما تقوم بينه وبين قرائه ومستمعيه. ولا أعتقد أحداً يذكر غسان إلا ويذكر بين أشياء كثيرة ابتسامته وذهنه المتوقد وتواضعه وسعة اطلاعه. وأعترف انني توقفت عن زيارته في أيامه الأخيرة حتى احتفظ بصورته في ذاكرتي كما أعرفها وأحبها قبل ان يستفحل المرض الخبيث. كثيرون الذين يحسون بجسامة الخسارة بوفاة غسان. ولكنني، لا أبالغ، إن قلت إننا، في جريدة «الطليعة» من اكثرهم

Digitized by Birzeit University Library

إحساساً بهذه الخسارة. كان معنا قبل سفره لإكمال تحصيله العلمي، محرراً وكاتباً وصديقاً. وكان معنا بعد سفره قارئاً وناصحاً ومساعداً، والآن بعد وفاته سيظل بيننا تحفزنا ذكراه للتقدم بثبات وإصرار على الطريق المجيد، والصعب الذي اخترناه واختاره.

جريدة الطليعة

العدد ١٢ من كانون الثاني ١٩٨٤

Digitized by Birzeit University Library

في ذكرى غسان

محمد البطراوي

«أي مشعل للفكر انطفأ، أي قلب توقف عن الخفقان»

وتتحوصل اللوعة غصه في حبه حبة القلب

- هل هو البكاء!!
- أوَ كان لا بد لمثله أن يموت!

ويطغى الأسى، فيسكن حبات العيون .. ويدور الخاطر:

إنه يا «غسان» لقاء أخير

إنه يا «غسان» وداع أخير

- فدقّي يا أجراس أزهار المصير
- ها هو الفارس يمضي
- ثغره الصبح وعيناه النجوم
- ها هو الفارس يمضي
- وعلى نفس الدرب المتعب يمضي
- لم تتعب خطاه

Digitized by Birzeit University Library

- ولم يجاف القدم الطريق .. ها هو الفارس يمضي .. ها هو الفارس عنا يغيب
- عاش صلباً ومات صلباً.
- وتخطى الألم بالبسمة، بسمة الإيمان بالناس والفجر والنصر ..
- لم تتعب أبداً منه الإرادة رغم كل التعب الذي حمله الجسد المسجى

ها هو الفارس يمضي

وهو يا «غسان» مشوار أخير

أقسموا هنا عمالاً وفلاحين

ومثقفين وفقراء ومعهم كل الشرفاء:

العطاء ما أعطيت

وستبقى بيننا

كلما لاح «فجر »

أو دوّى نشيد

وداعاً «أبا الفجر» لن ننساك

أبداً، لن ننسى ما عرفناك عليه،

وما خبرناه، سنبقى على الوفاء أبدًا

لذكراك، ما دام هناك وفاء لهذا

الشعب.. فطبتَ حياً، وطبتَ ميتاً ولذكراك الخلود

«أبجدية» / جريدة الطليعة

Digitized by Birzeit University Library

غسان حرب.. المناضل الثوري المحبوب

تيسير العاروري

بدأ غسان نضاله الثوري منذ كان شاباً يافعاً لم يتجاوز الثلاثة عشر ربيعاً، وكان آنذاك طالباً في مدرسة الفرندز في رام الله، بدأ حياته النضالية هاتفاً «نريد الخبز، نريد السلم، نريد العودة للأوطان».

لقد تصلّب عود غسان الغض مبكراً من خلال ما خاضه، بتفان وجرأة، من معارك نضالية في الصفوف الأولى لجماهير شعبه المنتفضة ضد تزييف إرادتها فيما عرف بهبة تشرين الأول عام ١٩٥٤، وفي الإضراب الشامل الذي استُقبل به «جلال بايار»، رسول حلف بغداد، رئيس الجمهورية التركية آنذاك، عند زيارته للأردن، ومن ثم في الانتفاضة الجماهيرية الرائعة والجبارة في كانون الأول عام ١٩٥٥ التي أفشلت مؤامرة ضم الأردن الى حلف بغداد، وأسقطت وزارة الحلف، وزارة هزاع المجالي، وصدت الهجمة الامبريالية الرجعية، وقادت الى «إقامة نوع من التحالف بين القوى الوطنية في إطار لجان التوجيه الوطني». ثم فيما بعد تحقيق شعار هام من شعارات الحركة الوطنية، وهو تعريب الجيش وطرد جلوب والضباط البريطانيين الآخرين، وإلغاء المعاهدة الأردنية البريطانية في الرابع عشر من آذار سنة ١٩٥٦. إلى أن تكللت هذه النجاحات بإقامة حكومة النابلسي الوطنية التي جاءت الى سدة الحكم إثر الانتخابات البرلمانية في خريف ١٩٥٦ . إلا أن النظام الملكي لم يستطع أن يغض النظر ولو لحظة للفتك بهذه الحكومة، وسرعان ما انكشفت ديمقراطية النظام، فسارع بالتآمر على حكومة النابلسي التي لم تقم بأية إجراءات أو إصلاحات جذرية، وكان الانقلاب الرجعي سيء الصيت الذي قاده الملك حسين في نيسان عام ١٩٥٧، وكان من نتيجته الإطاحة بتلك الحكومة واعلان الأحكام العرفية والقيام بحملة اعتقالات واسعة جداً. وكان من بين المعتقلين غسان، وكان في ذلك الوقت لم يبلغ السادسة عشرة من عمره.

Digitized by Birzeit University Library

لقد قضى غسان ثماني سنوات في السجون الأردنية كمعتقل إداري، دون محاكمة، وذلك بموجب قوانين الطوارىء لعام ١٩٤٥، الموروثة من عهد الانتداب البريطاني.

وقد شاءت الظروف أن يُعتقل غسان للمرة الثانية بعد ١٧ عاماً بالتمام والكمال، أي في نيسان عام ١٩٧٤، ولكن في هذه المرة على أيدي سلطات الاحتلال الصهيونية، حيث قضى ثلاث سنوات، بدون محاكمة ايضاً. لقد اكتشف غسان ورفاقه ممن مروا بكلتا التجربتين، أن للإنتداب البريطاني وقوانين طوارئه، وريثين شرعيين، وليس وريثاً واحداً النظام الرجعي الأردني والنظام الصهيوني العنصري الإسرائيلي، وإنْ كان حلفاء هذا النظام الأخير عبر البحر والمحيط يلبسونه قناع تمويه ويسمونه باسم واحة الديمقراطية في الشرق الأوسط.

إن الفترة التي قضاها غسان في السجن، كانت كما هي بالنسبة لكل المناضلين الثوريين، وبشكل خاص في معتقل صحراوي ذي ظروف مناخية ومعاشية غاية في القساوة، وبالاضافة الى العزلة السحيقة عن العالم الخارجي، ليس فقط محكاً لصلابتهم الثورية، وصبرهم وقدرة احتمالهم، وهكذا كان الجفر بالنسبة لغسان حيث درس مئات الكتب، وتعلم الفرنسية وعمق معرفته باللغة الانجليزية، ودرس الماركسية وتعمق بواسطتها في فهم مجتمعه وفي توفير الشروط اللازمة لتغييره ثورياً للأفضل والأرقى والأنبل.

ومن الطريف أنه من خلال سجن الجفر بالذات، اكتسب غسان كنيته «أبا الفجر» حيث أطلق عليه رفاقه هذا الاسم، ونادوه به تحبباً. كيف لا وقد كان من أصغر المعتقلين سناً.

وبعد خروجه من معتقل الجفر الصحراوي وفي صيف عام ١٩٦٦ سافر أبو الفجر إلى موسكو حيث التحق بكلية الطب في جامعة الصداقة – المسماة باسم المناضل باتريس لومومبا. ولكنه سرعان ما أدرك بأن الطب ليس هو الأفضل للتعبير عن ذاته وعن طموحاته، وتعميق اهتماماته وتفعيلها، فانتقل إلى كلية الإقتصاد حيث حصل على شهادة الماجستير في حقل التخطيط الإقتصادي عام ١٩٧٢.

ولقد اعترف زملاؤه في الجامعة بأن زميلهم أبو الفجر وطول مدة الدراسة في موسكو، كان نموذجاً حياً لتلك الصفات التي تحدث عنها زملاؤه. وكان أبو الفجر، يقدر أهمية العلم وأهمية الدور الذي يلعبه الجامعيون لدى تخرجهم وعودتهم إلى الوطن. ولذا فقد أدرك مهمة الطلبة الرئيسية في الغربة، وهي التحصيل العلمي والحصول على أفضل وأكبر قدر من الثروة العلمية، وامتلاك ناصية التطورات العلمية والتكنولوجية التي تجري في تلك البلدان المتطورة.

Digitized by Birzeit University Library

كان أبو الفجر يدرك، وكثيراً ما كان يكرر على مسامع زملائه الطلبة كلمات فؤاد نصار بأن شعبهم والحركة الوطنية، ينظران إليهم بعين الأمل والرجاء، وفي نفس الوقت كان أبو الفجر يدرك بعمق وينبه إلى ضرورة تحلي الطلبة الخريجين الجامعيين بالتواضع لدى الأوساط الشعبية في الدول المتخلفة. وكان يدرك أن الجماهير في هذه الدول تنظر إلى الأطباء والمهندسين وحملة الشهادات العالية، نظرة تقدير ، لذلك كان يحذر من ضرر تعالي هؤلاء المثقفين على الناس البسطاء قائلاً: لقد أوفدكم شعبكم من أجل تحصيل العلم لتعودوا وتقوموا بدوركم في خدمته.

لقد بقي أبو الفجر مخلصاً لوصايا فؤاد نصار، وبقي متمسكاً بكل القيم الإنسانية والأخلاقية التي آمن بها وتجرّعها. ومن عرف غسان عن قرب لمس مدى عمق إيمانه وحساسيته تجاه ما كان يسميه النقاء الثوري.

والمتتبع لإنتاج أبي الفجر الفكري، يلاحظ مدى التصاق هذا الإنسان بقضايا وطنه وشعبه. فبعد رحلة السجن الثانية، وبعد ظهور صحيفة الطليعة المقدسية الاسبوعية، وكان آنذاك يعمل مدرساً للاقتصاد في جامعة بيرزيت، أصبح يحرر صفحتها الإقتصادية. ومن خلالها تصدى لمعالجة العديد من القضايا الهامة المرتبطة بكفاح شعبه، وقضيته الوطنية والقومية.

Digitized by Birzeit University Library

غسان حرب..

ذلك الراحل الدائم الحضور

أسعد الأسعد

في الوقت الذي بدأنا نمني النفس بقرب عودة صديق عزيز، ليأخذ مكانه في الإسهام بفكره وعمله، ولإتمام ما كان قد بدأه من بحث في الاوضاع الإقتصادية والمعيشية التي يعيشها أبناء شعبنا في المناطق المحتلة، كجزء من أحلام غسان الكبيرة، لحمل قسط من معاناة ابناء شعبه الذي عاش عمره يناضل من أجل سعادته وحريته، عاد غسان، وكأن قلبه لم يحتمل المعاناة الطويلة، غلبه المرض ولم يستطع جسمه النحيل المقاومة أكثر من شهرين، ظل حتى اللحظات الأخيرة يحتفظ بابتسامته التي ما غابت ولن تغيب عن أذهان رفاقه وأصدقائه. مثل حبة الندى في صبيحة يوم قائظ عاجلتها الشمس فقد تدحرجت على غصن دالية، كأن غسان، لم يفقد سيطرته على طبعه الذي تطبع به، حتى في أقسى حالات اشتداد المرض، ظل يسأل عن أخبار أصدقائه، دون أن يفوته شيء من أخبارهم، وحين اتفقنا في هيئة تحرير الكاتب أن نجري معه لقاء للمجلة، ذهبنا إليه لنجد أنفسنا قد تأخرنا، فقد اشتد عليه المرض في الأيام الأخيرة، ولم نستطع أن نجري اللقاء، ذهب أبو الفجر، ونحن في أمسّ الحاجة إليه، في ظلمة الليل رحل، وترك لنا الذكرى التي لا تنسى أبداً ولكم كنا نتمنى أن يواصل معنا، حتى ينجلي الليل، وتزول العتمة، فتلك كانت غاية ما تمناه غسان، أن يواصل مع رفاقه الطريق التي اختطها لنفسه منذ أن كان ابن ستة عشر ربيعاً، وظل وفياً لها حتى آخر نبض في عروقه.

رحل غسان وابتسامة الواثق بحتمية انتصار القضية. التي ناضل طوال حياته من أجلها، ولم يدخل الشك إلى نفسه يوماً بأن المعاناة التي يعيشها شعبه لا بد أن تزول وتنتهي إلى

Digitized by Birzeit University Library

غير رجعة، ولذلك لم تفارقه الابتسامة قط، وإنْ كان الموت قد خذله فعجل في اختطافه، فإن رفاقه لم ولن يخذلوه أبداً، رفاقه الذين عاشوا معه المعاناة الطويلة في سجون الأردن وسجون الاحتلال، عاهدوه على المضي في الطريق الطويلة التي طالما ذاقوا المر في سبيل المحافظة عليها وانتصارها، رحل غسان وظل في قلوب محبيه وأصدقائه ورفاقه.

لك منا التحية يا أبا الفجر، وعهداً لك بأن تظل حياً فينا، نتواصل فكراً وعملاً حتى تتحقق أحلامنا المشتركة وطموحاتنا الواحدة.

مجلة الكاتب عدد ٤٥

Digitized by Birzeit University Library

حوار مع الرفيق خضر العالم/ أبو حازم
عن العلاقة التي كانت تربطه بغسان

أجرى الحوار: د. محمد القهوجي

كنت أجريت هذا الحوار مع الرفيق خضر العالم قبل رحيله، وقد كتب يقول:

بداية لا بد من نبذة قصيرة عن حياة المناضل الرفيق غسان حرب، عائلة حرب عريقة في العمل الوطني، ولها تاريخ مشرّف ومن الأوائل في صفوف حزبنا، كانت أول معرفتي بالرفيق غسان تعود إلى العام ١٩٥٤، في معركة الإنتخابات للبرلمان الأردني، حيث رشح حزبنا المرحوم ابراهيم بكر عن جبهة الاتحاد الوطني، وكان للحزب دور كبير بين الطلاب، وكان الرفيق غسان من نشطاء الطلاب في الدعاية وتعليق الصور. وسارت المعركة بكل تعقيداتها والمضايقات الكثيرة من جانب السلطة، وعندما شعر النظام أن الشارع الأردني له وزن، وبأوامر من قائد الجيش أبو حنيك، ولأول مرة صوّت الجيش في الانتخابات، وبالاضافة إلى ذلك زيفت السلطة الإعلان عن نتائج الانتخابات وفاز مرشحو القصر، وبتحريك من الحزب الشيوعي قامت مظاهرات في جميع أنحاء البلاد، وكان الشبل غسان حرب من البارزين في صفوف الحركة الطلابية، وتوالت الأحداث تباعاً ووصل إلى الأردن الإمام أحمد ملك اليمن، وقامت مظاهرة ضد الزيارة، وكالعادة اعتقلت السلطات عددًا من الرفاق واستدعي غسان إلى مركز الشرطة للتحقيق معه، وكان موقفه مشرفًا، وفي أواخر عام ١٩٥٥، ومن أجل ضم الأردن لحلف بغداد سيء السمعة قام تمبلر المعروف بسفاح الملايو، وهو قائد القوات البريطانية في الشرق الأوسط، بزيارة إلى عمان وحل ضيفاً ثقيل الظل على الشعب الأردني في فندق فيلادلفيا بعمان، وحتى أثناء إقامته قدم شكوى رسمية للحكومة من سماع صوت نباح لكلاب؛ يقصد احتجاجات الجماهير ضده. (أرجو المعذرة في كتابة هذه الجملة وهي للعلم فقط).

Digitized by Birzeit University Library

دعت الأحزاب السياسية إلى اجتماع موسع لدراسة الأوضاع، وثاني يوم طلعت علينا الصحف الأردنية الموالية للنظام بإعلان وأوامر من الجنرال كلوب قائد الجيش بمنع التجمع لأكثر من خمسة أشخاص، دعت الأحزاب الوطنية إلى الإضراب احتجاجاً على القرار، وتحول الإضراب إلى مظاهرات صاخبة امتدت إلى عموم الوطن، وكنت محمولاً على الأكتاف، واستمرت المظاهرات أسبوعاً كاملا، سقطت خلاله وزارة هزاع المجالي، وشكل الوزارة رجل القصر سمير الرفاعي، وأعلن الأحكام العرفية وتفاصيل حلف بغداد كثيرة، وجرت حملة اعتقالات واسعة، وأخذ الحزب الشيوعي نصيب الأسد منها، واختفيتُ في عمان هذه المرة، وكان غسان حرب أصغر رفيق وصل إلى معتقل الجفر الصحراوي، وتوالت الأحداث ولعب صوت العرب دوراً بارزاً في التحريض ضد حلف بغداد.

وفي آذار ١٩٥٦ تم طرد كلوب وترحيله إلى مسقط رأسه وخرج المعتقلون من جميع السجون وكذلك المطاردون من أماكن اختفائهم، فعدنا إلى الظهور وصار مدّ شعبي في الشارع، وتم حل البرلمان المزيف وجرت الانتخابات، وكان للحزب الشيوعي رأي حول قائمة وطنية موحدة ولكن حزب البعث رشح ١٢ من عناصره منفرداً، وتوهم بأن النجاح حليفهم.

نجح عن الحزب في القدس الدكتور يعقوب زيادين وفي رام الله فائق وراد، وشكلت لأول مرة حكومة النابلسي ونالت ثقة البرلمان، وفي ظلها سمح للحزب الشيوعي إصدار جريدته، صدر منها عددان، وألغيت المعاهدة البريطانية الأردنية، وكل ذلك فيما بقي الجهاز الإداري كما هو، وطلعت علينا الإدارة الأميركية بادعاء سد الفراغ في الشرق الأوسط بمبدأ أيزنهاور، وبعد خمسة شهور أقال القصر حكومة النابلسي، وبدأت المعركة من جديد، وبعد المظاهرات، زج بأعداد هائلة من المناضلين في المعتقلات ومثلهم من المطاردين، ويقدر العدد بثمانية آلاف، والرفيق غسان من بينهم، ولم يصدر بحقه حكم طوال الثماني سنوات، وأثناء الاعتقال كان مواظباً على الدراسة، وتسلم محتويات الدكانة في داخل المعتقل، وفي عام ١٩٥٩ أرسل حلف شمال الأطلسي خبراء في مكافحة الشيوعية، ونال كل منا نصيبه من العزل والضرب وأثناء التحقيق، يكون المعتقل انفراديا. وفي إحدى المرات في سجن عمان كنا في غرفة واحدة تسمى الصناعات، وهي مخبز قديم وخلف سورها العالي لا ترى الشمس، وفي هذه الفترة توفي ناصيف حرب والد غسان، وقد تقبل الصدمة بروح عالية لكون المخابرات طلبوه عدة مرات، وساوموه على الخروج وتكميل تعليمه، وكان رده قوياً، وبعد خروجنا من السجن عام ١٩٦٥ سافر غسان إلى موسكو وحصل على شهادة جامعية وعاد إلى أرض الوطن ليلتحق بصفوف حزبه الذي رباه، وشغل موقعا متقدما فيه، وعيّن

Digitized by Birzeit University Library

مدرساً في جامعة بيرزيت، وكان بيته مفتوحاً للرفاق في ظروف قاسية جداً في ظل الاحتلال.

وفي عام ١٩٧٣ تشكلت الجبهة الوطنية وكان الرفيق غسان من الأعضاء النشطاء فيها، وكان ينقل للحزب كل ما يدور في اجتماعات الجبهة، وفي نيسان ١٩٧٤ تعرضت الجبهة الوطنية إلى ضربة قاسية من سلطات الاحتلال، واعتقلنا جميعاً وتعرضنا للتعذيب القاسي، وهذا ما كان واضحاً في حينه، وخرج غسان بعد ٣٣ شهرًا من المعتقل، وحين صدرت جريدة الطليعة الناطقة بلسان الحزب، كان لغسان مقالات على صفحاتها، ثم سافر إلى أميركا للدراسة، وعاد ثانية إلى الوطن ولم يكمل دراسته بعد إصابته بالمرض هناك، ولزم البيت، يستقبل الرفاق والأصدقاء، وفي كل زيارة كان يسأل عن أحوال الحزب والرفاق والأصدقاء، إلى أن وافاه الأجل. وكانت جنازته من أضخم الجنازات التي حصلت في رام الله، حيث موكب الجنازة الذي بدأ من بيته بجوار مدرسة عزيز شاهين إلى الكنيسة والحزن والألم بادٍ على الجميع.

Digitized by Birzeit University Library

٣

الملاحق

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

ملحق ١

الطليعة ١٩٨٤/١/١٢

نعي أستاذ فاضل ومناضل وطني بارز

بقلوب يعتصرها الألم، على فراق جاء قبل أوانه ننعى المربي والمناضل البارز الأستاذ:

غسان ناصيف حرب

أبو فجر

أستاذ الإقتصاد ورئيس دائرة الإقتصاد في جامعة بيرزيت، الذي قضى في ريعان شبابه عن عمر يناهز ٤٣ عاماً، قضاها مدافعاً أميناً عن قضايا شعبه، ومناضلاً صلباً في سبيل حرية وقضية الطبقة العاملة، بعد أن صارع المرض بعزيمة لا تلين، له الرحمة والخلود ولأهله ورفاقه وشعبه حسن العزاء.

- نقابة عمال البناء والمؤسسات العامة في رام الله والبيرة ومكاتبها النقابية في عابود، بيرزيت، كفر عين، أبو قش ، وعارورة.
- نقابة عمال الخياطة والنسيج والغزل في رام الله واللواء.
- نقابة عمال الحدادة والخراطة والألمنيوم في رام الله.
- نقابة عمال النجارة والتنجيد في رام الله.
- نقابة العاملين في المدارس الخاصة برام الله والبيرة.
- نادي شباب كوبر.
- نادي شباب بيتين.
- جمعية قراوة بني زيد الخيرية.
- لجان العمل التطوعي في منطقة رام الله.

Digitized by Birzeit University Library

- لجان المرأة العاملة الفلسطينية في منطقة رام الله.
- كتلة اتحاد الطلبة التقدمية في جامعة بيرزيت وكليات المجتمع والمعاهد.
- لجان الطلبة الثانويين في منطقة رام الله.
- الكتلة العمالية التقدمية في الضفة الغربية وقطاع غزة.
- الاتحاد العام للجان الطلبة الثانويين في الضفة الغربية وقطاع غزة.
- اللجنة العليا للعمل التطوعي في الضفة الغربية وقطاع غزة.
- اتحاد لجان المرأة العاملة الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة.
- الاتحاد العام لنقابات العمال في الضفة الغربية.
- كتلة اتحاد الطلبة التقدمية في الكليات العربية للمهن الطبية.
- نقابة عمال المؤسسات العامة والمهن الحرة بالقدس.
- كتلة اتحاد الطلبة التقدمية في جامعة النجاح الوطنية.
- موظفو وعمال كلية المجتمع العصرية رام الله.
- الكتلة الوطنية التقدمية - نادي جبل المكبر.

Digitized by Birzeit University Library

تقرير إخباري

في عدد ١٢ من الطليعة ١٩٨٤/١/١٢ جاء ما يلي:

غسان حرب رحل عنّا وذكراه خالدة في ضمير شعبه

شيعت الجماهير الغفيرة يوم الاثنين الماضي ١٩٨٤/١/٩ جثمان الأستاذ غسان حرب في موكب مهيب، شارك فيه ما يزيد على ٣ آلاف شخص من العمال والطلاب وأساتذة الجامعات والنقابيين وممثلي المؤسسات الشعبية والجماهيرية من منطقة رام الله والبيرة ومختلف أنحاء الضفة الغربية.

وتقدم الجناز «حملة الأكاليل التي زاد عددها على ١٣٠ إكليلاً»، حيث تم حمل الجثمان على الأكتاف من منزله وحتى كنيسة الروم الأرثوذكس بالمدينة، ثم اخترق الموكب المهيب شوارع المدينة الرئيسية وصولاً إلى المقبرة، جنوبي رام الله.

أُلقيتْ على قبر الفقيد كلمات تأبينية، من رفاق دربه، ومن زملائه وطلابه في جامعة بيرزيت، حيث أثنت جميع الكلمات على صفات ومناقب غسان كإنسان مناضل قضى عمره في الدفاع عن قضايا شعبه وحريته منذ نعومة أظفاره وحتى آخر لحظات عمره.

فقد انخرط في النضال الوطني منذ كان على مقاعد الدراسة في عام ١٩٥٦ ولم يزد عمره آنذاك عن ١٦ عاماً، حيث اعتقلته سلطات الحكم الأردني إثر بطشها بالحرَكة الوطنية الأردنية عام ١٩٥٧ وزجت به في السجن في معتقل الجفر الصحراوي، ولم يكن السجن بالنسبة له سوى موقع آخر للنضال، وأدرك أن هذا الوقت يجب أن لا يضيع سدى، فحصل على الشهادة الثانوية في سجنه، ليواصل إكمال دراسته الجامعية بعد أن قضى ٨ سنوات في السجن، وأطلق سراحه عام ١٩٦٥، وسافر عام ١٩٦٦ إلى الاتحاد السوفياتي لدراسة الإقتصاد، ولم يكن غسان أثناء دراسته إلا خير مثال للطالب المجد، والمناضل الوطني، وكان هناك

Digitized by Birzeit University Library

أحد أبرز قادة الحركة الطلابية. وعاد غسان إلى أرض الوطن لمواصلة مسيرته الكفاحية في العام ١٩٧٢.

وما لبثت سلطات الاحتلال الإسرائيلي أن اعتقلته عام ١٩٧٤، في حملتها الشهيرة للبطش بالجبهة الوطنية الفلسطينية التي كان غسان أحد قادتها، ومرة أخرى تعرض غسان ورفاقه لآلة التعذيب، ولكنه مرة أخرى أثبت لجلاديه أن إرادة الإنسان أقوى منهم ومن تعذيبهم، وأطلق سراحه عام ١٩٧٧ بعد أن قضى طيلة فترة الاعتقال كمعتقل إداري، ولم تستطع سلطات الاحتلال تقديمه للمحاكمة بسبب عجزها عن تقديم أدلة ضده.

وفي العام ١٩٧٨ عمل مدرساً للاقتصاد في جامعة بيرزيت ورئيساً للدائرة فيها، إلى أن أوفدته الجامعة في بعثة دراسية لنيل درجة الدكتوراة من الولايات المتحدة، وهناك تم اكتشاف المرض الخبيث الذي أنهك جسده لسنوات عديدة؛ فصارع المرض الخبيث الذي لا شفاء منه، بعزيمة فولاذية، ثم آثر العودة إلى وطنه ليودع أهله ورفاقه ولتحضنه أرض الوطن الذي عاش من أجله.

لقد ظل غسان وفياً لشعبه ووطنه حتى آخر لحظات عمره، فقبل أن يسلم الروح بأيام قلائل غنى لوطنه ولشعبه، وكان الوطن آخر ما نطق به غسان، وهو يحاول التخفيف من لوعة وآلام أهله وذويه ورفاق دربه وزواره.

إن الأفكار والمبادئ التي ناضل من أجلها غسان ووهبها زهرة شبابه ستنتصر؛ وهذا كان عزاءه، وستبقى ذكراه حية في ضمير شعبه ورفاقه ومحبيه.

Digitized by Birzeit University Library

ملحق٢

حفل التأبين

تقرير إخباري / الطليعة: ١٩٨٤/٣/١٥

في قاعة مبنى كلية الهندسة في جامعة بيرزيت، التي تفتتح لأول مرة، شارك يوم الاثنين الماضي حشد كبير ضم العديد من الشخصيات العمالية والجماهيرية والوطنية في حفل تأبين المناضل البارز الأستاذ غسان حرب «أبو الفجر».

وقد افتتح حفل التأبين خليل توما، حيث شكر في كلمة افتتاحه تقدير الجامعة للمناضل غسان حرب، وأشاد بدور الفقيد في الحياة الفكرية والسياسية منذ انخراطه مبكراً في النضال ضد النظام الأردني.

ثم قدم عريف الحفل، الدكتور عبد اللطيف البرغوثي، الذي تلا كلمة الجامعة وكلمة الدكتور جابي برامكي بالنيابة. وتلاه الدكتور بكر أبو كشك، حيث عدّد في كلمته المؤثرة مناقب الفقيد، في مختلف المجالات، وأشار إلى أن واجبه العلمي تجاه الجامعة وكلية التجارة التي عمل فيها كان مقروناً بمبدئيته السياسية واحترامه العميق لآراء العاملين معه بغض النظر عن اختلافه معهم، وأشار إلى جَلَد الفقيد وشدة تحمله.

ثم قدم المحامي جريس الخوري، رئيس أمناء جمعية الملتقى الفكري كلمة الجمعية، فأشار فيها إلى مساهمات غسان الكبيرة في الجمعية، إلى نشاطه في الاعداد لمؤتمر التنمية الذي قدمته الجمعية، وفي شدة احترامه لزملائه والعاملين معه، وذكائه المتقد.

وبعد ذلك قدم الأستاذ تيسير العاروري كلمة أصدقاء الفقيد، فأشار إلى كل مواقف غسان حرب، التي جلبت له الاحترام من أوساط عديدة، كانت وليدة رؤيته العلمية للأهداف الوطنية وكانت ثمرة وعيه السياسي الذي امتلكه منذ طفولته المبكرة.

وأشار تيسير العاروري في كلمته إلى بعد النظر الذي تميز به غسان حرب، مستشهداً بأجزاء من مقالاته التي كتبها عندما كان يحرر الصفحة الإقتصادية في الطليعة.

وبعد ذلك قدم المناضل منعم جرجورة، عضو بلدية الناصرة، كلمة رثاء للفقيد، أشار فيها إلى اعتزازه بالنبتة التي غرسوها في عكا قبل ٣٧ عاماً، فأنبتت مناضلين كغسان.

Digitized by Birzeit University Library

وفي الختام ألقى حرب شقيق الفقيد، كلمة العائلة فشكر فيها الحضور والمؤبنين ولجنة التأبين، وأشار في كلمته الى آخر الكلمات التي نطقها غسان قبل غيبوبته الأخيرة، فقال إنه عندما اشتد عليه الألم، ولم يستطع احتماله، وخوفاً من إزعاج من حوله، استجمع غسان ما تبقى له من قوة، ونهض واقفاً وبدأ يغني بصوت عال، للأرض والسلام والخبز، حتى خارت قواه وذهب في غيبوبته الأخيرة.

وقد تخلل كلمات التأبين قراءة البرقيات التي أرسلها العديد من الشخصيات بسبب عدم قدرتهم على المشاركة في الحفل، وكان من بين مرسلي البرقيات، ابراهيم الدقاق - بسام الشكعة، وحيد الحمد الله، كريم خلف، سمير البرقوني، يسرى البربري، د.تيسير البرقوني.

Digitized by Birzeit University Library

كلمات في حفل التأبين

كلمة الأستاذ د.عبد اللطيف البرغوثي

أيها الإخوة أيتها الأخوات

قديماً قيل إذا وجدتَ مكان القول ذا سعة فإن وجدتَ لسانا قائلا فقل...

وأشهد أن الخيال واسع وأن اللسان لمقول قائل...

وأشهد أن الصدر ليعتمل بالكثير كلما ذكر أبو الفجر، وأن النفس لتجيش بالكثير الكثير كلما عرضت لها ذكراه العطرة، ولكن أبا الفجر كان خفيف الظل في حياته، فأسمحوا لي أن أكون كذلك وأن أراعي هذه الخصلة الممتازة في فقيدنا. أنا هنا بين أيديكم في هذا الموقف الحزين إن جاز لي أن أتحدث في هذا الملتقى فإني أتذكر دائماً وأستذكر قول أبي الطيب المتنبي:

خُلقْتُ ألُوفاً لَوْ رَجعتُ إلى الصّبَا   لَفارَقتُ شَيبي مُوجَعَ القلبِ باكِياً

فكيف بي وأنا أقف هذا الموقف الحزين في ذكرى رحيل صديق عزيز، ربطتني به وبآله الكرام علاقات ودية وثيقة؛ بنيت على الوفاء الخالص وعلى التفاني في سبيل الصالح العام. إنني مهما قلت لن أفيك يا أبا فجر بعض حقك، ولذلك فإني سأعزي نفسي بالقول، إن الانسان ذكرى وأنت يا أبا الفجر هذه الذكرى، لأنك أنت الإنسان وستبقى ذكراك عطرة كيف ما بقي الإنسان.

Digitized by Birzeit University Library

كلمة المحامي جريس الخوري

رئيس مجلس أمناء الملتقى الفكري العربي نقيب المحامين سابق

لعمرك ما الرزية فقد مالٍ ولا شاة ولا بعير
ولكن الرزية فقد حر يموت لموته خلق كثير

أيها الحفل الكريم:

بهذين البيتين من الشعر أستهل تأبيني لغسان حرب الفتى العربي المناضل والوطني الفلسطيني المكافح والأستاذ الألمعي، والباحث المنقّب والمشعل المنير والصديق الصدوق الذي نلتقي اليوم لإحياء ذكراه العطرة، وتعداد مناقبه الجمّة وفاء له ولديْنٍ له في وجداننا مستحق.

عرفت الراحل الكريم عن كثب قبل نيف وخمس سنوات يوم كانت المناطق القريبة المنكوبة بالاحتلال الإسرائيلي البغيض تتهيأ غيظاً وألماً بل تهيج وتموج بعد الزيارة المأفونة التي قام بها أنور السادات إلى القدس، في تعارض تام وتجاهل لرغبات الفلسطينيين والعرب، يوم كانت مسيرة المهانة والمذلة والاستسلام، قد بدأت في كامب ديفيد بينما المواطنون الشرفاء تحت الاحتلال وبينهم فقيدنا غسان يخوضون معركة قاسية في درء عادية الاحتلال ومقارعة ممارساته العفنة، ومقاومة تيارات الالتفاف الوقحة على شرعية قيادتنا المظفرة، راعية مسيرتنا في مشوارنا الهادر لتحرير الأرض واستعادة الحقوق وبناء الدولة المستقلة.

على ثرى هذا الوطن الطهور كل ذلك، بزعامة الامبريالية الغربية وعلى رئيسها الولايات المتحدة الأميركية وربيبتها إسرائيل، في تلك الفترة تبقى جمعية الملتقى العربي في القدس تطوي تحت جناحيها نخبة من الباحثين المجدين النابهين، حَمَلة مبدأ مشعل الفكر والقلم وفي مقدمتهم المرحوم غسان، والحق يقال إن ما بذله فقيدنا من جهد وعرق وفكر وعطاء

Digitized by Birzeit University Library

لجمعية الملتقى الفكري لهو ما نفاخر به في الملتقى على الدوام. وقد أتاحت لي مزاملة غسان في جمعية الملتقى بوصفه عضوًا في مجلس الأمناء وأن أقف وأتحدث عن الأخلاق الرفيعة التي تحلّى بها رفيقنا الغالي.

فأرشيف الجمعية الزاخر بأبحاث غسان ودراساته وفي مقدمتها مساهماته الجمة في مسيرات التنمية التي انبرى لها الملتقى بحق في إطار مؤتمره المعروف بمؤتمر التنمية من أجل الصمود عام ١٩٨٢/١٩٨١ لخير دليل وخير برهان على صحة ما أقول. لقد آمن غسان وعمل بوحي من الحديث النبوي الشريف (لا يزال الرجل عالماً ما طلب العلم؛ فإنْ ظن أنه قد علم فقد جهل)، وقد طبق على خير وجه قول شاعرنا العربي:

إذا مرَّ بي يومٌ ولم أتخذ يداً ولم استفد علماً فما ذاك من عمري.

وفي تعامله مع الكافة كان يتصرف بوحي من القول المأثور لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه: أعجزُ الناس من عجزَ عن اكتساب الإخوان، وأعجزُ منه من ضيّعَ مَن ظفرَ به منهم) وكنت أراه في تعاطيه مع الغير وقد احتذى بقول معاوية: «لو كان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت؛ إذا شدوها أرخيت، وإذا أرخوها شددت».

كان المرحوم غسان مدرساً لمادة الإقتصاد في هذه الجامعة الزاهرة، قامت إدارة الجامعة قبل سنتين بإرساله في بعثة إلى الولايات المتحدة الأميركية لإتمام دراسة الدكتوراة. واظب غسان على تحصيله لما عرف عنه من صبر وجلد، وما أن أوشك على بلوغ الهدف حتى عاجله المرض الذي ما لبث أن استشرى وأقعده عن مواصلة الرحلة، وأصر على العودة إلى وطنه ليدفن في رباه الطهور، وقد كان له ما أراد. ولن أنساه في زيارة قمت بها أنا والإخوان في مجلس أمناء الملتقى من شهر تشرين المنصرم، لنعود غسان في مرضه ونسري عنه همه، وكان وقتها يصارع المرض بشجاعة نادرة وعزيمة لا تفل، ومع ذلك أمضى وقت الزيارة، وهو يسأل عن الملتقى الفكري وعن أخباره في الداخل والخارج، وعن نشاطاته وأعماله وخططه وبرامجه، وعن خطط مؤتمر التنمية الثاني الذي كان يخطط لعقده الملتقى.

وباختصار بدا لنا أن غسان وهو يعاني تحت وطأة الداء يعيش معنا آلامنا وآمالنا على خير ما يعاش الألم والأمل، لقد كان الأمل الذي يعمر قلب غسان أهم عنصر في حياته، وأعني به الأمل الإيجابي الذي يدعو إلى مضاعفة الجهد والتصدي للظلم والسعي للخروج من المآزق. إنه الأمل الذي لا يعترف بالهزيمة بل على النقيض، يراها في حقيقتها عنصراً أكيداً بل مرتكزاً أساسياً من مرتكزات الفوز والنجاح، لعمري قد ترتفع المقدرة بالإنسان إلى أعلى

Digitized by Birzeit University Library

القمم، لكن الخلق القويم وحده الذي يقيه من السقوط. هكذا كان غسان رحمه الله وأجزل المثوبة عليه.

عليك سلام الله، فإني رأيت الكريم الحر ليس له عمر. أيتها الأخوات أيها الأخوة

بوسعي أن أتحدث عن خصائص فقيدنا الراحل وشمائله الكريمة ساعات وساعات، فلقد كان غسان حرب بحق شخصية محببة متعددة الجوانب مرفوعة الهامة وضاءة الجبين. ونحن في الملتقى الفكري الذي خصه غسان عصارة قلبه وبديع فكره وثاقب بصيرته وجزيل عطائه، لا نملك إلا أن نذرف دمعة وفاء وتقدير.

وفي ختام هذه العجالة اسمحوا لي أن أزجي العزاء لوالدته الثكلى وأرملته الصبور ونجليه الكريمين، وآل حرب الأماجد ولذويه وزملائه وطلابه وأصدقائه ورفاق دربه ومقدري فضله وهم كما تعلمون كثر قد لا يطالهم حصر. وأما أنت يا أبا الفجر؛ فارقد في مثواك الأبدي في جنات النعيم قرير العين هادىء البال، وسلام عليك في الخالدين.

Digitized by Birzeit University Library

كلمة منعم جرجورة

النقابي العريق عضو لجنة المراقبة في الحزب الشيوعي الإسرائيلي

أيها الحفل الكريم

كان بودي أن أُنتدب لغير هذه المهمة المؤلمة؛ فإننا من الجيل الذي كانت أقصى أمنياته أن يذكره غسان وجيل غسان.

كان وجه غسان المشرق من أوائل الوجوه المشرقة التي أطلت علينا بعد عام ١٩٦٧ حين دخل غسان حرب إلى دار جريدتنا الاتحاد في حيفا باحثاً عن آثار معلمنا ابن الناصرة فؤاد نصار، لم يكن غريبا عن الاتحاد ولم تكن الاتحاد غريبة عنه، ربما كان قد شارك أخويه توزيع الاتحاد في عكا، وعن طريق غسان وإخوانه ورفاقه؛ رب أخ لك لم تلده أمك، تأكدنا بأن الغرسة التي غرسناها؛ غرسناها زيتونة كريمة في أرض طيبة ومعطاء، قديماً قد شبهنا مشاعرنا تجاه هذا الالتقاء بمشاعر هذا السجين في زنزانته حين أخبره السجانون بعد ١٩ عاما من العزلة أنهم اعتقلوا بقية أخوته، وأنهم مسجونون معه في أبنية السجن الواحد، فهل يتولى سجان الحيلولة دونه وأحضانه؟!

أجل أيها الأخوة لا خيل عندنا نهديها ولا مال، ولكن عندنا أغنى خبرة في الصمود في داخل الزنزانة حتى تضيق بنا وتضيق عنا جدرانها، فهذا وطننا ونحن هنا، مجزرة كفر قاسم عجزت أن تفرض علينا الاستعاضة عن الزنازين بمتاهات اللاجئين، فليس لنا غير هذا الوطن، وطن نعرفه ويعرفنا، نميز بين بقوله الطيبة والسامة، بل قل نعرف من أين تؤكل الكتف، هذه حياتنا يوماً يوماً وساعة ساعة، فكيف نتاجر بعد هذا كله بحياتنا أو نزاود على ما بقي لنا من زوادة هذا الوطن وهذا الشعب، ووحدة الصف والطريق، بذلنا وسنبذل كل ما أوتينا من جهد وتجربة في تقصير محكومية بقية إخواننا غسان وإخوته وشعبه.

Digitized by Birzeit University Library

أما السجان؛ فيحاول أن يقصر من أعمارهم أعمار رفاقنا ليحافظ على عمر سجنه، فذهب غسان وذهب العديد من إخوته، مضى عليكم أيها الإخوة تحت الاحتلال ١٧ عاماً، ولم يبق سوى عامين حتى نتساوى في «اللبن والعسل»، غير أن الخروج الثاني لم يتحقق. إن بقاءنا في وطننا أسهم وبلا شك في تعزيز ثقتكم بأن لا بديل للعيش في الوطن، حتى لو حولوه إلى جهنم. لقد أسهم غسان في حياته القصيرة والحافلة، في إفشال مخطط الخروج الثاني، أما تحقيق هذا الأمر، وقد تحقق لمفهوم إنقاذ ما يمكن إنقاذه، ألا يكون شعارًا للمستوطنين الكولونياليين الذين رفعوه في باص ولا ساعة صدم بمرور الزمن لا تموت الحقوق العادلة بل تزداد توهجاً بالمزيد مما يدفع من ثمنها في سبيلها، ويصبح المحتاجون إلى العون معينين وتردون جميل المثل الذي يحتذى بأضعاف أضعافه ويزداد عدد اليهود والعرب الذين تعلمهم التجربة أن السجن واحد، ولذلك فإن الخلاص واحد. لم يجمعنا الاحتلال ولن يجمعنا، بل جمعنا ويجمعنا النضال ضد الاحتلال. من أجل السلام العادل سلام الشعوب من أجل الشعوب.

لقد قُيّض لغسان الفتى الشهم أن يصبح في حياته القصيرة مشعلاً للمناضل الذي لا يتراجع ولا يلين، إننا نذكر أيام اعتقاله وتعذيبه في زنازين الاحتلال حين أطل من صفحات الاتحاد، في الأخبار عنه وفي صورته، ظل وجه غسان هو الباسم والداعي إلى المزيد من الثقة به وبإخوانه وبشعبه، إننا نحني هاماتنا أمام ذكراه التي ستظل بالرغم من لوعة الفراق عطرة.

فعلّموا أولادنا أن يتعلّموا من صمود غسان ومن ابتسامته.

Digitized by Birzeit University Library

كلمة د. بكر أبو كشك

عميد كلية التجارة

أيها الأخوة الأحباب

إلى من سلك دروب النضال ليزرع سنبلة فوق كل رابية، إلى من ترك بصماته واضحة في كل أعماله، إلى من خُيِّر فاختار الوطن.

كم يا أبا الفجر يؤلمنا اليوم أن أقف مؤبناً بعد أن غاب جسمك عنا، ولكن روحك ما زالت معنا تشاركنا أفكارنا وتحركاتنا، لا أقصد بكلمتي هذه أن أعرفكم بالفقيد، بل ما أهدف إليه هو التحدث عن شخصية الفقيد من خلال عملنا معاً في جامعة بيرزيت.

أسهم أبو الفجر رحمه الله في مجالات مختلفة، فهو عامل في النشاط النقابي، وهو أستاذ يهمه أن يقدم واجبه تجاه طلابه وهو مفكر. لهذا، أسهم في نشاطات فكرية عديدة. وهو مناضل ضحى بالكثير من أجل ما يؤمن به. من هنا نرى شخصية الفقيد متشعبة بحيث لا يسمح الوقت المخصص للإحاطة بكل جوانبها، لأن لكل جانب منها شخصية قائمة بحد ذاتها، ولا تتطابق مع بقية الجوانب لكنها تلتقى مع القضية التي نذر الفقيد نفسه لها.

أمسكت قلمي لأكتب عن الفقيد فوقعت في حيرة، هل أكتب عن غسان الذي حفر لنفسه خندقاً نضالياً متقدماً؟! أم أكتب عن غسان العامل مع العاملين؟! واستغرابي في الرأي أن أحدثكم عنه كزميل، الزميل الذي عملنا معاً في هذا الصرح العلمي، تعرفت عليه من خلال عمله كأستاذ وعضو في لجان مختلفة وكباحث وإداري، وأتيحت لي الفرصة لأتعاون معه خارج إطار الجامعة في مشروعات الملتقى الفكري العربي وندوات عالمية خارج المناطق، لقد درست خلال هذه الفترة وبالتجربة الصفات التي تميز بها أبو الفجر، كان محدثاً لبقاً ولديه قدرة على تحليل الأمور وكان ملتزماً بما يؤمن به ومدافعاً عنه، إلا أن التزامه لم يمنعه

Digitized by Birzeit University Library

من سماع رأي الآخرين بصدر رحب أكسبه احترام كل من تعامل معه وتعرف عليه.

كان الفقيد شعلة مضيئة تبعث الأمل بالنفوس حتى اللحظات التي تضيق فيها فرحة الأمل، وأذكر بهذه المناسبة كيف استقبلنا عندما ذهبتُ مع مجموعة من الزملاء لزيارته بعد عودته من الولايات المتحدة، فقد كنا كلنا في حيرة من أمرنا كيف نبدأ الحديث! هل سنقول له الحمد لله على سلامتك ونحن نعرف الخطر الذي يهدده، هل نتحدث معه عن استكمال دراسته ونحن نعرف أن مرضه قد حال بينه وبين الأمل الذي كان يقصده!

إلا أن أبو الفجر قد أحس ما في نفوسنا فوضع حدا لهذه الحيرة، وبدأ يسألنا عن الجامعة وعن الكلية وعن أحوالنا العائلية، وكأنه اطمأن على نفسه وأراد الاطمئنان عنا. أحسسنا بالارتياح ونحن نستمع إلى كلماته الدافئة، وقد قوى في نفوسنا الأمل في رؤية أبو الفجر مرة اخرى بالجامعة، وقد تحدث المعجزة ويتعافى أبو الفجر، وظل هذا الأمل يداعب خيالي حتى تدهورت صحة الفقيد إلى أن صعدت روحه إلى بارئها، حاولت أن أستجمع قواي لأقول كلمة في وداعه، إلا أن قواي خارت، أحسست بأن دموعي ستسبق كلماتي لو حاولت، وعندها آثرت الصمت، وأرجو أن يغفر لي زميلي هذا التقصير الذي لم يكن لي خيار فيه. عاش الفقيد وهو يؤمن حتى اليوم الأخير بأن المعركة مع الاحتلال معركة طويلة، ولا بد من إعداد العدة لها وتهيئة الجيل الواعي من أبناء هذا الوطن القادر على التفاعل مع مجتمعه والتأثير فيه والارتقاء به.

أحس الفقيد وآمن بأن جامعتنا الوطنية هي المكان الأنسب لتهيئة رجال المستقبل لكسب المعركة. كثيراً ما تجاذبنا أطراف الحديث حول العلاقة بين الأهداف الوطنية والأكاديمية ووصلنا إلى قناعات مشتركة بأن هنالك تكاملاً بين الأهداف الوطنية والأكاديمية. وحتى تتم الفائدة المرجوة لا نسمح أن تتعارض هذه الأهداف لأن كلا منها ضروري للآخر وليس بديلاً له، وما زلت أسترجع ما دار بيننا من حديث وأكاد ألمس وصيته الأخيرة التي تركها أمانة في أعناق رواد الحركة الطلابية في الوطن، فمعركتنا حضارية والعلم سلاحنا، وإذا لم نتمكن من وضع هذا السلاح في خدمة هذه القضية ما دمنا لم نعطه ما يستحقه من اهتمام فلن نستطيع أن نخلق الجيل الواعي إذا لم تتسع صدورنا للنقاش الحر البعيد عن التعصب، وأن يكون لدينا القناعة بأن توجهنا ينبع من المصلحة العامة أولاً وأخيراً ولا مكانة للغايات الشخصية في تصرفاتنا، ولعل وقفة صدق يقفها الواحد منا مع نفسه هي صمام الأمان الذي يذيب مصلحة الفرد في خدمة المجتمع كما آمن بها فقيدنا وكما عاش ومات وهو يؤمن بها.

Digitized by Birzeit University Library

أيها الحفل الكريم

من كلية الإقتصاد في جامعة بيرزيت نزجي التحية لكل من شاركنا متجشماً مشاق السفر، باسم الجامعة والطلبة والأساتذة والعاملين في كلية التجارة والإقتصاد وأتقدم باسمهم جميعاً بالشكر لهم وأخص بالذكر اللجنة التحضيرية واللجنة التأبينية وعريف الحفل والسادة الخطباء وأسأل الله أن لا يريكم مكروها بعزيز. وإنا لله وإنا إليه راجعون.

Digitized by Birzeit University Library

ملحق ٣

بعض من رسائل التعزية

القلوب واحدة والدرب واحد وما من بعيد سوى الشيطان فاقبلوا هذه التعزية وعزاؤنا أننا على طريق غسان.

لظروف خارجة عن إرادتي لم أتمكن من حضور حفل تأبين المرحوم غسان الذي أمضى شبابه في خدمة العلم والوطن، ذكرى غسان ستبقى حية في أذهاننا وأذهان زملائه وتلاميذه وكل من عرفه، وليكن كفاحه قدوة لشباب الوطن.

محمد سعد الفقيه

نائب رئيس مجلس أمناء جامعة بيرزيت.

السادة لجنة تأبين الأستاذ المناضل غسان حرب.

أشكركم على إرسالكم ذكرى المناضل الإنسان غسان حرب. آمل أن يتمكن طلابه من الأجيال الصاعدة جني ثمار نضاله الطويل في خدمة العلم والوطن.

الدكتور أنطون ترزي

السادة لجنة التأبين.

ظروف شخصية أعاقت حضوري شخصياً حفل تأبين المناضل غسان حرب الذي عاش ومات أمينا لرسالته.

فلتعش ذكراه صفحة مجيدة في سبيل وطنه، ولتكن أعماله منارة وضاءة لكل مربي الأجيال من بعده.

وحيد الحمد الله

Digitized by Birzeit University Library

الأخ عريف الحفل، السادة وجميع الحاضرين،

تحية وبعد

حالت ظروف قهرية دون أن أقف وقفة تقدير وتعظيم لذاك الذي افتقده شعبنا، إلا أن ذلك لم يمنعني من استحضار ذكراه وذكرى نضاله.

لظروف خارجة عن إرادتي لم أتمكن من حضور تأبين المناضل البارز ابن شعبنا البار غسان حرب.

عاشت ذكراه خالدة في وجدان شعبنا، وملهماً لكل الأجيال من بعده.

تيسير البرقوني/ غزة

أيها الأخوة.

إحياء ذكرى فقيدنا الغالي المربي غسان حرب عزاء لنا.

عطاء غسان الذي لم يتوقف تحمله الأجيال التي سهر على تنشئتها غسان.

يوسف البرقوني. غزة

إلى لجنة تأبين المناضل غسان حرب.

نشارككم حفل تأبين المناضل غسان حرب الذي وعى الحياة علماً ونضالاً وتضحية بروح المبادرة والتفاؤل، فقدّمَ نموذجاً في نضال شعبنا وانتصاره.

غسان الشكعة

Digitized by Birzeit University Library

السادة أعضاء لجنة تأبين المناضل غسان حرب.

يؤسفني للمرة الثالثة من عدم إيفاء المناضل غسان حرب حقه عليّ. فقد حالت الإجراءات الإسرائيلية دون وداعه وهو على فراش مرضه، وحالت دون وداعه الأخير إلى حضن الأرض، وها هي تحول بيني وبين المشاركة في حفل تأبينه.

لقد كان غسان أكثر من مجرد صديق لنا. كان نموذجاً للإنسان الملتزم القادر على العطاء والمشاركة، وكانت خسارتنا في غسان خسارة كبيرة، ولنا في أولاده خير أمل.

لهم ولأم فجر ولكم جميعاً أحر التعازي.

والمجد والخلود لفقيدنا الكبير.

إبراهيم الدقاق

Digitized by Birzeit University Library

ملحق ٤

غسان حرب

المناضل الفذ والأكاديمي اللامع الذي غادرنا في ريعان عطائه

ملخّص لبعض أعماله البحثية والصحفية

د. سمير عبدالله

إضافة لأعماله البحثية ونشاطه الأكاديمي المتميز في جامعة بيرزيت، ثابر المناضل غسان حرب (أبو فجر) على متابعة قضايا الساعة في اقتصاد الأرض المحتلة ومحيطها العربي والدولي، والتعليق عليها في الصحافة المحلية. ومن الملاحظ أن أبو فجر كرس معظم أعماله البحثية والصحفية لقضايا الطبقة العاملة وتبنى مطالبها ودافع عن مصالحها بكل صراحة، باعتباره مصلحة وطنية عامة في النضال لإنهاء الاحتلال. ويشكل هذا الملخّص محاولة لتسليط الضوء على أبرز الرسائل التي حملتها كتاباته المنشورة وتعليقاته الصحفية في زاويته الخاصة بعنوان «تحت المجهر» في جريدة «الطليعة» الأسبوعية، التي كانت تصدر في القدس في أواخر السبعينات وفي ثمانينات القرن الماضي. وتعكس كل كتاباته الأكاديمية والتعليقات القصيرة والمقالات اهتماماته ومتابعاته لهموم المواطنين وقضاياهم، وخصوصا ما يتعلق بانتهاكات سلطات الاحتلال للحقوق الإقتصادية الفلسطينية، ومعاناة الطبقة العاملة، وبعض الأحداث الإقتصادية العربية والدولية الهامة خلال تلك الفترة.

أولا: تلخيص الأوراق البحثية المنشورة

نقدم هنا تلخيصاً لورقتين بحثيتين متميزتين للكاتب، الأولى وهي بعنوان «العمل والقوى العاملة الفلسطينية» (ما بعد التسوية السياسية) باللغة الإنجليزية، وهي منشورة كفصل في كتاب يحمل عنوان: أجندة فلسطينية للضفة الغربية وقطاع غزة، تحرير إميل نخلة، الصادر باللغة الإنكليزية (AEI, Washington DC: ١٩٨٠) والثانية بعنوان «النقابات

Digitized by Birzeit University Library

العمالية في الضفة الغربية ودورها في تنمية الصمود، التي قدمها غسان حرب في «مؤتمر التنمية من أجل الصمود» الذي نظمه الملتقى الفكري العربي في القدس عام ١٩٨١ وتم نشرها في كتاب المؤتمر إلى جانب أوراق المؤتمر الأخرى.

١. العمل والقوى العاملة الفلسطينية

المنشورة في كتاب «أجندة فلسطينية للضفة الغربية وقطاع غزة من تحرير إميل نخلة، (القدس: ١٩٨٠)».

تهدف الدراسة إلى تحديد دور العمل والقوى العاملة بعد تحقيق التسوية السياسية للنزاع في الشرق الأوسط. وحدد الكاتب أنه يعتقد أن مستقبل سوق العمل والقوى البشرية في الضفة الغربية وقطاع غزة بعد التسوية السياسية يتوقف على طبيعة التسوية المنشودة للنزاع بوجه عام وللقضية الفلسطينية بوجه خاص. ويؤكد على أن ورقته تستند إلى اعتقاده بأن أي تسوية يجب أن تتضمن قيام دولة فلسطينية مستقلة على الأرض المحتلة عام ١٩٦٧ بما فيها القدس العربية. وأشار إلى أن العديد من الباحثين يعتقدون بأن هذه الدولة تمتلك مقومات الجدوى الإقتصادية، وأنها ستفتح الطريق أمام تطور التنمية الإقتصادية للفلسطينيين، وتحقق طموحات الشعب الفلسطيني السياسية المشروعة.

ويشير إلى أن الدولة الفلسطينية ستكون فقيرة من حيث الموارد الطبيعية، كما أنها ستفتقر للأموال المطلوبة لإطلاق التنمية، ولكنها بالمقابل محظية من حيث مواردها البشرية. ويقتبس الكاتب من دراسة الإقتصاديين دارين- درابكين والياس توما بأن الموارد البشرية ستلعب الدور الرئيسي في تحقيق قدرة الدولة الفلسطينية على الحياة.[1] ويشير الكاتب إلى أن القيادات الفلسطينية داخل الأرض المحتلة وخارجها تؤمن بهذا الاستنتاج.[2] يقر بأن موضوع القوى العاملة الفلسطينية لم يدرس بعمق حتى اللحظة بسبب تشظي الفلسطينيين إثر النكبة عام ١٩٤٨، وانتشار قواهم العاملة في عدد من البلدان. وأن دراسته تقتصر على جزئها الباقي على أرض الوطن مع التأكيد على ضرورة عدم التقليل من أهمية الجزء الذي يعيش في المهجر، والذي سيلعب دورا هاما في التنمية بعد عودته للوطن.

1 Elias Tuma and Haim Darin-Drabkin, The Economic case for Palestine (Croom Helm, London: 1978), p. 15

2 Jerusalem Post, Jerusalem, January 12,1979

Digitized by Birzeit University Library

عكف الباحث في دراسته على تحليل البيانات السكانية المنشورة من الإحصاءات الإسرائيلية الرسمية، مع لفت الانتباه إلى اختلافها عن بعض البيانات التي تجمع من قبل بعض المؤسسات الوطنية. ويبين أن عدد السكان في الأرض المحتلة بلغ ١,١٢٢,٦٠٠ نسمة في نهاية عام ١٩٧٧ (٦٨١,٢٥٠ نسمة في الضفة الغربية و٤٤١,٣٥٠ نسمة في قطاع غزة[٣]). وأشار إلى أن نحو نصف السكان كانوا من الأطفال في فئة العمر ١٤ سنة فأقل. كما لاحظ أن عدد سكان الضفة الغربية انخفض خلال ربع القرن الماضي بالرغم من أن صافي الزيادة الطبيعية كانت ٣٪ عام ١٩٧٧، وأن عدد السكان في تلك السنة كان أقل من عدد سكانها في عام ١٩٥٢ بسبب حركة النزوح التي حدثت إثر عدوان حزيران ١٩٦٧، وبسبب هجرة الشباب بدافع البحث عن العمل خارج الضفة الغربية. كما أشار إلى الاختلالات في توزيع السكان حسب الجنس وفئات العمر. فقد بلغت نسبة الرجال للنساء ٧,٥٧: ١٠ في فئات العمر ٢٥-٤٤ عاما. ويشير إلى التأثير السلبي لتلك التشوهات على مؤشرات القوى العاملة، وخصوصا تدني معدل مشاركة الإناث في قوة العمل والتي ما زالت كذلك لغاية الآن، ارتفاع نسبة الملتحقين بالدراسة، ارتفاع عدد العاملين في إسرائيل والتي بلغت ٣١,٥٪ من القوى العاملة عام ١٩٧٦، وارتفاع عدد المهاجرين بحثا عن العمل خارج فلسطين، وبالتحديد في الفترة ١٩٧٤-١٩٧٨ التي سجلت هجرة ١٠ آلاف عامل سنوياً[٤].

ويشير الكاتب إلى أن السؤال الرئيسي للدراسة هو: هل بإمكان قطاعات الإقتصاد في الدولة الفلسطينية المستقلة توليد وظائف لائقة لاستيعاب القوى العاملة الفلسطينية بعد قيامها؟ ويجيب على هذا السؤال من خلال تحليله المسهب للعرض والطلب كميا ونوعيا وفق عدد من الافتراضات بشأن معدل نمو السكان، وتقدير عدد اللاجئين الفلسطينيين المتوقع عودتهم إلى وطنهم المستند إلى دراسة دارين- دروبكين ب ١,٢ مليون عائد[٥]. واستندت في بيانات مستوى التحصيل العلمي مقاسة بعدد سنوات التعليم، إلى دراسة نبيل شعث المنشورة من قبل مركز الأبحاث الفلسطيني[٦]، وتوزيع القوى العاملة حسب أنواع الوظائف الصادرة عن مكتب الإحصاءات الإسرائيلية الرسمية.

---

3 كانت بعض إحصاءات قطاع غزة تشمل شمالي سيناء أيضاً ولكن عدد السكان المصريين في شمالي سيناء كان محدودا جدا آنذاك.

4 Israel Economist, Jerusalem, October 1978, p. 25.

5 In his article entitled «The Economic Viability of a Palestine State in the West Bank and Gaza Strip» Haim Darin-Drabkin

6 Nabeel Sha'ath, Journal of Palestine Studies, vol. I, no. 2 (Winter 1972), p. 94

Digitized by Birzeit University Library

وخلصت الدراسة بالاستنتاجات التالية:

- ستكون القوى العاملة الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة وفي المهجر، من الناحيتين الكمية والنوعية، قادرة على الوفاء بمتطلبات التنمية في الدولة الفلسطينية المستقلة. ويمكنها التعويض عن النقص النسبي في عوامل الإنتاج الأخرى في الأراضي المحتلة.
- يمكن تحقيق توازن جديد بين العرض والطلب على العمالة.
- إن تطوير جودة العمل وكفاءته ذات أهمية حيوية للبلد، وهذا يستوجب تطوير سلسلة من مؤسسات التعليم والتدريب المهني الموجهة لتلبية احتياجات البلاد من المهارات.
- يمكن تحقيق الاستخدام المناسب للقوى العاملة من خلال التخطيط الإقتصادي الفعال.
- نظراً لعدم كفاية الموارد المحلية لتراكم رأس المال لتوفير الاستثمارات اللازمة، ستكون هناك حاجة ماسة للمساعدات الخارجية والقروض لبناء الدولة المستقبلية، وخصوصا في السنوات الأولى. لذا يجب حث الدول العربية والمجتمع الدولي والدول الصديقة في جميع أنحاء العالم على الإسهام في تحقيق هذا الهدف.
- سيوفر الاستثمار قاعدة متينة لأنشطة الفلسطينيين الإبداعية بما يمكنهم من إخراج البلاد من حالة المعاناة وعدم الاستقرار إلى واحة مزدهرة تنعم بالأمن.

٢. النقابات العمالية في الضفة الغربية ودورها في تنمية الصمود.

المقدمة في مؤتمر التنمية من أجل الصمود - الملتقى الفكري العربي (القدس:١٩٨١)

يستعرض الكاتب في مقدمة الدراسة أهمية النقابات في قيادة جماهير العمال في المعركة الوطنية ضد الاحتلال وفي حماية مصالح العمال وحقوقهم، ويؤكد بشكل خاص على أهمية تأطير النقابات العمالية العاملة في مختلف قطاعات الإقتصاد في الاتحاد العام للنقابات في تطوير ورص صفوف الطبقة العاملة في التصدي لمحاولات التهجير وفرض الحلول المناقضة

Digitized by Birzeit University Library

لمصلحة الشعب الفلسطيني، ومواجهة خطط الهستدروت في محاولاتها لاحتواء عاملي الأرض المحتلة. وأشار إلى الدور الطليعي للاتحاد في التأكيد على وحدة الشعب الفلسطيني وبوحدانية وشرعية تمثيله من منظمة التحرير الفلسطينية، وإلى الملاحقات التي تعرض لها قادة الاتحاد من قبل سلطات الاحتلال. واعتبر الكاتب أن تعزيز دور النقابات وزيادة هيبتها ونفوذها وتوسيع تمثيلها يستجيب لأعمق المصالح الوطنية والقومية للشعب الفلسطيني.

تهدف الورقة إلى تحديد سبل تفعيل دور النقابات في معركة الصمود الفلسطيني، وبخاصة تحديد كيفية زيادة عضوية النقابات العمالية في الضفة الغربية بحيث تضم أكبر نسبة ممكنة من العمال، وتفعيل دور هذه النقابات في عملية دعم صمود العمال في المناطق المحتلة والإسهام في خلق الظروف المناسبة من أجل الحيلولة دون هجرة العمال أو التقليل منها على الأقل.

اعتمد الباحث في تحقيق أهداف الورقة على ثلاث مجموعات رئيسية من المصادر وهي:

أ. الإحصائيات الرسمية الصادرة عن دائرة الإحصاءات المركزية الإسرائيلية سواء المتعلق منها بإسرائيل أو المناطق المحتلة؛

ب. النتائج الأولية لتحليل استمارة قمنا بتعبئتها شملت جميع المنتسبين للنقابات العمالية في البلاد من أواسط عام ١٩٦٧ وحتى آخر عام ١٩٨٠.

ج. السجلات الرسمية لنقابات العمال في الضفة وفي القدس ومقابلات شخصية أجراها الباحث مع قادة نقابيين من مختلف النقابات، بالإضافة إلى مراجعة العديد من المراجع والأدبيات والنشرات الإحصائية المختلفة.

يستعرض الكاتب بعد ذلك تأثير الاحتلال الإسرائيلي في البنية الإقتصادية والاجتماعية وخصوصاً اتساع نطاق نمط الانتاج الرأسمالي، وما رافقها من توسع في العمل المأجور بنسبة بلغت ٥٧,٨٪ خلال الفترة ١٩٦٩-١٩٧٩، وبين أسباب ذلك التي كان أهمها الانفتاح على الإقتصاد الإسرائيلي، وزيادة الطلب على قوة العمل الفلسطينية. وبين أن إجراءات الاحتلال في السيطرة على الأراضي والمياه في الضفة الغربية، وارتفاع الأسعار والغلاء الفاحش الذي ضرب أسواق الضفة بسبب الوضع الإقتصادي في إسرائيل وعدم استطاعة آلاف مؤلفة من

Digitized by Birzeit University Library

الفلاحين توفير الحاجيات الضرورية اعتماداً على إنتاجهم الزراعي ذي البنية الإقتصادية المختلفة الأمر الذي دفع بأقسام كبيرة منهم إما إلى التوقف عن العناية بالأرض أو إلى البحث عن مصدر إضافي ثانٍ للدخل عن طريق بيع قوة عملهم وخاصة في سوق العمل الإسرائيلية. وبالإضافة الى ذلك فقد تدهور الإنتاج الصغير وخاصة في المدن لعدم قدرته على منافسة المؤسسات الرأسمالية المتوسطة والكبيرة سواء المحلية منها أو الإسرائيلية من جهة، وبسبب الضرائب المختلفة الأنواع والتسميات التي تفرضها سلطات الاحتلال على سائر المؤسسات في الضفة من جهة أخرى. وقد اضطر قسم كبير من هؤلاء الحرفيين للانضمام إلى سوق العمل المأجور. وبيّن الكاتب أن عدد العاملين بأجر في الضفة كان يمكن أن يكون أكبر مما أوردناه لولا الهجرة إلى الخارج بسبب النهوض الذي شهدته دول الخليج آنذاك بسبب ارتفاع أسعار النفط.

يشير الباحث إلى أن زيادة العمل المأجور شكلت أحد الشروط الضرورية لتطور الحركة النقابية الفلسطينية، ويقدم عرضاً بأسماء النقابات العشر الناشطة في عام ١٩٨٠، وعدد الأعضاء فيها قبل وبعد الاحتلال. ويلاحظ هنا أن عدد المنتسبين تضاعف ٢٩ مرة بعد الاحتلال، حيث ارتفع من ٤٤٤ عضوا قبل الاحتلال إلى ١٢٩٢٦ عضوا في نهاية عام ١٩٨٠. وتركز ٣٧,٣٪ منهم في القطاع الصناعي، و٢٣,٦٪ في قطاع الإنشاءات، و١٦,١٪ في قطاع الخدمات، و١٠,٨٪ عاملين في إسرائيل. وبين الباحث أن السلطات الإسرائيلية وجدت ضالتها في قانون العمل الأردني رقم ٢ لعام ١٩٦٥ لمنع موظفي الحكومة والمستخدمين في الأعمال الزراعية والري من إقامة نقاباتهم الخاصة بهم. وحول عدم إقبال العاملين في الضفة الغربية على الانتساب، بين الباحث أن معدل عدد المنتسبين للنقابات بلغ ٥٠٪ من إجمالي العاملين المؤهلين قانونيا للانتساب لها في الضفة الغربية. وتفاوتت النسبة من ٥٦,٣٪ لعاملي الصناعة و٢٧٪ لعاملي الإنشاءات و٥٢,٦٪ لعاملي الخدمات، وفي جميع الأحوال تعتبر تلك النسب مرتفعة جدا بالمقارنة مع الكثير من الدول الأخرى. وبالمقابل يشير إلى أن نسبة المنتسبين للنقابات من العاملين في إسرائيل متدنية جدا (٣,٥٣٪).

استخدم الباحث مؤشر تسديد الاشتراكات لقياس درجة التزام الأعضاء بشروط العضوية. ويبين أن نسبة المسددين بلغت ٢٦,٥٪ عام ١٩٨٠. وتفاوتت تلك النسبة من نقابة لأخرى وفيما بين المناطق أيضاً. وبين أن أسباب ضعف الالتزام بتسديد الاشتراكات يعود إلى ضعف

Digitized by Birzeit University Library

الخدمات التي تقدمها النقابات بسبب شح الأموال، وبسبب الطبيعة الحرفية لمعظم المنشآت، والتي توظف عدداً قليلا من العاملين، وطغيان العامل الوطني في العمل النقابي، واستهداف العمل النقابي من سلطات الاحتلال، وغيرها من الأسباب المتعلقة بضعف نضج البيئة المواتية للعمل النقابي. ولكن الباحث يؤكد بأنه وعلى الرغم من العوامل المثبطة لانطلاق العمل النقابي، فإنه توجد نقاط مهمة مشجعة له وأهمها: زيادة الوزن النسبي والمطلق للطبقة العاملة، أهمية الدور الوطني للنقابات؛ التوعية والتثقيف التي يقوم بها نشطاء الحركة النقابية؛ صغر رقعة البلاد وسهولة الاتصالات، والتأثير الملهم للحركة النقابية العالمية. ويختتم هذا الفصل بتقديم عدد من الاقتراحات لزيادة ربط العمال المنتسبين للنقابات وزيادة مشاركتهم في الفعاليات المختلفة للنقابات والعمل على تسديد اشتراكاتهم بانتظام يمكن أن يشكل الهدف الواقعي الملموس الذي تستطيع النقابات تحقيقه.

ويشير الباحث إلى أهمية استجابة النقابات لتلبية بعض الخدمات الأساسية لأعضائها، شأنها كشأن النقابات في العديد من البلدان الأخرى، ومنها:

١- تلبية احتياجات العمال من الخدمات الصحية الأساسية:

في ظل غياب الدولة المستقلة التي تقوم أجهزتها بتوفير العناية الصحية لمواطنيها وبضمنهم العمال، ومع تردي الخدمات الصحية ووضع العيادات والمستشفيات الحكومية التي تنفق عليها ميزانية الحكم العسكري وقصور مشروع «التأمين الصحي» الحكومي عن تقديم المساعدة الطبية للذين يحتاجونها وبالشكل الذي يفي بالغرض المطلوب، يبرز دور المؤسسات الاجتماعية للاضطلاع بتوفير تلك الخدمات الصحية لجمهورها. واتحاد نقابات العمال في الضفة الغربية الذي يضم جماهير غفيرة من العمال لا يقل عددهم مع أفراد عائلاتهم عن ٨٠ ألف شخص يمكنه توفير الخدمات الصحية لهذا الجزء من السكان.

٢- المساهمة في الإشراف على توزيع مخصصات دعم الصمود:

واجهت طريقة توزيع مخصصات دعم الصمود العديد من الانتقادات من قبل فئات اجتماعية متعددة في البلاد وخاصة تلك الأقل يسراً والأكثر معاناة. وبالتالي فإن تحقيق أهدافها لم يكن وفق التوقعات. فتوجيه الدعم إلى أصحاب الصناعات والمؤسسات الأخرى العاملة في الضفة الغربية - على أهميته وضرورته بسبب دورها في فتح فرص العمل -

Digitized by Birzeit University Library

يجب أن يترافق مع أخذ احتياجات العاملين بعين الاعتبار؛ كاشتراط موافقة المؤسسات على توفير حد أدنى من الأجور للعاملين لديهم يؤمن الحاجات الأساسية الكريمة، ويوفر لهم مقومات البقاء في الوطن. ويمكن أن تساهم النقابات العمالية في الإشراف على توزيع هذه المخصصات بحيث تصل إلى مستحقيها فعلاً؟

٣- حل أزمة السكن:

إن أزمة السكن في الضفة الغربية مستعصية ولا حاجة بنا لإثبات هذه الحقيقة فهي مسألة متفق عليها ويكاد العمال وعائلاتهم يكونون الأكثر تضرراً من هذه الأزمة. ومما يزيد من حدة المشكلة بالنسبة للعمال أن جمعيات الإسكان القائمة حالياً والمشاريع التي تقام تشترط بعض الالتزامات المادية على أعضائها بما يفوق قدرة العمال يحرمهم من الاستفادة منها.

تكمن أهمية توفير السكن الملائم وبتكلفة معقولة تقلل من أعباء العاملين المالية أنها تزيد من فرص بقائهم في البلاد وتحد من اضطرارهم للهجرة خارج وطنهم. ولضمان استفادة العمال من مشاريع الإسكان لا بد من إشراك النقابات نفسها في اختيار المنتفعين من بين العمال وتحديد أشكال البناء التي تتلاءم مع إمكانياتهم واحتياجاتهم.

٤- إنشاء جمعيات استهلاكية:

إن إنشاء مثل هذه الجمعيات أو نوع من دكان المستهلك يكون تابعاً للنقابات العمالية تبيع سلع الاستهلاك الأساسية للعمال بسعر التكلفة مضافا إليه نسبة معينة من الربح لتغطية النفقات المترتبة على تقديم هذه الخدمات هو مسألة جد هامة بالنسبة لتخفيف الضائقة الإقتصادية التي تنوء تحت وطأتها جماهير العمال. فهو من ناحية يخفف من معاناة العمال ويزيد من فرص صمودهم في الوطن ومن ناحية أخرى يعزز ارتباط العمال بنقاباتهم.

٥- القيام بدورات لمحو الأمية بين العمال:

من المعروف أن عدداً معيناً من العمال أميون. وقيام النقابات بإجراء دورات لمحو الأمية سيساعد على القضاء على هذا العدو الذي يحد من إمكانية التطور الذهني والثقافي لدى

Digitized by Birzeit University Library

العمال ويسهم في زيادة وعيهم، وبالتالي القيام بواجبهم نحو شعبهم ووطنهم على خير وجه. وستكون هذه الدورات مدخلا لتوثيق صلة النقابات بالعمال ولنشر الثقافة العمالية بين صفوفهم.

٦- مساعدة الحرفيين على تشكيل جمعيات تعاونية إنتاجية:

تستطيع النقابات العمالية تقديم يد العون والمشورة للحرفيين من أعضائها ولمجموعات أخرى من الحرفيين ومساعدتهم على إنشاء جمعيات تعاونية إنتاجية تحافظ على هذا النمط الإنتاجي وحمايته من الاضمحلال.

ويستدرك الباحث في ختام توصياته العملية الهامة بأن لا تقصر النقابات مجال عملها على تقديم الخدمات المذكورة لأعضائها بل يجب أن تسير هذه الخدمات جنبا إلى جنب مع العمل على تنفيذ الأهداف الرئيسية المتضمنة في برامجها، وخصوصا تنظيم العمال وقيادة نضالهم في التصدي للاحتلال ومشاريعه، ومن أجل الاستقلال الوطني والدفاع عن حقوق العمال ومصالحهم ضد تطاولات أصحاب العمل الإسرائيليين ووكلائهم المحليين ومتعهديهم الفرعيين، وضد ممارسات ذلك القسم من أصحاب العمل المحليين الذي لا يرى في العمال سوى مصدر للإثراء فقط.

ثانيا: تلخيص للتعليقات والمقالات الصحفية:

١. القضايا العمالية

أولى أبو فجر قضايا الطبقة العاملة اهتماما خاصا، وظل يحث العمال على توحيد صفوفهم في النقابات العمالية كمتطلب ضروري ليس فقط لتطوير دورهم الوطني في مواجهة الاحتلال وحسب، بل ولمواجهة التحديات المعيشية التي تواجههم، وخصوصا تآكل أجورهم المتدنية والتي كانت أقل من نصف أجور أقرانهم في إسرائيل، وبسبب الارتفاعات المتسارعة في الأسعار التي شهدتها الأرض المحتلة في أواخر السبعينات. وكتب عن استغلال سلطة الحكم العسكري، التي جرى تسميتها آنذاك بـ «الإدارة المدنية»، لموظفيها الفلسطينيين العاملين في التعليم والصحة والخدمات الأخرى: أنه «لم يعد باستطاعة أحد التغاضي عن

Digitized by Birzeit University Library

الوضع السيء الذي يعيش في ظله الألوف من موظفي الأجهزة الحكومية المختلفة. وتابع كتاباته عن نضالهم لزيادة رواتبهم الضئيلة أصلاً عن طريق تقديم العرائض والمذكرات إلى المسؤولين.» وعن تلكؤ تلك السلطات في دراسة مطالبهم. وأضاف أن «ارتفاع الأسعار المتسارع والجنوني سيبتلع كل زيادة يمكن أن تصرف للموظفين. وثابر على حث الموظفين على التعجيل في ـ» تبني طرق العمل الجماعي وإنشاء نقاباتهم ووضع المطالب التي تمكنهم من مواجهة الظروف المعيشية والغلاء المتصاعد، هو الطريق المجرب الذي يمكنهم السير فيه» لحقيق أهدافهم. (الطليعة العدد ٤، ٢٣ آذار ١٩٧٨).

وتحت عنوان «كيف يمكن مواجهة الغلاء» كتب أبو فجر أنه «ليس من حاجة إلى التأكيد بأن الأحوال المعيشية لجماهير المواطنين في المناطق المحتلة تتردى باستمرار. فهي حقيقة يلمسها كل مواطن خاصة أولئك الذين يتقاضون أجورهم بالليرة الإسرائيلية وهم الأكثرية الساحقة من الشغيلة في بلادنا... ولعل السبب الرئيسي في عدم تمكن جمهور العاملين من تحقيق زيادات في أجورهم الحقيقية يكمن في عدم السير في نضالاتهم التي ذكرناها إلى نتيجتها المنطقية التي تتمثل في اللجوء إلى الإضراب عن العمل متى كان ذلك ممكنا وقادرا على التأثير. إن الإضراب عن العمل هو حق طبيعي اكتسبته جماهير الشغيلة خلال نضالاتها الطويلة في معظم بلاد العالم.» (الطليعة العدد ٣٧، ١٦ تشرين الثاني ١٩٧٨).

وحول أساليب تكيف الموظفين مع مشكلة انخفاض الرواتب وتآكلها بسبب ارتفاع الأسعار، كتب في زاويته (الطليعة العدد ٤٢، ٢١ كانون الأول ١٩٧٨) عن حالة المعلم الجامعي الذي يعمل في أحد المدارس الثانوية في نابلس الذي لجأ للعمل حمالا بعد انتهاء دوامه في المدرسة للتمكن من تلبية احتياجات أسرته الأساسية. وأكد على أن المسؤول عن هذه المأساة هو تدني مستوى رواتب الأجيرين والمعلمين والموظفين في البلاد. المسؤول هو الغلاء الفاحش الذي يبتلع بنهم وجشع قوت الأطفال والمسؤول عن هذا وذاك وعن غيرها من الأمور الشاذة التي نعيش في ظلها. وقارن هذا الوضع مع الوضع في المدارس الإسرائيلية (الطليعة العدد ٤٣، ٢٨ كانون الأول ١٩٧٨) التي يتقاضى فيها معلم الابتدائية أكثر من ضعف راتب المعلم الفلسطيني، مع العلم أن تكاليف المعيشة متقاربة بسبب إلحاق السوق الفلسطينية بالسوق الإسرائيلية. وأشار إلى أن المعلمين في المدارس الإسرائيلية حصلوا بعد إضرابهم عن العمل على زيادة بنحو ٣٥٪ من الراتب، بينما اقتصرت الزيادة على

Digitized by Birzeit University Library

١٢,٥٪ للمعلمين في الأرض المحتلة في الوقت الذي سجل ارتفاع الأسعار منذ بداية عام ٨٧ وحتى شهر تشرين أول ٣٨,٨ بالمئة، ومن المتوقع أن تتراوح هذه الزيادة ما بين ٤٠-٥٠ بالمئة حتى نهاية العام المنصرم. وهذا يعني أن الزيادة المصروفة لن تسد وفي أحسن الأحوال سوى ثلث الارتفاع الحاصل في الأسعار، ناهيكم عن المستوى المتدني أصلا لرواتب العاملين الفلسطينيين في الأجهزة الحكومية.

وفي مداخله حول ظاهرة هجرة الأيدي العاملة (الطليعة العدد ١٠، ٤ أيار ١٩٧٨) أشار أبو فجر إلى ما نشرته الصحف المحلية عن بلوغ معدل هجرة اليد العاملة في الضفة الغربية إلى الخارج حوالي ١٤ ألف عامل في العام ١٩٧٧. وطالب بعدم الاكتفاء بإطلاق الشعارات الحماسية حول ضرورة الصمود وأهميته ومناشدة الراغبين في الهجرة على العدول عن رغبتهم. وطالب بالبحث في «توفير الظروف الإقتصادية والمعيشية المناسبة - ولا نقول الممتازة - بالنسبة لهؤلاء المواطنين بحيث تشجعهم على البقاء في الوطن من خلال إقامة المشاريع الإقتصادية المنتجة هو الطريق المجرب لتوفير فرص العمل للمواطنين. وأنه بالإمكان، حتى في ظل الظروف الاستثنائية الراهنة، تحقيق بعض هذه المشاريع وذلك عن طريق جلب المساعدات من الدول العربية المعنية حقاً بصمود مواطنينا فوق هذه الأرض. إن تقديم مثل تلك المساعدات الهادفة هي المحك الحقيقي لمدى جدية الشعارات التي تطرح حول دعم الصمود ومساندة الأشقاء.»

٢. القضايا التنموية

أ. أهمية المعلومات للتنمية

أكد أبو فجر على أن أية محاولة لوضع الحلول العلمية للمشاكل السياسية والاجتماعية التي تعاني منها بلادنا تتطلب عمل تحليل اقتصادي مستند إلى المعلومات والإحصاءات ذات المصداقية، وشكك بالبيانات المتوفرة المستندة للإحصاءات الإسرائيلية. وطالب بجمع المعلومات عن كافة أوجه حياتنا الإقتصادية والاجتماعية والثقافية وغيرها. وأشار إلى أهمية تنفيذ مبادرة بعض المختصين في جامعة بيرزيت في إعداد مشروع إقامة «بنك معلومات» من خلال إجراء مسح اقتصادي اجتماعي في الضفة الغربية لإفادة المختصين والباحثين. وحث المؤسسات والأفراد في الخارج على دعم هذا المشروع الهام لإطلاق العمل التنموي (الطليعة العدد ١١، ١١ أيار ١٩٧٨). كما حث البلديات التي باتت تتمتع في تلك الفترة

Digitized by Birzeit University Library

ببعض الدعم العربي إلى الاهتمام بإنعاش الأوضاع الإقتصادية وزيادة القدرة الإنتاجية من خلال العمل على إقامة مشاريع إنتاجية قادرة على توفير فرص عمل جديدة ودائمة، الأمر الذي سيوسع دائرة الطلب على العديد من السلع الأخرى. (الطليعة العدد ١٣، ٢٥ أيار ١٩٧٨) كما لفت الكاتب الانتباه إلى الدور الذي يمكن للجمعيات التعاونية القيام به. وأكد على أن فلسطين بحاجة إلى نوع معين من الجمعيات التعاونية الذي يساهم فعلاً في حشد الطاقات الفردية للمواطنين وتوجيهها نحو خدمة المجتمع وفي التخفيف من الضائقة الإقتصادية التي يمر بها المواطنون. ولعل التجربة الناجحة للجمعية التعاونية الاستهلاكية في بيت جالا أن تكون جديرة بالدراسة والتعميم واستخلاص العبر. (الطليعة العدد ١٤، ١ حزيران ١٩٧٨)

ب. أهمية المصارف

وتعليقا على ما ذكرته الصحف المحلية في مطلع عام ١٩٧٩ (الطليعة العدد ٤٧، ٢٥ كانون الثاني ١٩٧٩) عن الاتصالات التي جرت بين بعض شخصيات الضفة الغربية وبعض أصحاب البنوك في عمان لفتح فروعها في الضفة الغربية اعتبر الكاتب موافقة البنوك المبدئية على الفكرة بارقة أمل هامة للتنمية. وأشار إلى أن الكثير من المؤسسات الصناعية في المناطق المحتلة تتعرض إلى صعوبات حقيقية في تعاملها مع البنوك الإسرائيلية العاملة في الضفة والقطاع التي لم تتح للشركات الفلسطينية أية فرصة لتمويل المشاريع الإنتاجية. وإن العديد من المشاريع الممكنة التنفيذ بقيت حبرا على ورق بسبب صعوبة التمويل والافتقار إلى التسهيلات النقدية والمالية التي يمكن ان تقدمها البنوك. كما رأى ان إقامة بنوك برأسمال عربي في الضفة والقطاع يمكن ان يساهم مساهمة جدية في تعزيز الإقتصاد الوطني المحلي وفي تحقيق أكبر قدر ممكن من الاستقلالية له. وهذا من شانه أن يساعد في التخفيف إن لم يكن الحد من عديد من المظاهر السلبية والخطيرة كهجرة اليد العاملة والبطالة والاضطرار إلى اللجوء إلى سوق العمل الإسرائيلية.

٣. القضايا العربية

لم يقصُر أبو فجر اهتمامه ومتابعته على الإقتصاد الفلسطيني، بل تعداه ليشمل الإقتصادات العربية والدولية أيضاً. ولكن كتاباته التي وصلنا لها اقتصرت على إبراز بعض النجاحات والتحديات الهامة في بعض بلدان المشرق العربي.

Digitized by Birzeit University Library

أ. سد الفرات- «السد العالي السوري»

كتب أبو فجر في زاويته (الطليعة العدد ٥، ٣٠ آذار ١٩٧٨) عن تدشين سد الفرات (سد الطبقة) في سوريا الذي بني بمساعدة الاتحاد السوفياتي على غرار السد العالي في مصر باعتباره واحدة من قصص النجاح الهامة في سوريا والمنطقة. وذكر أن هذا السد سيتيح خزن كميات كبيرة من المياه التي من شأنها ري عشرات الآلاف من الدونمات. كما سيولد طاقة كهربائية تكفي لتشغيل العشرات من المصانع الجديدة، ولإنارة مئات القرى بالتيار الكهربائي. وسيفسح المجال أمام تكثيف الجهود الرامية إلى تجميع الزراعة وإنشاء المزارع التعاونية والمزارع الحكومية. واعتبره نموذجا جديدا للتعاون العربي السوفياتي الهادف للنهوض بنوعية الحياة في الوطن العربي وتوسيع آفاق حركة التحرر الوطني العربية على طريق بناء الحياة السعيدة والمتقدمة لشعوبه.

ب. العلاقة بين الإقتصاد والسياسة في العراق

عبر الكاتب هنا عن مخاطر عدم الانسجام بين تصرفات حكومة العراق المعادية للديموقراطية والتي شملت اغتيالات لعدد من ممثلي منظمة التحرير الفلسطينية والهجوم على مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية في بعض البلدان ونصب المشانق للشيوعيين في العراق...وبين الإنجازات الإقتصادية التي شهدها العراق خلال سبعينات القرن الماضي، والتي تميزت بتطوير القطاع العام، والتي تقتضي اتباع نهج مغاير لما هو متبع في العراق اليوم.

وأكد الكاتب على أن العلاقة بين الإقتصاد والسياسة علاقة جدلية بين جانبين يؤثر أحدهما على الآخر ويتأثر به، ورغم أن العامل الإقتصادي هو الأساس فليس غريباً أن يمارس الجانب السياسي المغاير تأثيراً مضاداً على العامل الإقتصادي بحيث يفقده محتواه التقدمي أو على الأقل يعرضه لخطر الانتكاسة. ورأى الكاتب أن «ما يحدث في العراق الآن، هو كما حدث في مصر وعدد آخر من دول العالم الثالث من قبل، وأدى إلى انتكاسة الثورات فيها. (الطليعة العدد ٢٤ ، ١٠ آب ١٩٧٨)

Digitized by Birzeit University Library

غسان حرب.. المناضل والإنسان النبيل

د. محمد القهوجي

عندما فكرت في الكتابة عن المناضل غسان حرب الذي لم أعرفه في حياته .. كانت تراودني الخواطر كيف لي أن أبدأ في الكتابة عن مناضل أمضى عمره كله بالعمل من أجل الوطن. إن الكتابة هنا بالغة الصعوبة لأنها لا توفي هذا الإنسان حقه؛ الإنسان النبيل الذي يعرفه الكثير من أبناء شعبه والكثير من زملائه في الجامعة، وكذلك الكثير من تلاميذه الذين درّسهم وساهم في توسيع معرفتهم، وكذلك رفاقه الذين عاشوا معه.

خمس وثلاثون سنة مضت على رحيل هذا المناضل الذي بقي حياً في ضمير شعبه ورفاقه، ومن هنا استلهمتُ فكرتي في الكتابة عنه ولكن من خلال إنتاجه الثقافي الإقتصادي الكبير الذي تركه وراءه، هنا كانت الوسيلة التي بدأت من خلال تجميع كل ما أصدره غسان حرب. وإعادة تقديمه لشعبه مرة أخرى من خلال الموضوعات التي لمس في معظم جوانبها المشاكل التي يعيشها شعبنا في ظل الاحتلال وضخامة المؤامرة على هذا الشعب، وواصلت كتابتي عنه من خلال أهله الذين غذّوني بالكثير من معالم طفولته، وكذلك زوجته الفاضلة عفاف، وابنه فجر الذي جمع لي كل شيء موجود في بيتهم، كل هذا ساعد في أن أقوم بمواصلة الكتابة عن مناضل عريق وصديق وأب وأخ عطوف.

كذلك؛ ليس من قبيل الصدفة أن رفاق وأصدقاء غسان الكثيرين مدّوا لي يد العون من خلال تأبينهم لهذا المناضل الكبير.. كل هذا أخرج هذه الصفحات عن المناضل غسان، ولكن من خلاله هو ومن خلال إنتاجه، فلا يسعني هنا إلا أن أقوم بالشكر لكل الذين مدّوا لي يد العون في ذلك.

من خلال بحثي استعنت بما كتبه الأستاذ طلعت حرب؛ شقيق المرحوم غسان، عن طفولة

Digitized by Birzeit University Library

غسان في كتابه «صفحات من الذاكرة الفلسطينية» الذي خصّ فيه المرحوم بصفحات أحاول أن أستعير منها وأن أسترشد بها عن طفولة غسان:

ولد المرحوم غسان حرب في التاسع والعشرين من شهر آذار عام ١٩٤٠ في مدينة رام الله، وهو السادس بين أخوته وأخواته ، أولهم حرب، ثم طلعت، غاندي، عبلة، عنبرة، وقبل الأخير غسان الملقب بأبي الفجر، بعده شقيقته نبيلة. ولد غسان على رأس شقيقته عنبرة، التي كانت تكبره بثلاث سنوات.

يقول طلعت: كبر أخي غسان، وترعرع، وكان دائم الحركة ونشطاً جداً لا يترك شاردة أو واردة إلا تدخل فيها متسائلاً مستفسراً، لدرجة أن أمه كانت تتضايق منه، وغالباً ما كانت تناديه بالمشاغب، وكثير الغلبة، وتقول له: حظك زحل، من أول يوم انت خلقت على هالدنيا ماتت اختك. ولم يتجاوز غسان العاشرة من عمره بعد.. ويتابع طلعت الحديث عن أخيه: يبدو أن غسان وقعت عيناه على كتاب يبحث في أصل الإنسان لداروين، فتسلح من الكتاب بعبارة، كثيراً ما كان يرددها على أمه مازحاً «ليش زعلانة على موت عنبرة يا أمي، البقاء للأصلح».

يتابع الأستاذ طلعت ويقول: خلال فترة الهجرة من عكا إلى جزين في لبنان، التي قضينا فيها ستة أشهر، كان عمر غسان لا يتجاوز الثماني سنوات، كان من عادته أن يلعب مع أولاد الحارة، اللبنانيين واللاجئين الفلسطينيين هناك، تقع ضيعة جزين على منحدرين، وكان فيها بعض البيوت التي تقع تحت الطريق الرئيسي، حيث تلامس سطوحها مستوى الطريق. في أحد الأيام كان غسان يلعب الكرة مع أبناء جيله من الأولاد، يتدربون على تلقي الكرة بالرأس وردها ثانية، ولما كان غسان واقفاً على أحد تلك الأسطحة جاءته الكرة عالية يقتضي تلقيها الرجوع إلى الخلف عدة أمتار، وما أن عاد مسرعاً إلى الوراء حتى سقط من على سطح البيت، فأصيب بكسور متعددة بفكه السفلي، وتكسرت بعض أسنانه، وفي الحال استدعينا والدي الذي أخذه مسرعاً إلى مستشفى الجامعة الأميركية في بيروت.

ويتابع طلعت في الاستذكار قائلاً: مكث غسان هناك أسبوعين، عاد بعدها إلى البيت في جزين، ليقوم طبيب الأسنان الدكتور سلمان ناصيف بتركيب «ضبّة» لأسنانه بدل المكسرة، حتى تساعده في مضغ الطعام. بقي على هذه الحال، يعاني من فكه الأسفل حتى أواخر أيام حياته. وأثناء مظاهرة بمناسبة الأول من أيار عام ١٩٥١، اشتبك المتظاهرون، وكنت أنا واحداً منهم مع رجال الشرطة، وسط المدينة في المنارة، كان قائم مقام المدينة سعيد الدجاني، يحاور قادة المظاهرة على التفرق دون مشاكل. وكان غسان وبعض تلاميذ الكلية

Digitized by Birzeit University Library

الوطنية مارين في تلك اللحظة من الميدان، فاقترب من هذا الحشد، وراقب ما يجري، حدثت ملاسنة بيني وبين القائم مقام، تطورت إلى رفع الأيدي، وما لبث أن بدأ أخي غسان يضرب برجليه ساق القائم مقام، قائلاً له: «اترك اخوي طلعت».

كانت أول مدرسة التحق بها غسان هي مدرسة أهلية في ضاحية الحدث قرب مدينة بيروت، وكان في الصف الثاني، ومن اللغات الأساسية التي يتلقاها الطالب منذ الصف الأول اللغة الفرنسية، وبعد أكثر من عشر سنوات من ذلك التاريخ، وعندما تشكلت صفوف تعليم اللغات في معتقل الجفر الصحراوي، كان غسان أحد الطلاب الذين دأبوا على مواصلة دراسته والتحق بها.

وبعد عودتنا إلى رام الله التحق غسان بالكلية الوطنية التي أسسها، ورعاها المرحوم الأستاذ خليل أبو ريا، وكان مقرها ما تشغله دائرة السير سابقاً قرب دوار الشباب. كانت درجته في الصف هي الأولى منذ التحق بالثالث الابتدائي حتى السابع في الكلية الوطنية، وقد شجعته الكلية على مواصلة دراسته في مدرسة الفرندز للذكور، أنهى فيها الثالث الثانوي، ثم اعتقل اعتقالاً إدارياً من قبل متصرف لواء القدس حسن الكاتب، مدة ثماني سنوات، وقدم امتحان الدراسة الثانوية في السجن، وانتسب أبو فجر إلى أشبال سرية رام الله الأولى، وكثيراً ما كان يساهم في نشاطات السرية طيلة عضويته فيها. وقد احتفظ بشارات وميداليات فرقته، وأسماء أعضائها، وصورهم وتقارير متعلقة بنشاطاتهم.

وقد اهتم المناضل غسان حرب بقضايا شعبه، ومن هذه القضايا نعدد الأمثلة التالية: قضية هجرة اليد العاملة، هجرة رؤوس الأموال، والدفاع عن الأرض، وفضح القوانين الإسرائيلية التي تستهدف تسهيل مصادرة الأراضي وتسربها إلى أيادٍ صهيونية، كقرار إلغاء وكالات أملاك المغتربين وغيره، والدفاع عن الفلاحين والمزارعين والاهتمام بقضاياهم اليومية الإقتصادية، مثل قضايا التسويق، والانتاج والأسعار وغيرها.

كما اهتم أبو الفجر بمشكلة الإسكان ومعالجاته المتعددة لها في المناطق المحتلة، وقضايا التنمية الإقتصادية، ووضع الطبقة العاملة والنقابات العمالية.

كما عالج في كتاباته حول العلاقات الإقتصادية الدولية ودور الاحتكارات والشركات متعددة الجنسية، واقتصاديات العالم الثالث.

كما هاجم أبو الفجر سياسة الانفتاح الإقتصادي الساداتية في مصر منذ بداية تطبيقها، وكان أبرز وأهم معالجاته الإقتصادية من على صفحته الإقتصادية في جريدة الطليعة، تصدّيه

Digitized by Birzeit University Library

للحجج والمغالطات الإقتصادية التي كان يسوقها البعض ضد قيام دولة فلسطينية مستقلة، في الضفة الغربية وقطاع غزة. كان غسان بارعاً في قراءة الإقتصاد ولذلك كان يجيد قراءة التاريخ.

في عددها الأسبوعي في ٢٧ نيسان ١٩٧٨ السنة الأولى عدد ٩، واصل غسان معالجاته من خلال عموده المعروف «تحت المجهر».

كيفية الاحتفال بالأول من أيار.

يشمل هذا العيد قطاعات واسعة من المواطنين في الأراضي المحتلة، وتتحول هذه الذكرى الى مساهمة جماهيرية واسعة بحيث تجعل عيد العمال عيداً وطنياً، ومناسبة شعبية.

وفي عدد الطليعة السنة الأولى عدد ١٢ لعام ١٩٧٨: «يتحدث غسان عن تكاليف الصحة في ظل المجتمع الرأسمالي، حيث إن المتتبع لهذه الدول يرى زيادة مضطردة في نسبة المصاريف التي يتحملها المواطن العادي على العناية الطبية، وقد يتصور المتتبع لهذا الحدث للوهلة الأولى أن هذا دليل على تحسين الأوضاع الصحية للمواطنين، ولكن من خلال المؤشرات الإحصائية تبين أن زيادة المصاريف هذه إنما تكمن وتكون على حساب احتياجات الإنسان العادي من مأكل ومشرب وملبس وثقافة ..الخ.»

إن المعطيات والمؤشرات الهامة التي تشهد على الهجوم الشرس من قبل أرباب العمل على العمال يتمثل في الإصابات العديدة في صفوف العاملين، وذلك بسبب سياسة الإفراط التي يتطلبها رب العمل من العمال لزيادة الربح وتخفيض النفقات المخصصة لتحسين الظروف الصحية في الصناعة والوقاية من حوادث العمل.

وتحت عموده المعروف «تحت المجهر» في نفس هذا العدد ينبهنا أبو الفجر لانعقاد مؤتمر الغرف التجارية العربية، ويطلب ألا يتفنن العرب بعبارات الترحيب بالوفد الفلسطيني وبنضالات الشعب الفلسطيني، بل يطالبه بمساهمة فعلية في تخفيف الضائقة الإقتصادية التي تمسك بخناقه.

وفي نفس الصفحة يحذر من صندوق النقد الدولي الذي يعتبر شرطيًا لترويض المشاكسين في العالم.

إذ إن الاضطرابات الإقتصادية تزيد من تفاقم الأزمة النقدية، وانخفاض الإنتاج بنسبة كبيرة والتضخم المستديم وارتفاع حدة البطالة، غالباً ما تخلق الحاجة إلى قروض كبيرة، وإن

Digitized by Birzeit University Library

الديون غير المدفوعة في العالم الرأسمالي تتجاوز أكثر من ٢٠٠ مليار دولار، يعود قسم كبير منها إلى البلدان النامية.

وغالباً ما يكون وضع البلدان النامية صعباً عند دفع مستحقاتها، ما يتطلب منها العمل على تجميد أجور ورواتب الأكثرية الساحقة وتخفيض النفقات العامة على الخدمات الاجتماعية تخفيضاً حاداً، وباختصار شد الأحزمة على البطون، وتتحكم في الصندوق بالأغلبية الولايات المتحدة التي تُخضع الدول النامية لمصالحها لا الإقتصادية فحسب بل للاعتبارات السياسية كذلك.

وفي عدد الطليعة عدد ١٣ من السنة الأولى لعام ١٩٧٨ تطرق أبو الفجر وفي عموده «تحت المجهر » إلى بلديات الضفة الغربية، التي تقوم بتنفيذ المشاريع المدرجة في ميزانياتها والممولة أساساً من مساعدات مواطنينا في الخارج والدول العربية، فالسمة المميزة لهذه المشاريع هو كونها تصرف على شق وتعبيد الطرق وبناء المدارس والعناية بالنظافة ..الخ ولكن على الرغم من الأهمية في حاجتنا إلى ذلك، إلا أن هذا ليس كافياً لحل مشاكل البطالة، لأن الفرص التي توفرها هذه المشاريع تنتهي عند انتهاء العمل فيها، إلا أن عملية إنعاش حقيقية للأوضاع الإقتصادية في المناطق المحتلة وزيادة القدرة الإنتاجية فيها يعتبران أمرين ضروريين، وهذا يتطلب إقامة مشاريع إنتاجية قادرة على توفير فرص عمل جديدة ودائمة، الأمر الذي سيوسع دائرة الطلب على العديد من السلع الأخرى. رغم أننا ندرك أن عقبات كثيرة تقف أمام تنفيذ ما ذهبنا إليه، ولعل العقبات هو قانون البلديات الذي يحظر عليها القيام بفعاليات إنتاجية، ولكن هذا لا يمنع البلديات من دراسة هذه المسألة والاستعانة بالاختصاصيين في كافة المجالات من أجل وضع الحلول الملائمة وإنجاز الخطوات العملية الكفيلة بتنفيذ توصيات المختصين بما في ذلك العمل على إحداث تغييرات قانونية إذا لزم الأمر.

وفي نفس هذه الصفحة من الطليعة وفي الصفحة الإقتصادية التي يحررها أبو الفجر كتب يقول إن المساعدات التي تقدمها الدول الخليجية والسعودية أو دول البترول «تخيب أمام حكام مصر .. وذلك في احتداد الأزمة بين الطرفين لأن دول النفط ترفض زيادة مساعداتها لمصر.

إن الدول النفطية ومن خلال تعهداتها ووعودها بتقديم مساعدات كبيرة لمصر من أجل تعزيز المركز الإقتصادي لنظام السادات لم تتحقق، وتفيد كل المعطيات أن الدول النفطية لا تستثمر أموالها في المشاريع الإنتاجية وإنما في قطاع السياحة، وبناء الفنادق والشقق

Digitized by Birzeit University Library

الفخمة، ولقد اعترفت جريدة الأهرام بذلك، وكتبت تقول إن شروط القروض التي تمنحها هيئة الخليج لا تصلح على الاطلاق لتمويل المشروعات العمرانية كالمرافق الأساسية التي يحتاجها الإقتصاد القومي.

وكي لا أقطع على القراء متعة القراءة، فإنني أتركهم مع كتابات غسان كما صاغها بقلمه.

Digitized by Birzeit University Library

من كتابات غسان

الإقتصاد المصري إلى أين؟؟

غسان حرب / الطليعة ٢٨ أيلول ١٩٧٨

لم تكن اتفاقية كامب ديفيد والانفراد الساداتي بالتوصل إلى حل مع إسرائيل إلا تتويجا لحملة من السياسات الاجتماعية والإقتصادية التي دأب السادات على تطبيقها منذ توليه سدة الحكم.

وسنعرض فيما يلي لبعض ملامح هذه السياسة الإقتصادية الساداتية:

الاستثمار الأجنبي لا يخدم تطور الإقتصاد الوطني:

تمكنت مصر عبد الناصر وخلال نضال عنيد ومعارك قاسية من تحرير اقتصادها من سيطرة رؤوس الأموال الأجنبية. فقد أممت مصر عامي ٥٦ و٥٧ رؤوس الأموال والمشاريع الفرنسية والبريطانية التي كانت عاملة في البلاد. وفي عام ٦١ وبعد أحداث الكونغو وضرب الثورة الوطنية هناك واغتيال البطل الأفريقي باتريس لومومبا، قامت حكومة مصر بتمصير أو تأميم ما تبقى من الممتلكات ورؤوس الأموال الأجنبية. وهكذا لم يتبقَ في مصر أية شركة تابعة للرأسمال الأجنبي مما عزز من قدرة الإقتصاد المصري على تطوير اقتصاده الوطني المستقل.

وبعد مجيء السادات أصدر ما يسمى بقانون استثمار رأس المال العربي والمناطق الحرة في شهر أيلول من عام ٧١، وأعيد إصداره تحت اسم قانون استثمار رأس المال الأجنبي والمناطق الحرة في عام ٧٤.

وقد بنى النظام الساداتي توقعاته على أساس تدفق رأس المال الأجنبي على مصر وخاصة

Digitized by Birzeit University Library

بعد إصدار سلسلة من التشريعات المشجعة التي لا يتمتع بها حتى رأس المال المصري، مما أدى إلى اعتماد خطة التنمية ٧٨-٨٢ والبالغة استثماراتها ١٢ مليون جنيه مصري على الاستثمارات والقروض الأجنبية بنسبة ٧٠ بالمئة كما يقول الكاتب المصري محمد المراغي في مقاله بمجلة «الإقتصاد العربي» في عدد نيسان ١٩٧٨.

وقد وافقت هيئة استثمار المال العربي والأجنبي منذ إنشائها في عام ٧٤ وحتى منتصف عام٧٧ على ٦٤١ مشروعا للاستثمار داخل مصر وفي المناطق الحرة بلغ مجموع رساميلها (٢١٠٦) مليون جنيه.

هكذا كانت القرارات، إلا أن الوقائع تبيّن أن حجم رؤوس الأموال التي دخلت طور العمل بالفعل (تم تنفيذها أو تحت التنفيذ قد بلغ ما نسبته ٤٢ بالمئة فقط من مشاريع الداخل (مجموع المشاريع في البلاد - المشاريع المخصصة للمناطق الحرة) والتي بلغت ١٢٨٢ مليون جنيه مصري.

إن إلقاء نظرة على المجالات التي استُثمرت فيها رؤوس الأموال هذه سيساعد على توضيح الصورة. فقد جاء قطاع السياحة في المقام الأول حيث استأثر بمبلغ (٢٥٣,٣) مليون جنيه، وتليه شركات الاستثمار (١٦٧,٥) مليون ثم شركات الإسكان (١٤٥) مليون جنيه.

وباختصار كان النشاط المالي (البنوك وشركات الاستثمار) يحتل نحو ٢٠ بالمئة من رؤوس الأموال التي ووفق على استثمارها في مصر، وكان نشاط الخدمات (السياحة والإسكان والمقاولات والنقل والصحة) يحتل ٤٦ بالمئة من رؤوس الأموال، أما النشاط الصناعي فكان يحتل نحو الثلث فقط.

وتبين هذه الأرقام أن رأس المال الأجنبي لا يهتم إلا بالمشاريع التي تدر ربحا سريعا (السياحة، الإسكان، المقاولات ألخ..) في حين أن القطاعات الإقتصادية الأساسية التي يعتمد عليها الإقتصاد المصري كالصناعة والزراعة لا تحظى إلا بقدر بسيط من اهتمامات المستثمرين الأجانب.

وهكذا فإن سياسة فتح الأبواب أمام الاستثمارات الأجنبية لن تساعد على التطور الحقيقي للاقتصاد المصري وإنما تزيد وتعمق من تبعيته لرأس المال الأجنبي .

تشجيع المنتجات المستوردة يعرقل نمو الصناعة:

في مرحلة قيادة عبد الناصر للثورة المصرية خاصة بعد صدور إجراءات التأميم في تموز ٦٣

Digitized by Birzeit University Library

أنيطت التجارة الخارجية بالقطاع العام وحده، ومنع القطاع الخاص من إمكانية الاستيراد والمضاربة التي كان يحقق بواسطتها أرباحا هائلة على حساب الشعب المصري.

وفي ظل السادات ألغي احتكار الدولة للتجارة الخارجية وعادت فئة قليلة من كبار التجار والمستوردين لتتحكم بهذه التجارة.

وصل أرباح هذه الفئة أرقاماً خيالية حيث تبلغ نسبة ٥٠٠ بالمئة أو٦٠٠ بالمئة كما يقول عباس البدراوي في مقال نشرته «الإقتصاد العربي».

وقد أثارت الأرباح الخيالية التي يحققها كبار التجار والمستوردين المصريين ضجة كبيرة في مصر؛ الأمر الذي أرغم حتى وزارة التموين المصرية على إصدار قرار يهدف إلى تحديد نسب الربح على السلع التي يستوردها القطاع الخاص، ورغم صدور هذا القرار المعروف بقرار ١١٩ في شهر كانون الثاني عام ٧٧ فإنه لم يطبق حتى الآن.

فقد جوبه هذا القرار الذي يحدد معدلات ربح يتراوح ما بين ٣٠ بالمئة إلى ٤٠ بالمئة (فقط) بمقاومة ضارية من التجار الذين رفعوا ٥ قضايا على وزارة التموين، ومما يدل على التأثير السياسي الذي تتمتع به هذه الفئة هو بقاء القرار ١١٩ تحت المناقشة من شهر كانون أول ٦٧ وحتى الآن.

وليس من شك أن فتح الباب أمام البضائع الأجنبية لغزو السوق المصرية يضعف من إمكانيات تطور الصناعة المحلية المصرية، وذلك لما تتمتع به البضائع الأجنبية من قدرة كبيرة على المنافسة، بحيث تستطيع ضرب الصناعة الوطنية في مصر.

لقد أدت هذه السياسة إلى تذمّر العديد من الكتاب الإقتصاديين المصريين حتى أولئك المدافعين عن سياسة «الانفتاح الإقتصادي». فها هو عباس البدراوي يتساءل بحياء في مقاله ب «الإقتصاد العربي»:

«أليس من الغريب أن تصدر الولايات المتحدة الأمريكية تشريعاً جمركيا صارماً لحماية صناعة الحديد الأمريكية، في حين أن معظم البلدان النامية (واضح أن الكاتب يقصد مصر بالذات ولكنه خائف من تسمية الأمور بمسمياتها - المحرر) لا تسارع إلى تقديم كل حماية ممكنة لصناعتها الوطنية.»

يتبين مما تقدم أن الإقتصاد المصري يسير في مهاوي التردي في أحضان الرأسمال الأجنبي، ويناقض المصلحة الحقيقية لتطور الإقتصاد المصري.

Digitized by Birzeit University Library

مناورة جديدة للبنك الدولي
لتخدير الدول النامية
غسان حرب / الطليعة العدد ٤ (٢٣-٠٣-١٩٧٨)

أعلن روبرت مكنمارا رئيس البنك الدولي للإنشاء والتعمير أن البنك سيتبنى استراتيجية جديدة في سياساته المالية نحو العالم الثالث تهدف - كما تقول مجلة «جين افريك» - إلى «إعطاء الأولوية لتلبية الاحتياجات الأساسية للتطوير في الدول المتخلفة».

ومن بين الاستراتيجية الجديدة تفضيل الدول التي ترمي إلى اتباع سياسة فعالة في إعادة توزيع الدخل القومي.

إن نظرة بسيطة على تاريخ وممارسات البنك الدولي في علاقاته بالدول النامية تدل على أن وراء الأكمة ما وراءها.

تأسس البنك الدولي عام ١٩٤٤ في مؤتمر بريتون وودز من قبل ٤٤ دولة أعضاء في الأمم المتحدة بهدف تقديم المساعدات من أجل تطوير الدول الأعضاء. وبطبيعة الحال كان البنك خاضعاً لسيطرة أمريكا والاحتكارات الغربية، وكان بالتالي الأداة المالية التي تساعد على ممارسة سياسة النهب في العالم الثالث.

وفي حقيقة الأمر فإن معظم القروض والمساعدات التي قدمها البنك كانت تهدف إلى تخليد التخلف الذي يسم الدول النامية. ولا أدل على ذلك من حقيقة، أن مجموع دول العالم الثالث التي حصلت على ٤٠ مليار دولار من البنك الدولي خلال الثلاثين سنة الأخيرة تتميز أوضاعها بما يلي:-

٧٠٠ مليون إنسان يعانون من نقص خطير في التغذية، ٥٥٠ مليون أمي، ٣٠٠ مليون عاطل

Digitized by Birzeit University Library

عن العمل، و٢٥٠ مليون يسكنون في خرائب (جين أفريك ٢٣-٠٣-٧٨).

ولم تنسَ الشعوب العربية موقف البنك الدولي من حكومة مصر - عبد الناصر عندما ألغى قرضاً لتمويل بناء السد العالي في العام ١٩٥٦ لاعتبارات سياسية، مما حدا بحكومة الثورة لتأميم قناة السويس.

إن النتائج المأساوية لمساعدات البنك الدولي وافتضاح كنهها هي التي دفعت برئاسته إلى إصدار تصريحات عن تغيرات في استراتيجية البنك. وهي محاولة لتخدير الدول النامية وإيهامها بأنها تستطيع الاعتماد على البنك من أجل تطوير نفسها، وكذلك من أجل إبعادها عن الطريق المجرب الموصل إلى التنمية الإقتصادية الحقيقية؛ ألا وهو طريق نبذ الأسلوب الرأسمالي في التنمية.

Digitized by Birzeit University Library

الدعم المالي الأردني للضفة الغربية:
هل هو مساعدة أم لغرض في نفس يعقوب

غسان حرب / الطليعة العدد ٩ (٢٧ نيسان ١٩٧٨)

تنشر بعض الصحف المحلية وبخاصة جريدة «القدس» وبشكل متواتر الأخبار عن الدعم المالي الذي يقدمه الأردن؛ أو ينوي تقديمه إلى المواطنين في الضفة الغربية، من أجل «دعم الصمود وتعزيز التصاق الأخوة في الضفة بأرض الوطن» الخ ...

وتقول القدس في عدد ١٦-٠٤-١٩٧٨ إن الحكومة الأردنية ستعمل ابتداء من السنة المالية الحالية على «زيادة دعمها للمواطنين في الضفة الغربية» عن طريق زيادة حصص المحروقات للبلديات، وتقديم القروض المالية لغايات التطوير والاعمار وإنجاز المشاريع الحيوية، ودعم الجمعيات الخيرية والتعاونيات والمؤسسات والمستشفيات الأهلية، ومن أجل إقامة مشاريع الإسكان المختلفة.

وليس سراً أن الضفة الغربية بحاجة إلى كميات كبيرة من الأموال الضرورية لإقامة مختلف المشاريع الإقتصادية وغير الإقتصادية. فإقامة مثل هذه المشاريع ستساعد على توفير فرص العمل لأعداد كبيرة من المواطنين، وتساهم بالتالي في الحدّ من الهجرة المتزايدة التي تشهدها المناطق المحتلة. كما أنه سيساعد على إقامة نوع من الاعتماد الإقتصادي على الذات.

ولكن المطلوب فعلا هو المساعدات والقروض التي تساهم حقاً في تقليص اعتماد اقتصاد الضفة الغربية لا على الإقتصاد الإسرائيلي وحده وإنما أيضاً على اقتصاديات الدول الأخرى بما في ذلك... بل وعلى رأس ذلك الإقتصاد الأردني.

قد يقول بعض «العقلاء» إن المهم هو توفير الأموال بغض النظر عن مصدرها فالأمور تقيم

Digitized by Birzeit University Library

بنتائجها وليس بمصادر تمويلها.

حقاً إن الأمور تقيم بنتائجها! ولنرَ ما ستكون عليه آثار هذا «الدعم» الأردني بالنسبة لمستقبل بلادنا.

معروف أن حكام الأردن لم يتخلوا عملياً عن مطامعهم في إعادة إلحاق الضفة الغربية بمملكتهم؛ سواء عن طريق مملكة متحدة أو اتحاد كونفدرالي، أو أي شكل آخر يمكن أن يكون ممكن التحقيق، حيث تعود الضفة إلى حظيرة الأردن، وبحيث يحرم الشعب الفلسطيني من حقه المشروع في إقامة دولته المستقلة.

ورغم أن الأموال التي يقدمها الأردن إلى الضفة الغربية تأتي من مساعدات الدول العربية التي قررتها مؤتمرات القمة العربية المختلفة؛ بهدف مساعدة مواطني الضفة الغربية، ورغم أن الهدف الرئيسي لهذه المساعدات كان يجب أن يتجه نحو تعزيز صمود المواطنين الفعلي، فإن حكام الأردن يعملون على استغلال هذه الأموال العربية المصدر لتنفيذ مآربهم السياسية في الضفة الغربية؛ وهم يستغلون لذلك الحاجة المادية الماسة لمواطنينا.

وإذا لم يعد باستطاعة حكام الأردن تنفيذ مخططاتهم السياسية في الضفة الغربية بأساليبهم العادية المعروفة، وذلك لبعد المواطنين - نتيجة الاحتلال- عن متناول مخابراتهم وزنازينهم ووسائلهم القمعية الأخرى، فإنهم يلجأون إلى تقديم الطعم المادي من أجل كسب أوسع فئات ممكنة من المواطنين إلى جانبهم؛ بحيث يشعرون أن الارتباط السياسي بالأردن سيجلب لهم الفوائد الإقتصادية.

واشتراط تقديم المعونة الأردنية بشروط سياسية أمر معروف، ولم يعد على «عقلائنا» تمويهه، ولعل في الأمثلة التالية ما ينفع:

- اشتراط دعم الحكومة الأردنية لجمعيات الإسكان إذا كان أعضاؤها من موظفي الأردن، أو كانت هيئات إدارتها ممن يتقاضون رواتب من الأردن («القدس» ٠٤/١٦).
- اشتراط الأمير حسن (على لسان مفتش العمل بالخليل) تقديم مساعدات لنقابات الخليل في حالة انفصالهم عن الاتحاد العام لنقابات العمال في الضفة، وشقهم وحدة الحركة العمالية («الطليعة» ٠٤/١٣)
- وقف المساعدات عن جمعية المقاصد الخيرية بالقدس، لعدم رضى حكومة الأردن عن هيئتها الإدارية المنتخبة.

Digitized by Birzeit University Library

وهذه الأمثلة هي نقطة في بحر محاولات الأردن والمكتب التنفيذي لشؤون الوطن المحتل لربط المواطنين بسياساتهم؛ مستغلين لذلك المساعدات الإقتصادية.

من هنا فإن نتائج «دعم» الأردن واضحة؛ ولها نتائج مدمرة على مستقبل شعبنا السياسي.

وهذا يضع من جديد وبصورة ملحة أمام كل القوى والمؤسسات الحريصة على مستقبل استقلالنا الوطني أن تسعى لتأمين مصادر دعم مالي من الدول والجهات الحريصة على ضمان الاستقلال الوطني للشعب الفلسطيني. ولا شك أن بين بعض هذه الدول من تمكنه إمكانياته من المساهمة الفعلية في تحقيق هذا الهدف.

Digitized by Birzeit University Library

باقة حمراء لثورة أكتوبر في عيدها الحادي والستين

غسان حرب / الطليعة العدد ٣٦ (٢ تشرين الثاني ١٩٧٨)

مع وصول هذا العدد لأيدي القراء تكون شعوب الاتحاد السوفييتي والبشرية التقدمية جمعاء في غمرة احتفالاتها بالعيد الحادي والستين لثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى.

ففي السابع والعشرين من تشرين الثاني عام ١٩١٧ سطرت البروليتاريا الروسية والشعوب المستعبدة في الإمبراطورية الروسية أروع الصفحات في تاريخ الإنسانية حين قبرت النظام البرجوازي في روسيا؛ ودشنت الفجر الجديد الاشتراكي بصفته واقعاً تعيشه وتتنفس إنجازاته الهائلة شعوب الاتحاد السوفييتي.

لقد مكّن انتصار ثورة أكتوبر الاشتراكية الشعوب السوفييتية من الانتقال إلى مرحلة جديدة من التطور الإقتصادي والاجتماعي مختلفة نوعياً عن جميع المراحل التي قطعتها البشرية في تاريخ تطورها الطويل. وأدّت التغيرات الثورية التي قامت بها الثورة من قضاء على الملكية الخاصة وإتاحة المجال للتطور المتكافئ أمام جميع المواطنين السوفييت والقضاء على استغلال الإنسان للإنسان؛ أدّت إلى تفجير الطاقات الخلاقة الكامنة لدى العمال والفلاحين السوفييت، وفتحت أمامهم آفاق التطور الإقتصادي الحقيقي.

مع القضاء على الطبقات المستغلة (بكسر الغين) تحرّرت الطاقات الإنتاجية البشرية في البلاد السوفييتية من التناقضات الرئيسية التي كانت تستنزف جزءا كبيرا منها، وتوجهت كلها إلى الصراع ضد الطبيعة لتعمل على تحقيق الشعار الخالد «كل شيء من أجل خير الإنسان ومصلحته».

Digitized by Birzeit University Library

إنجازات هائلة في فترة قصيرة

في ظل هذه الظروف المناسبة التي هيأها انتصار الثورة الاشتراكية؛ وبفضل التضحيات المريرة التي قدمها الشغيلة السوفييت، وبفضل تضامن ومساندة كافة عمال العالم وقواه التقدمية، تمكن الاتحاد السوفييتي من التحول من دولة زراعية صناعية ضعيفة التطور إلى دولة صناعية زراعية جبارة تحتل المراتب الأولى في العالم في إنتاج جملة من المنتجات الأساسية.

وقد حدث هذا في فترة تاريخية قصيرة جدًّا نسبيًّا لا تتعدى الستين عاماً تخللتها معوقات كثيرة؛ كان أهمها حرب التدخل والثورة المضادة في السنوات الأولى، والتدمير الهائل الذي ألحقته الحرب العالمية الثانية بالإقتصاد الوطني السوفييتي.

ولإعطاء القارئ صورة وإنْ موجزة عن الإنجازات التي تحققت نورد فيما يلي جدولاً بحجم إنتاج عام ١٩١٣ (وهو العام الذي توفرت فيه إحصائيات معتمدة عن أعلى أرقام للإنتاج حققتها روسيا قبل الحرب العالمية الأولى التي بدأت عام ١٩١٤) ومقارنة هذا الجدول بإنتاج الاتحاد السوفييتي في يوم واحد خلال عام ١٩٧٧.

النوع	الإنتاج في عام كامل سنة ١٩١٣	في يوم واحد سنة ١٩٧٧
كهرباء (مليون كيلو واط/ساعة)	٢٠٠٠	٣١٧٨
نفط (مليون طن)	١٠,٢	١,٥
غاز طبيعي (بليون متر مكعب)	٢٠	٩٧٣
فحم (مليون طن)	٢٩,٢	٢,٠٠٩
فولاذ (مليون طن)	٤,٢	٤١٧
سماد معدني/وحدات اصطلاحية (الف طن)	٩٠	٢٧٠
ماكينات قطع المعادن	٣ آلاف	٦٤٥
سيارة	لا شيء	٥٦٧٥ سيارة
جرارات	لا شيء	١٥٥٣جرارا
اسمنت (ألف طن)	١٨٠٠	٣٥٩
أحذية جلدية (مليون زوج)	٦٨	٢,٠٥٤
ساعات (بالألف)	٧٠٠	١٦٥

Digitized by Birzeit University Library

وتطورت الزراعة بشكل كبير جداً خلال سنوات السلطة السوفييتية حيث بلغ المنتوج الإجمالي للزراعة عام ٧٧ مقدار ٣,٥ ضعفًا عما كان عليه عام ١٩١٣.

وكان طبيعياً أن تنعكس هذه الإنجازات على مستوى حياة المواطنين السوفييت المادية والروحية. فقد ازداد الدخل القومي الحقيقي عام ٧٦ بالمقارنة مع عام ١٩٤٠ بمقدار ٣,٦ ضعفاً بالنسبة لكل عامل أو موظف أو مستخدم، وتضاعف ٦ مرات بالنسبة لكل مزارع كولخوزي. بالإضافة إلى زيادة الدخل المباشر للمواطنين السوفييت فإن صناديق الاستهلاك الاجتماعية وهي المسؤولة عن توفير التعليم والصحة والراحة الخ... للمواطنين قد ازدادت منذ عام ١٩٤٠ بمقدار ٢٠ ضعفاً.

أما الإنجازات الثقافية والروحية للثورة الاشتراكية فيكفي أن نشير إلى أن أحفاد عشرات الملايين من الفلاحين الروس الأميين الذين وصفهم «تولستوي» في «الحرب والسلام» هم أنفسهم الذين كسروا الأرقام القياسية في البقاء في الفضاء الخارجي، وفي إحراز بطولات العالم في الألعاب الرياضية المختلفة التي كان آخرها الجمباز...

إن المنجزات الجبارة التي حققتها ثورة أكتوبر الاشتراكية في كافة المجالات قد بينت بكل وضوح ما يستطيع النظام الاشتراكي أن يوفره لجماهير الشغيلة لا في الاتحاد السوفييتي والدول الاشتراكية فحسب بل كل بلاد العالم ومنها بلادنا.

فمن هنا؛ من وراء الأسلاك الشائكة المزروعة حول وطننا والتي لم تستطع أن تحجب عن شعبنا وهج ثورة أكتوبر؛ نبعثها تحية حارة وتهنئة قلبية إلى صانع أكتوبر الشعب السوفييتي الصديق، وإلى قيادته المجربة: الحزب الشيوعي السوفييتي، مع تمنياتنا بإحراز المزيد من النجاحات على طريق التقدم والسلام والرخاء.

Digitized by Birzeit University Library

تحت المجهر

«لا يصلح العطار ...!»

أبو فجر / الطليعة العدد ٣/ ١٣ آذار ١٩٧٨

دأبت وسائل الإعلام وخاصة الأمريكية على محاولة فرض فكرة معينة في أذهان وعقول بني البشر. فهي لا تنفك تتحدث عن «نمط الحياة الأمريكية» وتحاول تصويره وكأنه النموذج الذي يجب أن تطمح إلى تحقيقه كل الشعوب.

وهي تزعق صباح مساء بأن الرأسمالية القديمة التي فضح مساوئها مفكرو الاشتراكية العلمية وبينوا طرق القضاء عليها، قد تحولت إلى «اقتصاد مختلط» تمكن من تحقيق الرفاه والمساواة ونجح في «التخلص» من عيوب رأسمالية القرن التاسع عشر.

ولكن الدراسة التي يرى القارئ ملخصاً لاستنتاجاتها في مكان آخر (من هذا الكتاب) تبيّن بكل سطوع زيف هذه المزاعم. وجبروت الاحتكارات الأمريكية وسيطرة حفنة منها على أهم مراكز الحياة الإقتصادية الأمريكية قد تفاقم بحيث اضطر حتى مجلس الشيوخ الأمريكي إلى التحقيق في الأمر.

إن ازدياد تركز الثروة في أيدي القلة هو أحد القوانين الأساسية التي تحكم تطور المجتمع الرأسمالي، ولن تستطيع كل محاولات التضليل التي تنفتق عنها قريحة المنظرين وأرباب الدعاية الغربيين أن تخفي هذه الحقيقة.

Digitized by Birzeit University Library

تحت المجهر

لكي لا تلحقوا الصيف بفروة

أبو فجر / الطليعة العدد ٤/ ٢٣آذار ١٩٧٨

لم يعد باستطاعة أحد التغاضي عن الوضع السيء الذي يعيش في ظله الألوف من موظفي الأجهزة الحكومية المختلفة.

وقد سعت هذه الفئة من المواطنين إلى زيادة رواتبها الضئيلة أصلاً عن طريق تقديم العرائض والمذكرات إلى المسؤولين. وكانت الإجابات وعوداً من السلطات بدراسة مطالبهم.

وآخر ما تيسر من الأخبار حول هذا الموضوع الهام «أن السلطات تدرس باهتمام هذه المذكرات مع اللجنة الخاصة التي أمر وزير الدفاع الإسرائيلي بتشكيلها».

إلا أن التأخير في الاستجابة لمطالب الموظفين العادلة لن يعني سوى المزيد من الضنك والتردي في أحوالهم المعيشية. فإن ارتفاع الأسعار المتسارع والجنوني سيبتلع كل زيادة يمكن أن تصرف للموظفين. ولن تؤدي أية زيادة قليلة من المعاشات -إذا ما نفذت -إلى زيادة الأجور الحقيقية للموظفين.

ولهذا فإن إسراع الموظفين إلى تبني طرق العمل الجماعي وإنشاء نقاباتهم ووضع المطالب التي تمكنهم من مواجهة الظروف المعيشية والغلاء الصاعد، هو الطريق المجرب الذي يمكنهم السير فيه إذا ما أرادوا فعلاً ألا يلحقوا الصيف بفروة.

Digitized by Birzeit University Library

تكاليف الصحة في ظل الرأسمالية

غسان حرب / الطليعة، العدد ١٢ (١٨ أيار ١٩٧٨)

الدول الرأسمالية تشهد زيادة مضطردة في نسبة المصاريف التي يتحملها المواطن العادي على العناية الطبية. وقد يتصور القارئ للوهلة الأولى أن في هذا دليلاً على تحسين الأوضاع الصحية للمواطنين. ولكن الإحصائيات تبيّن أن زيادة المصاريف هذه إنما تكون على حساب احتياجات الإنسان العادي من مأكل ومشرب وملبس وثقافة ....الخ

وهذا ليس غريباً فإن سيطرة القطاع الخاص في مجال الرعاية الصحية في البلدان الرأسمالية تؤثر تأثيراً مدمراً على مستوى معيشة الشغيلة.

ففي الولايات المتحدة ازدادت تكاليف الخدمات الطبية بالنسبة للمواطنين العاديين من (٢٥,٩٠٠) مليون دولار في عام ١٩٦٠ إلى (١٦٠,٠٠٠) مليوناً في عام ١٩٧٧ وبكلمة أخرى، ازدادت التكاليف ستة أضعاف، وهي تعادل الآن ٧٠٠ دولار للشخص الواحد.

ولكن ذلك لا يعني مطلقاً أن العناية بصحة مواطني أمريكا قد تحسنت، بل إن رسوم العلاج أو الرعاية الصحية قد ازدادت زيادة حادة. وفيما يلي بعض الحقائق الملموسة: كانت عملية إزالة الغدة الصفراء تكلف المواطن الأمريكي عام ١٩٥٥ (٣٦١) دولاراً وأصبحت تكلفتها عام ١٩٦٠ (٦٦٠) دولاراً وفي عام ١٩٧٣ (١٣٩٧) دولاراً وفي عام ١٩٧٧ (٢٢٠٨) دولارات. كما ازدادت رسوم الإقامة في المستشفى منذ عام ١٩٥٠ حتى عام ١٩٧٧ عشرة أضعاف، وبلغت في الآونة الأخيرة ١٥٨ دولاراً في اليوم الواحد. وارتفعت الكشفية ورسوم الخدمات الطبية الاعتيادية للطبيب من ١٢٥ إلى ١٥٠ دولاراً.

وفي اليابان تتصاعد باستمرار رسوم الخدمات الطبية. ففي عام ١٩٧٤ ارتفعت رسوم العلاج في المستوصفات والمستشفيات بنسبة ١٩ بالمئة. وازدادت أجور المراجعة الثانية للطبيب

Digitized by Birzeit University Library

الجراح وطبيب العيون ثلاثة أضعاف. ومراجعة الطبيب «خارج ساعات الدوام» عشرة أضعاف. وفي عام ١٩٧٦ ارتفعت رسوم الخدمات الطبية بنسبة ١٠ بالمئة، وارتفعت أسعار الدواء بصورة كبيرة كذلك.

وفي فرنسا أيضاً يغتني الأطباء على حساب المرضى. فالعلاج في قسم الجراحة الحكومي يكلف يومياً ٦٩٥ فرنكاً مع إضافة ١٠ بالمئة كأجور للطبيب والفحوص المخبرية والعمليات الجراحية، وتكاليف الإقامة ليوم واحد في المستشفيات الخاصة هي ٨٦٩ فرنكاً يضاف إليها ١٠ بالمئة لقاء خدمات مختلفة. ولتوضيح الصورة نذكر أن الحد الأدنى الرسمي للأجور الشهرية لمئات آلاف الشغيلة الفرنسيين بلغ في عام ١٩٧٧ ما يساوي ٢٢٠٠ فرنك.

إن إحدى المؤشرات الهامة التي تشهد على هجوم الرأسمال على صحة الشغيلة هي المعطيات حول الإصابات أثناء العمل. وكما هو معلوم فإن هدف سياسة أرباب العمل هو زيادة شدة العمل وتخفيض النفقات المخصصة لتحسين الظروف الصحية في الصناعة والوقاية من حوادث العمل.

وإن تسريع وتيرة العمل والإرهاق الجسدي والنفسي، وتقسيم عملية الإنتاج إلى الحد الأدنى الذي يصبح فيه الإنسان مجرد جزء من الآلة، إن كل ذلك بصورة مجتمعة يؤدي في الواقع إلى زيادة عدد إصابات العمل في البلدان الرأسمالية. وتفيد إحصائيات منظمة العمل الدولية أن ١٠٠ ألف إصابة مميتة تحدث سنوياً في الصناعة في العالم الرأسمالي.

وفي عام ١٩٧٧ نُشرت أرقام عن الإصابات في صناعة التعدين في تسع دول أوروبية غربية خلال عام ١٩٧٤. وهي تظهر أن الإصابات بالنسبة لكل مليون ساعة عمل والتي انطوت على فقدان القدرة على العمل لمدة أكثر من ثلاثة أيام كانت كما يلي: في إيطاليا ١٠٥، ألمانيا الغربية ٩٠، بلجيكا ٨٦، لوكسمبورغ ٧٩، فرنسا ٧٧، الدنمارك ٦٣، أيرلندا ٤٥، هولندا ٣٨، وبريطانيا ٢٩.

إن الحقائق الواردة أعلاه والمستقاة من الصحافة الغربية نفسها لا تقدم صورة شاملة عن الوضع الصحي للشغيلة ولكنها رغم ذلك، تبين أن آخر ما يفكر به أرباب العمل في الدول الرأسمالية هو العناية بصحة المواطنين.

Digitized by Birzeit University Library

حل مشكلة السكن في المناطق المحتلة مسألة حيوية

غسان حرب / الطليعة العدد ٢ في ٠٦ آذار ١٩٧٨

أصبحت قضية السكن إحدى المشاكل الأساسية التي تواجه المواطنين في المناطق المحتلة، وندرة المساكن والإيجارات الباهظة جداً التي يطلبها ملاكو العقارات والحلول الممكنة لقضية المسكن هي موضوع الحديث اليومي لأعداد متزايدة من المواطنين.

وقد أضحى معروفاً في بلادنا أن على رب العائلة أن يدفع ما لا يقل عن ٣٠-٤٠ ديناراً أردنياً أي ١٥٠٠-٢٠٠٠ ليرة إسرائيلية لكي يتمكن من استئجار بيت عادي بغرفتي نوم وتوابعهما.

وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن متوسط راتب الموظف العادي والعامل لا يتجاوز الألفين وخمسمائة ليرة شهرياً، يتضح تماماً أن أكثر من ثلثي الراتب يصرف لتغطية إيجار المسكن؛ ناهيكم عن الاحتياجات الطبيعية الأخرى من مأكل وملبس ومشرب وطبابة وتعليم الخ ...

وقد أدت هذه المشكلة بالإضافة إلى الغلاء المتفاقم إلى زيادة تدهور الأوضاع المعيشية للمواطنين مما يدفع أقساماً منهم إلى التفكير بالهجرة خاصة وأن أبواب دول النفط مشرعة لاستقبال الآلاف من العمال والموظفين وبأجور مغرية نسبياً.

كل هذا يستدعي اتخاذ إجراءات ملموسة من أجل المساهمة في حل قضية السكن أو على الأقل رسم التصورات القائمة على التحليل العلمي لقضية السكن ومحاولة وضع الحلول الواقعية وتحديد السبل المطلوب انتهاجها لتحقيق ما سبق.

<u>كيف احتدت الأزمة؟</u>

لم تشهد المناطق المحتلة وخاصة في الضفة الغربية نقصاً كبيراً في العمارات السكنية في الفترة الأولى من الاحتلال، ويمكن القول إن العكس هو الصحيح، بسبب نزوح مئات الآلاف

Digitized by Birzeit University Library

من المواطنين إلى الضفة الشرقية شغر العديد من المنازل وقلّ الطلب على دور السكن مما أدى إلى انخفاض أجور المسكن وإلى توقف حركة البناء السكني.

كما أن الهبوط الإقتصادي الذي ميز اقتصاد المناطق المحتلة في السنوات الأولى قد لعب دوره في هذا المجال.

ولكن ما إن مرت بضع سنوات بعد عام ٦٧ واتسمت الأوضاع السكانية (الديموغرافية) للمواطنين بالاستقرار النسبي حتى زاد الطلب على المساكن سواء بسبب ازدياد عدد السكان أو بسبب الرغبة الطبيعية لدى كل عائلة لتوفير ظروف سكن أفضل من السابق. وساعد على زيادة الطلب على المساكن واقع أن أعدادًا كبيرة من المنازل التي هجرها أصحابها بسبب النزوح بعد عام ٦٧ كانت موجودة في مخيمات اللاجئين؛ وخاصة في منطقة أريحا، ولم تعد هذه المنازل التي تآكلت صالحة بالمرّة للسكن، وبالتالي لم تساهم في التخفيف من الطلب على المساكن.

وقد أدى ازدياد الطلب على دور السكن وارتفاع الإيجارات إلى تزايد نشاط قطاع بناء المنازل. ولكن هذه الزيادة في البناء لم تُجارِ ازدياد الطلب الحاصل عليها.

لقد ازداد عدد السكان في المناطق المحتلة وحتى أواخر عام ٧٦ ب ١٧٥,٥ ألفاً منهم ١١٢,٥ ألف في الضفة الغربية و٦٣ ألفاً في قطاع غزة. وهذا يعني أن عائلات كثيرة جديدة قد تكونت وبرزت لديها الحاجة للسكن المستقل. فهل أمكن للمنازل التي أقيمت خلال هذه السنوات التسع أن تسد الطلب الحاصل؟

تفيد الإحصائيات الرسمية الإسرائيلية أنه قد تم إنشاء ما مساحته ٢,٥٤٨,٦٠٠ متر مربع من العمارات للأغراض السكنية في المناطق المحتلة في فترة التسع سنوات هذه منها ١,٩٣١,٨٠٠ متر مربع في الضفة الغربية و٦١٦,٨٠٠ متر مربع في قطاع غزة (نشرة الإحصاءات الفصلية للمناطق «المدارة» عدد ١ سنة ١٩٧٣ ص. ٥٣ وعدد ١ سنة ١٩٧٧ ص. ٤٨).

وإذا ما أخذنا تقديرات المهندسين المعماريين القائلة بأن متوسط المساحة اللازمة لسكن الفرد الواحد من السكان في الظروف العادية هي ١٨ متراً مربعاً لوجدنا أنه يتطلب بناء ما مساحته ثلاثة ملايين و١٥٩ ألف متر مربع لتلبية الزيادة الطبيعية في عدد السكان توزع على الشكل التالي: ٢,٠٢٥,٠٠٠ متر مربع في الضفة الغربية و١,١٣٤,٠٠٠ متر مربع في قطاع غزة. أي أن الزيادة في مساحة المساكن المشيدة تقل كثيراً -وخاصة في قطاع غزة- عمّا هو مطلوب لمواجهة زيادة عدد السكان؛ ناهيكم عن العمل على تحسين ظروف السكن القائمة

Digitized by Birzeit University Library

- وهو أمر طبيعي ومشروع.

يتبيّن مما سبق أن هناك أزمة سكن تهدد بالاستفحال فكيف يمكن معالجة الوضع؟

وسائل حل قضية السكن

يجري بناء المساكن عادة عن طريق:

١. الأفراد ٢. الجمعيات التعاونية الإسكانية ٣. شركات الإسكان الخاصة ٤. الدولة.

فما هي آفاق استخدام الوسائل المذكورة في ظل الأوضاع الخاصة التي يعيشها شعبنا في هذه الفترة من تاريخه؟

مفهوم طبعاً أن الاستفادة من الطريق الرابع لحل قضية السكن في بلادنا أمر مستبعد في الظروف الراهنة. فبالرغم من أن الدولة هي المؤسسة الأكثر اقتداراً على تحقيق هذا الهدف إلا أن عدم قيام دولة لنا بعد يحول دون الاستفادة من الإمكانيات الكبيرة التي يمكن أن تتيحها لنا الدولة.

وسبيل قيام شركات الإسكان الخاصة بتولي عملية البناء لا يعطي النتائج المطلوبة. فمشاريع الإسكان تتطلب رساميل كبيرة واستعداداً للمجازفة يعجز الرأسمال المحلي من تأمينها لضعفه أولاً وبسبب عدم الاستقرار السياسي ثانياً.

صحيح أن عدداً من شركات الإسكان الخاصة قد قامت ببناء عمارات سكنية قليلة وخاصة في نابلس ورام الله، ولكن شروط البيع التي يطلبها أصحاب هذه العمارات تجعل الإفادة منها محدودة للغاية. فالدفع يجب أن يكون نقداً ولا يقل ثمن الشقة المكونة من غرفتي نوم وتوابعهما عن سبعة آلاف دينار أردني في الوقت الحاضر. وواضح طبعاً أن الفئة القادرة على دفع هذا المبلغ الكبير نقداً قليلة جداً ومحدودة من السكان. وحتى هؤلاء يجدون صعوبة في الدفع مما أدى إلى عدم بيع العديد من هذه الشقق كما حدث مع شركة بيت المقدس التي بنت ١٤ شقة في رام الله عام ٧٤ ولم تبع نصفها حتى الآن.

أما جمعيات الإسكان التعاونية فهي قليلة جداً، والطابع الغالب عليها هو اقتصارها على ذوي الدخل المرتفع نسبياً كالمهندسين والأطباء وكبار الموظفين.

المهم هنا هو حلّ مشكلة السكن بالنسبة لذوي الدخل المنخفض والمحدود الذين يشكلون نسبة كبيرة من المواطنين، والذين لا يستطيعون حل المشكلة بالطرق الفردية.

Digitized by Birzeit University Library

شغلت مشكلة توفير السكن بأسعار مناسبة تفكير العديد من الهيئات والمؤسسات والنقابات في بلادنا. وقامت نقابة المهندسين في الضفة الغربية بإجراء دراسة حول الإسكان بالتعاون مع جامعة بيرزيت؛ يؤمل أن يصار إلى نشرها قريباً.

وفي التقرير المقدم إلى المؤتمر العاشر لاتحاد الخريجين العرب من الجامعات الأمريكية والذي انعقد بديترويت في تشرين أول من العام الماضي، دعا الأستاذ إبراهيم الدقاق نقيب المهندسين في الضفة الغربية إلى ضرورة إنشاء جهاز تمويل لمعالجة مشكلة السكن والقضايا الزراعية والصناعية وقال:

إن تبني سياسة إسكان واقعية في المناطق المحتلة معتمدة على مصادر قوية وسخية للاستثمار سوف تمارس تأثيرها الإيجابي نحو وقف هجرة العرب المتزايدة من المناطق (ص. ٢٣ من التقرير المذكور).

كما ذكر الأستاذ الدقاق أن نقابة المهندسين شكلت لجنة خاصة لدراسة شروط ووسائل دعم مشاريع الإسكان التي يقيمها المهندسون. وأوصت هذه اللجنة بإعطاء القروض من صندوق مركزي لجمعيات الإسكان التعاونية، كذلك فإن الأفراد يستطيعون الاستفادة من هذه القروض خاصة إذا كانوا يملكون قطعة من الأرض.

وجاء في التقرير أيضاً أن اللجنة توصي بإعطاء القروض لفترة ٢٥ سنة بفائدة تدفع كلياً أو جزئياً من قبل صندوق خيري يمكن أن ينشأ لهذا الغرض. ويمكن أن يكون هناك نوعان من الدعم المالي: القروض والمساعدة المالية، وإن المساعدة يمكن أن تعطى للسكان المحتاجين والعائلات والجماعات.

لا شك أن المشروع المقدم من قبل هذه اللجنة يمكن أن يشكل أساساً لدراسة وضع الحلول العملية لحل مشكلة السكن.

تبقى مسألة أساسية هي قضية التمويل ومن الذي سيعهد إليه بالإشراف على الصندوق المالي المخصص للإسكان؟

يمكن في تقديري العمل على حل قضية التمويل عن طريق اللجوء إلى طلب المساعدات والقروض من الدول العربية الحريصة فعلاً على مصير ومصلحة الشعب الفلسطيني، وبين هذه الدول من تمكّنه أوضاعه الإقتصادية من تقديم يد العون نحو أشقاء له.

Digitized by Birzeit University Library

ومن ناحية الإشراف على الصندوق فإن المطلوب إنشاء جهاز يكون بمثابة بديل مؤقت عن جهاز الدولة ليقوم بالمهام المطلوبة. ويمكن لهذا الجهاز أن يضم البلديات والنقابات المهنية والعمالية.

إن العمل على حل مشكلة السكن هو أحد الأوجه الهامة للنضال الذي يخوضه الشعب الفلسطيني في هذه الظروف

Digitized by Birzeit University Library

هجرة رؤوس الأموال: مدلولاتها وإمكانية إيجاد البديل

غسان حرب / الطليعة العدد ١١ (١١ أيار ١٩٧٨)

تكثر الصحف المحلية من الحديث عن هجرة العمال من المناطق المحتلة. وتحاول بعض الأوساط استغلال هذا الواقع للطعن بوطنية العمال وتصويرهم بمثابة أناس مفتقرين إلى الشعور الذي يفرضه الانتماء لهذ الوطن والذي يتطلب الانزراع فيه تحقيقاً لصمود أبنائه.

لسنا الآن بصدد معالجة هذه الظاهرة، فقد تناولها العديد من الكتاب وكانت موضوع ندوات ونقاشات متعددة يمكن تلخيص نتائجها بأن هجرة العمال نابعة من الظروف الإقتصادية السيئة التي يمر بها وطننا في هذه الظروف، واضطرار قسم من المواطنين إلى الهجرة سعيًا وراء لقمة العيش.

كما أننا لسنا بصدد تبرير هذه الظاهرة الضارة، بل على العكس فقد كنا من أوائل الداعين والساعين إلى حلّها عن طريق توفير جملة من الشروط الموضوعية، أهمها توفير فرص العمل لهؤلاء العمال داخل المناطق المحتلة؛ بحيث يستطيعون الحصول على مستوى من المعيشة كفيل بسد احتياجاتهم واحتياجات عائلاتهم الأساسية.

ولكن الأمر الجدير بالملاحظة هو ذلك السكوت المريب عن ظاهرة أخرى لا تقل في خطورتها عن ظاهرة هجرة العمال؛ ونعني هجرة رؤوس الأموال.

لقد وصلت هذه الظاهرة حداً من الاستفحال بحيث أصبح من الصعب حتى على الأوساط الميسورة من المجتمع الفلسطيني التستّر عليها. فقد ذكرت جريدة «القدس» (عدد ٢٩-٠٤-١٩٧٨) أن رؤوس الأموال التي خرجت من الضفة الغربية ليتم استثمارها في الأردن والسعودية ودول الخليج وحتى في السوق الحرة قد تراوحت خلال ٤ سنوات (١٩٧٤-

Digitized by Birzeit University Library

١٩٧٧) ما بين ١٢-١٥ مليون دينار أردني!

وفي شهري كانون الأول وكانون الثاني الماضيين وحدهما أخرج من الضفة حسب بعض المعطيات - ما لا يقل عن مليوني دينار أردني لتودع في البنوك العربية في الخارج.

كما شرع بعض المتمولين في فتح مكاتب للاتجار بأسهم الشركات الموجودة في الدول العربية الأخرى وخاصة الأردن. وتنشر صحيفة يومية محلية واحدة على الأقل نشرات عن أسعار الأسهم في بورصة عمان.

إن كل هذه الدلائل تشير، وبشكل قاطع، إلى وجود عملية تكاد أن تكون منظمة لتسهيل هجرة رؤوس الأموال إلى الخارج!

لا ننكر بطبيعة الحال، وجود أسباب تدفع بأصحاب رؤوس الأموال إلى استثمارها في الخارج. فعدم الاستقرار السياسي وضآلة إمكانيات المنافسة مع المؤسسات الإقتصادية الإسرائيلية والضرائب المختلفة التسميات المفروضة على المؤسسات الوطنية، وتدهور الأوضاع الإقتصادية داخل إسرائيل الذي لا بد وأن ينعكس على المناطق المحتلة بسبب وحدة السوق بين إسرائيل والمناطق المحتلة، كل هذه هي من الأسباب التي تدفع أصحاب رؤوس الأموال إلى الإحجام عن استثمارها في الداخل.

وهذا أمر ليس بغريب! وعلى حد تعبير السيد حافظ طوقان الأمين العام للغرفة التجارية بنابلس، الممثلة لمصالح المتمولين في المدينة، في تصريحه لجريدة «القدس» بتاريخ ٣٠-٠٤-١٩٧٨ «فإن تسرب رأس المال إلى الخارج يعود إلى كون رأس المال جباناً بطبيعته. فهو يبحث دائماً عن أكثر الأماكن أمناً واستقراراً وكذلك أكثرها ربحاً وفائدة».

وهكذا وبكل صراحة تشير الدلائل إلى الأسباب الكامنة وراء هجرة رؤوس الأموال. وهذا يبين أن قسماً من أصحاب رؤوس الأموال غير معنيين بالاستثمار في الداخل ولا تعنيهم مصلحة الوطن وضرورة العمل على زيادة الاستثمارات الإنتاجية. وكل همهم هو السعي وراء أكبر قدر ممكن من الأرباح يمكن تأمينها عن طريق الاستثمار في الخارج. إنه يدل على لا وطنية هذه الشريحة من البرجوازية.

وهذا يقودنا إلى استنتاج هام هو عجز الرأسمال الفردي وعدم قدرته على تحمل تبعات البناء الإقتصادي وأعبائه.

وهنا يبرز سؤال يتطلب الإجابة ألا وهو ما دام الرأسمال الفردي عاجزاً فكيف يمكن توفير

Digitized by Birzeit University Library

رؤوس الأموال اللازمة والضرورية لإقامة المشاريع وتوفير فرص جديدة لآلاف جديدة من العمال الذين يدخلون سوق العمل كل عام؟

لقد انتشرت الدعوة لإنشاء صندوق قومي يتحمل هذه المسؤوليات ويمكن التقدير بأن إنشاء صندوق كهذا من شأنه أن يلعب دوراً مهماً في توفير وتقديم الإمكانيات المالية التي تتطلبها إقامة مختلف المشاريع الإقتصادية. والصندوق القومي هو شكل من أشكال القطاع العام الذي يبرز أكثر فأكثر كفكرة مؤهلة للقيام بالدور التاريخي المنوط به، دور قائد وموجه الفعاليات الإقتصادية في بلادنا.

وتستطيع البلديات والمؤسسات العامة أن تساهم بقسط هام في هذا المجال. فهي أيضاً أشكال متنوعة من القطاع العام.

لقد تمكنت العديد من البلديات من جمع مبالغ معينة من الدول العربية وإذا قيض لهذه المبالغ أن تجتاز الحدود والموانع من شرقي النهر وغربه، فإنها ستساهم في إنعاش الأوضاع الإقتصادية في المناطق المحتلة.

ويحدونا الأمل بأن تخصص البلديات جزءا من المبالغ التي جمعت لإنشاء مشاريع إنتاجية توفر فرص عمل ثابتة لجزء من المواطنين، ولا تقتصر إنفاقاتها على تنفيذ مشاريع تقوم على الخدمات التي توفر فرص عمل مؤقتة.

صحيح أن المبالغ المجموعة ليست بالكبيرة - نسبياً - ولكن تخصيص قسم منها كما ذكرنا سيساعد على سد بعض الثغرات التي يفتحها تقاعس قسم من أصحاب رؤوس الأموال عن القيام بدور وطني، ويعطي المجال للقطاع العام ليثبت أنه المعني الحقيقي بتوفير فرص العمل وبالتالي للمزيد من الصمود فوق هذه الأرض.

Digitized by Birzeit University Library

أضرار كبيرة يلحقها قرار إلغاء وكالات أملاك الغائبين

غسان حرب / الطليعة، العدد ١٣ (٢٥ أيار ١٩٧٨)

قرار سلطات الحكم العسكري بإلغاء التوكيلات عن أملاك الغائبين له أبعاد خطيرة لن نتطرق هنا إلى الأبعاد السياسية لكون هذا القرار الذي يضع عملياً ممتلكات آلاف مؤلفة من الفلسطينيين في أيدي «حارس أملاك الغائبين»، توطئة لوضع يد السلطات على هذه الأملاك.

ولن نبحث هنا كذلك؛ في كون هذا القرار مخالفة قانونية للتشريعات الدولية ومواثيق جنيف التي تحظر على الدولة المحتلة تغيير القوانين السارية في المناطق المحتلة.

ولكننا سنقصر حديثنا على الأثر الإقتصادي الذي سيتركه هذا القرار على الأوضاع الإقتصادية في المناطق المحتلة.

معروف أن أحد أوجه النشاط الإقتصادي الهامة في المناطق المحتلة هو قطاع لبناء. ولا تقتصر أهمية هذا القطاع على أثره المباشر في تشغيل اليد العاملة في البناء، وزيادة الطلب على مواد البناء المختلفة فحسب، وإنما للأثر غير المباشر الذي يمارسه قطاع البناء على الفعاليات الإقتصادية الأخرى.

إن تنشيط قطاع البناء يخلق طلباً على العديد من السلع الأخرى. فتوفير فرص عمل لعمال البناء، يخلق لديهم طلباً على المواد الغذائية والملابس والمواصلات وغيرها من السلع الضرورية الأخرى ... الأمر الذي يشجع القطاعات المنتجة لهذه المواد على زيادة إنتاجها أو يحفز على إقامة مشاريع جديدة لتلبية الطلب المتزايد على هذه المنتجات.

Digitized by Birzeit University Library

ومن هنا نرى الدور الهام الذي يلعبه قطاع البناء في خلق سلسلة متلاحقة مترابطة من أنواع الطلب الأخرى. ولهذا فإن انكماش قطاع البناء سيلعب دوراً سلبياً على الأوضاع الإقتصادية في المناطق المحتلة ويزيدها سوءاً على سوء.

من المعروف أن نسبة كبيرة من المواطنين وخاصة في مناطق رام الله وبيت لحم ونابلس موجودون خارج البلاد وغير حاصلين على الهويات المحلية؛ وللكثير من هؤلاء أملاك في مدنهم وخاصة الأراضي.

وقد جرت العادة، قبل القرار الأخير، أن يولي هؤلاء المواطنون من يريدون للقيام بعمليات بيع وشراء الأراضي والعقارات نيابة عنهم. ويقوم المواطنون المشترون لقطع الأراضي هذه بتشييد العمارات عليها للأغراض التجارية أو للسكن، مما أدى إلى تنشيط قطاع البناء والوضع الإقتصادي بشكل عام.

وقد أدى قرار منع التوكيلات المذكور إلى وقف عمليات البيع والشراء هذه. وكما قال أحد المتعاملين في بيع الأراضي وشرائها في رام الله فإن معظم الصفقات التي كانت قاب قوسين أو أدنى من الاكتمال، قد توقفت بسبب قرار السلطات الأخير.

إن النتائج السلبية لهذا القرار ستظهر بعد فترة وجيزة، وستتأثر بها سلباً كافة مجالات الإقتصاد وفروعه. سيتأثر العاملون في البناء والمتاجرون بمواد البناء وصناعة مواد البناء، وسيتأثر تجار المواد الغذائية والمزارعون كما سيتأثر بائعو الملابس والصناعات المنتجة للملابس الخ الخ ... وبكلمة مختصرة فإن مجمل الوضع الإقتصادي في المناطق المحتلة سيتعرض إلى الانكماش، مما يؤدي إلى تردي أوضاع السكان المعيشية.

Digitized by Birzeit University Library

بعض ملامح التبعية في اقتصاد الضفة الغربية

غسان حرب

محاضرة في نادي الكنيسة اللوثرية برام الله في ١٩٧٩/٥/٦

تطرق غسان في هذه المحاضرة الى:

أ- مفهوم الاستقلال الإقتصادي بصفته مكملاً للاستقلال السياسي.

ب- الاستقلال الإقتصادي لا يعني التقوقع والعزلة بل العلاقة المتساوية والمتكافئة مع الأطراف الأخرى وخاصة في عصرنا الراهن.

- لدى تطبيق هذه المفاهيم على الأوضاع في الضفة الغربية؛ يبرز غسان بأنه نتيجة لانعدام الاستقلال السياسي ووجود سلطة سياسية أخرى غير منبثقة عن الفلسطينيين فإن قدرتهم على اتخاذ القرار الإقتصادي "ناسب لهم مقيدة.

والجدير بالذكر أنه خلال السنوات ١٢ الأخيرة تزايدت العلاقات الإقتصادية بين الضفة وإسرائيل + وحدة السوق الموجودة + تأثر اقتصاد الضفة بنفس المؤثرات التي تمارس فعلها في إسرائيل: التضخم المالي، الأسعار، الضرائب، (القيمة المضافة).

- هذا التشابك الموجود هل هو لمصلحة الطرفين أم طرف واحد؟

وهنا يواصل غسان بأنه من خلال إلقاء نظرة على واقع الحال يمكن أن تعطينا الإجابة عن هذا السؤال.

- العمالة: آلاف العمال الذين يعملون في إسرائيل وأثر ذلك في اعتمادهم على إسرائيل

Digitized by Birzeit University Library

كمصدر معيشتهم ، أثر ذلك على الصناعة في الضفة الغربية من حيث عدم توفر العمال الضروريين في بعض القطاعات .. البناء مثلاً .. ستكون مشكلتهم كبيرة أمام الدولة المستقلة من حيث تأمين الأعمال لهم .

- الصناعة: منذ عام ٦٧ تطورت صناعات معينة متجهة في التسويق إلى السوق الإسرائيلية:

- مصانع مواد البناء، الطوب، البلاط، الكسارات ..الخ.

- صناعة الألبسة والمتعهدون الفرعيون ودورهم.

ج- صناعة الأدوية وفرض الحظر عليها لدخول إسرائيل.

- مشروع الإسمنت واستعراض تاريخه في منطقة نابلس، والعثرات أمام المشروع الآن.

- الصعوبات في الاقتراض والعلاقات البنكية مقابل التشجيع الحكومي الإسرائيلي للصناعات المماثلة في إسرائيل.

د- الخدمات العامة: الكهرباء .. العمل على ربط الضفة الغربية بشبكة الكهرباء القطرية مثل نابلس وإعاقة تطوير مشروع الكهرباء.

شركة كهرباء القدس والمراحل التي مرت بها .. أخذهم قسماً من التيار من إسرائيل، تزويد الأحياء اليهودية بالكهرباء/ توريط الشركة في الديون حتى وصلت الحال إلى ما هي عليه الآن من حجز على أموال الشركة.

- المياه- السيطرة على مصادر المياه ورفع العراقيل أمام حفر آبار جدية في المنطقة لصالح السكان/ مد أنابيب من أنبوب المياه القطرى كما حدث مؤخراً في رام الله.

هـ- الأرض والزراعة: الاستيلاء على الأراضي الخصبة خاصة في مناطق الأغوار.

الأمثلة الأخيرة حول/ أغوار الجفتلك ومنع وصول المياه والمعدات إلى ٥ آلاف دونم هناك بسبب حفر الطريق/ احتجاج أصحابها).

نسف ماتور المياه في برولا الذي يروي ١٥ ألف دونم.

Digitized by Birzeit University Library

انخفاض منسوب المياه في الآبار الارتوازية لدى العرب بسبب حفريات عميقة.

عدم تقديم المساعدات والتسهيلات البنكية اللازمة لتحسين الأرض وتكثيف الزراعة بها مما يجعل العمل فيها غير مجد ويؤدي إلى هجر أصحابها لها والتحول إلى عمال في إسرائيل.

و- التجارة الخارجية: العلاقة بالأساس مع إسرائيل وعدم القدرة الفعلية لإقامة علاقات خارجية مع دول أخرى وحسب مصلحة البلد.

ز- المجالس المحلية وخدماتها: لا يمكن إقرار أي مشروع إلا بموافقة الحكم العسكري، آخر مثل إقامة سوق الخضار في حلحول بعد أن استكمل نفسه وبمساعدة من المانونايت، كل ما ذكرنا هي بعض ملامح تبعية الإقتصاد في الضفة لإسرائيل.

- السؤال الذي يمكن طرحه هو هل نبقى كذلك حتى الاستقلال؟ ألا يمكن عمل شيء في الوقت الحاضر؟

الشيء الأساسي أن أي تطور اقتصادي حقيقي يجب أن يستند إلى قاعدة اقتصادية مستقلة يسبقها استقلال سياسي.

مع ذلك يمكن القيام بأعمال معينة لتخفيف التبعية:

أ- إقامة مشاريع صناعية مستقلة تعتمد على السوق الداخلي بالأساس ويمكن التصدير إلى دول عربية أخرى (الإسمنت - أدوية، تصنيع المنتجات الزراعية - حليب وألبان ..الخ).

ب- في الريف العمل على تشجيع العودة إلى الأرض والزراعة؛ وهذا يحتاج إلى إنشاء زراعة مكثفة. كل ذلك يحتاج إلى رساميل وخبرات: مصادر التراكم الداخلي موجودة إلى حد ما (ولكن ليست كافية) وهي تهاجر. خلال الأشهر الخمسة الأولى من السنة الماضية هاجر حوالي ١٥ مليون دينار.

التعاون، مشاريع الإسكان: الاستعانة بالدول العربية لتقديم معونات استثمارية حقيقية مثلا (المجلس المشترك بين المنظمة والأردن). وثمة أسئلة:

١- هل تتسع رقعة الأرض المحدودة للشعب الفلسطيني؟

Digitized by Birzeit University Library

٢- هل ستكون مصادر الدولة الطبيعية والمالية – كافية؟

٣- هل تتوفر الأيدي العاملة الكفؤة لتنفيذ المشاريع الضرورية لعملية التطوير؟

٤- هل ستتمكن من تحقيق تطور إقتصادي متوازن في جميع القطاعات الإقتصادية؟

وثمة مقاربات وإجابات:

في العالم؛

العديد من البلدان أقل من الدولة الفلسطينية في عدد السكان:

آيسلندا، لوكسمبورغ، مالطا، سان مارينو، اليمن الديمقراطي – البحرين، عُمان، قطر، قبرص، الكويت، منغوليا، الكونغو برازيل، ليسوتا، ليبيريا، ليبيا، موريتانيا، وغيرها كثير.

العوامل الاساسية:

توفر مختلف عوامل الإنتاج، تنظيم هذه العوامل:

المعرفة التكنولوجية القائمة تضم:

١- النمو السكاني، قوة العمل وتنوعها، درجة علمها ، الكثافة السكانية.

٢- المصادر الطبيعية، أراضٍ زراعية قابلة للزراعة، غابات ..الخ معادن.

٣- تراكم رأس المال، ما أنتجه الانسان.. مجموع أدوات الإنتاج، العمارات.

٤- التقدم التكنولوجي.

Digitized by Birzeit University Library

ملحق٥

من كتاب إسرائيل والتعذيب

الترجمة الكاملة لمقال الصاندي تايمز

قصة غسان حرب كما روتها الصحيفة

ترجمها من الإنكليزية: غ. ح

غسان حرب مثقف فلسطيني وصحفي من مدينة رام الله في الضفة الغربية والتي تقع على بعد ١٠ أميال شمالي مدينة القدس. في - ليلة ٢١ على ٢٢ من نيسان ١٩٧٤، كان غسان وزوجته يقضيان ليلتهما في بيت حميّه برام الله. وبعد منتصف الليل بقليل أيقظتهم دستة من الجنود ورجلان في ثياب مدنية. طلب أحد المدنيين من غسان أن ينهض ويرتدي ملابسه.

سأله غسان: «ما المشكلة؟».

فأجاب الرجل: «ستعرف». قُيّدت يدا غسان وعُصبت عيناه ووضع في سيارة نقلته إلى سجن رام الله.

إن ما جرى لغسان حرب على امتداد الشهرين اللذين أعقبتا هذه اللحظة قد أثار اهتماما دوليا. وعندما طرحت قضيته في الأمم المتحدة في السنة الماضية، نفاها يعقوب دورون، سفير إسرائيل لدى الأمم المتحدة معتبراً إياها «نموذجاً لذلك النوع من القصص الوحشية التي رُوّجت ضد الإدارة الإسرائيلية من قبل عناصر معينة».

وما عناه السفير هو أن غسان حرب شيوعي. ومع ذلك فإنه من الصواب القول إن كلا الجانبين، إسرائيل ومتهميها قد شوها قضية غسان حرب. ويعود ذلك جزئياً إلى أن الشاهد الرئيسي نفسه وهو غسان لم يكن موجوداً. فلمدة سنتين ونصف بعد تلك الزيارة التي تمت في منتصف الليل بقي غسان معتقلاً بدون محاكمة.

Digitized by Birzeit University Library

أطلق سراحه في الثامن عشر من كانون الثاني هذا العام (١٩٧٧). وبعد ذلك بفترة قصيرة تمكنّا من تسجيل روايته ذاتها عن تجربته. وقد استرعى انتباهنا في غسان حرب كونه شاهدا ممتازاً. فهو حريص، متأنٍّ، يتساءل عن صحة انطباعاته نفسها، توّاق إلى إيجاد النقاط التي يمكن التحقق منها. وهذه هي، في الجوهر قصته:

لم يحدث له شيء في الأيام الخمسين الأولى. لقد ضرب بالأيدي والأرجل لدى وصوله إلى السجن، وسمع وهو لا يزال معصوب العينين، آخرين يتعرضون لنفس المعاملة. وبعد ثلاثة أيام قضاها في زنزانة صغيرة مع ستة سجناء آخرين، نقل إلى غرفة أكبر فيها ٤٠ شخصاً. وبمرور الأيام كان الآخرون يؤخذون إلى التحقيق -ومعظمهم كانوا من الذين اعتقلوا في نفس الليلة التي اعتقل فيها. ويقول غسان: «كانوا يرجعون بعد ستة أو سبعة وأحياناً خمسة عشر يوماً» وهم في وضع سيئ جداً» وكان يمكن مشاهدة العلامات على وجوههم وصدورهم. وفي الثاني عشر من حزيران بعد ٥١ يوماً من اعتقاله جاء دور غسان حرب.

عُصبت عيناه مرة أخرى، وأرغم على الاضطجاع في ما كان يعتقد أنه في سيارة جيب في رحلة استغرقت ساعتين أو ثلاث ساعات. وعندما توقف الجيب في نهاية المطاف وأنزل منه غسان، وكان لا يزال معصوب العينين، وضع كيس كثيف من القماش على رأسه، وبقي ٣٠ أو٤٠ دقيقة واقفًا ويداه مرفوعتان إلى أعلى - ويضيف غسان بحذر: «عندما تكون هناك ظروف سيئة يمكن للمرء أن يشعر بأن الوقت أطول مما هو عليه في الواقع». أخذ إلى غرفة رفعت كلتا العصابتين عن عينيه. بادره شخص يرتدي الملابس المدنية قائلاً باللغة العربية:

«أتعرف أين أنت؟»

«كلا» أجاب غسان

« أنت في قصر النهاية». وهو اسم سجن في العاصمة العراقية، بغداد؛ مشهور بعمليات التعذيب والإعدامات السرية التي كانت تجري فيه. كان غسان حرب يعرف أنه لم يكن في بغداد، ولكنه كان يعرف ماذا هو قصر النهاية، وعرف ما الذي قصده المحقق.

وقد أبلغ أنه بحكم كونه شيوعياً معروفاً فهو متهم بالاشتراك في المقاومة المسلحة في الضفة الغربية. كان غسان حرب قد انضم للحزب الشيوعي وهو طالب في مدينة رام الله التي كانت حينذاك جزءاً من الأردن. وقد حظرت الحكومة الأردنية الحزب الشيوعي، وفي عام ١٩٥٧ اعتقل غسان وكان عمره ١٧ سنة. وأمضى مع غيره من أعضاء الحزب ثماني سنوات في السجن.

Digitized by Birzeit University Library

وأخيراً أطلق سراحه بموجب عفو عام. وخلال حرب ١٩٦٧، كان غسان حرب يدرس الإقتصاد في جامعة موسكو. ثم عاد إلى رام الله عام ١٩٧٢ وأخذ يكتب في جريدة الفجر المقدسية التي تصدر بالعربية. وكان يكتب ويتكلم ضد الاحتلال الإسرائيلي.

ويمكن لهذه النشاطات أن تكون قد أرّقت مضاجع الإسرائيليين، ولكن لم يكن فيها أي شيء غير مشروع. وكما يقول السفير الإسرائيلي يعقوب دورون: «لا يوجد أحد في السجن بسبب معتقداته السياسية ». فإسرائيل تسمح للشيوعيين أن يشاركوا في الانتخابات الإسرائيلية في إسرائيل ذاتها.

أما في الضفة الغربية فإن جميع الأحزاب السياسية ونشاطاتها محظورة، ويوضع الشيوعيون المعروفون تحت المراقبة. وقد كانت هذه الحالة خاصة منذ عام ١٩٧٣ ، عندما قرر شيوعيو الضفة الغربية ومنظمة التحرير الفلسطينية إقامة تحالف أسموه الجبهة الوطنية الفلسطينية. وحيث أن إسرائيل تعتبر منظمة التحرير منظمة تخريبية، فسرعان ما نظرت إلى الجبهة بنفس المنظار. في ليلة ٢١-٢٢ نيسان ١٩٧٤ قامت بحملتها ضد الجبهة واعتقل غسان حرب.

وقال سفير إسرائيل لدى الأمم المتحدة دورون فيما بعد ذلك إن إسرائيل «قد اعتقلت فقط أولئك الذين توجد ضدهم إثباتات إجرامية. » ولكن معظم الذين تم اعتقالهم في تلك الحملة لم تقدم ضدهم أية تهمة. نحن نعرف أن تسعة أشخاص -أحدهم غسان حرب وثمانية منهم يجاهرون بشيوعيتهم -أخذوا فيما يبدو إلى نسخة إسرائيل من قصر النهاية. وقد أبعد ثلاثة أشخاص منهم إلى الأردن في عام ١٩٧٥، وإثنان منهم عام ١٩٧٦، وأطلق سراح غسان حرب وشخص آخر هذه السنة، ولا يزال الإثنان الآخران في السجن. ولم يقدم أي منهم إلى محاكمة ناهيكم عن إدانتهم.

ولكن هذا لا يثبت بالطبع أن أحدا لم يرتكب أية مخالفة. وقد نقل عن لسان سكرتير الحزب الشيوعي الأردني قوله إن رفاقه الموجودين في الضفة الغربية كانوا فعالين حقاً. ولكن الحقيقة تبقى أن غسان حرب ينكر تورطه في أي نشاط جرمي ولم يقدم أي دليل ضده.

إنه لمن الضروري أن نبين ذلك؛ لأن السفير دورون نفى الإدعاءات التي سوف ترد معتبراً إياها «محاولة لإثارة الرأي العام ومن أجل إخفاء الجرائم التي ارتكبت ». وهو لذلك يؤكد على جرائم غير ثابتة من أجل دحض الادعاءات بالتعذيب.

Digitized by Birzeit University Library

ولكن القضية الأساسية تبقى كما يلي: حتى لو كان غسان ورفاقه مذنبين، فكيف عوملوا في قصر النهاية الإسرائيلي؟

التعذيب في الخزانة

حسب رواية غسان حرب فإن لقاءه الأول مع محققه انتهى بشكل حاد إذ قال له: «إننا نعرف أنك ضد السلطات فأخبرنا كل ما تعرفه». فأجاب غسان بأنه لا توجد لديه أية معلومات. فقال المحقق» حسناً! إذن أنت لا تريد أن تتكلم» ثم أشار إلى الحراس الذين كانوا يرتدون ثياب الجنود وقال لهم «خذوه».

في غرفة أخرى أرغم غسان على خلع ملابسه وأعطي له «أوفرهول» ذو طابع عسكري وأخذت له صور. ثم أعيد إلى المحقق الذي كتب له أن يراه مرات عديدة خلال الستة عشر يوماً التالية.

«كان قوي البنية مائلاً إلى السمرة ولكنه ليس أسود. شعره أسود وحليق الشاربين، كان شعره مجعداً قليلاً. لا أذكر إذا ما كان يفرق شعره أم لا». يعتقد غسان أن طوله ١٧٠ سم ويتراوح عمره ما بين ٣٢ و٤٠ عاماً. «وكان يتكلم العربية بلهجة سورية.» كما يتذكر أنه كان يرتدي دائماً الملابس المدنية؛ البنطلون والقميص.

بدأت الجولة الأولى من الضرب في الحال. يقول غسان: «جلس المحقق على الطاولة وكنت جالساً على مقعد. كان يصفعني على وجهي لمدة ١٥ أو٢٠ دقيقة» يقول غسان. (مرة أخرى يحذر غسان من أنه يمكن أن يكون مبالغاً في تقدير الوقت). والسؤال الوحيد الذي كان يُطرح هو: «هل تريد أن تتكلم». ولكن غسان كان يكرر بأنه لا يوجد لديه شيء يقوله.

وفي نهاية الجولة الأولى تلك وضع الكيس على رأس غسان مرة أخرى واقتيد. فكوا القيود من يديه ونزع عنه «الأوفرول» ثم قيدت يداه من جديد خلف ظهره ودفع، وهو عار من كل شيء ما عدا الكيس إلى ما شعر أنه مكان محصور. أغلق الباب وبالرغم من وجود ثقبين لدخول الهواء في أعلى الكيس كان غسان يخشى أن يختنق وهكذا أخذ يحك رأسه بالحائط ونجح في نزع الكيس فوجد نفسه في زنزانة ضيقة بدون نوافذ. وكان النور الوحيد الذي يدخلها يجيء من شق تحت الباب.

يقول «كانت كالخزانة حقاً.» وهو يعتقد أن أطوالها كانت ٦٠ سم مربعاً ولم يتعدَّ ارتفاعها

Digitized by Birzeit University Library

متراً ونصف المتر. وحيث أن طولي ١٧٨ سم لم أكن أستطع الوقوف فيها». وكذلك كان الجلوس فيها مستحيلاً.

ولكن السمة الأكثر غرابة فيها هي أرضيتها. كانت من الباطون وقد برزت من على مسافات قريبة ولكن غير منتظمة مجموعة من النتوءات الحجرية. « كانت هذه الأحجار ماضية ولها أطراف حادة. وربما كان ارتفاع الواحد منها سنتمتراً ونصف أو سنتمترين. لم أكن أستطع الوقوف عليها بشكل طبيعي. تمكنت من الوقوف فوقها ولكن بصعوبة وألم. وكنت أرفع إحدى رجلي وأنزل الأخرى ثم أعود فأرفع تلك التي تعبت وأنزل الثانية وهكذا دواليك».

ويعتقد غسان أنه قضى حوالي ثلاث أو أربع ساعات في «الخزانة» في الجولة الأولى - رغم أنه يحذر من إمكانية أن يكون تقديره للوقت أكثر مما هو في الواقع. ولكن إخراجه من ذلك المكان لم يجلب له الراحة.

فُتح الباب. وقام جندي بفك قيود غسان من أجل تمكينه من ارتداء ثيابه. ثم قام بتكبيله من الأمام وقد صفعوه لأنه نزع غطاء الرأس (الكيس، المترجم) وأعادوا تعصيب عينيه من جديد ولكن هذه المرة «بنوع من النظارات؛ نظارات قماشية مصنوعة من قماش أسود، وبعد ذلك وضع الكيس فوقها. واقتيد غسان إلى ما يعتقد أنه فناء مفتوح لمزيد من أجل المزيد.

«كانوا ثلاثة أو أربعة منهم. وقد حكمت على ذلك بواسطة أصواتهم. كانوا يضربونني ثم يقولون: والآن (امشِ على يديك وركبتيك).» وكان هناك حصى في الساحة، وكان الزحف عليها مؤلماً جداً.» (كان الألم شديداً بشكل خاص بالنسبة لغسان الذي تبرز من ركبتيه بعض التشوهات العظمية.)

«ربما استمر ذلك حوالي الساعة. كنت أزحف على الأرض وهم يضربونني ويركلونني. وإذ كنت أزحف كانوا يركبون علي، يجلسون علي كما يجلس الإنسان على الحصان.»

وعندما جُلب غسان في النهاية إلى المحقق مرة أخرى قال له الرجل: «أنت ترى ما هي عليه حالتك الآن؟» وبعدها أخذ في توجيه اللكمات لغسان بينما كان هو ومحقق آخر يسألانه: هل تعرف زيداً أو عمراً» ذاكرين أسماء معينة. فقلت (لا أعرف). وقال أحدهم (إنني متهم بتهم عسكرية فقلت لهم (كلا، كلا). قال المحقق: (إننا نعرف أنك فعال في هذا المجال) فقلت (حسناً إذا كنتم تعرفون أنني فعال في هذا المجال فابرزوا لي بعض الأدلة، إنني أعرف أن ذلك غير صحيح، وإذا كان لديكم دليل ما أروني إياه). فقال (إننا نعرف، إننا

Digitized by Birzeit University Library

نعرف) واستمر في ضربي».

كان ذلك في اليوم الأول. وأخيراً حسب ما يقول غسان، حبس في زنزانة وسمح له بالنوم. وفي الصباح بدأت العملية من جديد -وتقريباً دون أي تغيير خلال الأيام الأربعة التي تلت. «الخزانة»، الفناء، التحقيق، الزنزانة. وإن لم يكن بالضرورة من أجل الاستراحة، فهذا الروتين يمكن أن يبدأ في أية لحظة ليلاً أو نهاراً.

أحياناً؛ وخلال الضرب في الفناء كانت تنزع ثياب غسان: « كانوا يأخذونني إلى الخارج حيث ينزعون ثيابي. وكانوا خمسة أو ستة أشخاص. كان أحدهم يركلني دافعاً إياي ليسلمني إلى آخر كالكرة ضاربينها ذهاباً وإياباً، بعد ذلك يجعلونني أزحف وكنت لا أزال عارياً بالطبع فجلس أحدهم على ظهري وأخذوا في الضحك.»

في مناسبة أخرى أرغم غسان على الزحف، ويا للغرابة، ليدخل في وجار كلب (بيته) الذي لا تتعدى مساحته قدمين مربعين. لم يكن الكلب في وجاره ولكن غسان كان يسمعه ينبح قريباً منه.

كان غسان أيضاً يسمع أصوات سجناء أخرين: « في إحدى المرات وفي المرحلة المبكرة جداً (من ذهابه إلى ذلك المكان -المترجم) أخذوني إلى الخزانة خلال الليل...في الساعة التاسعة إلى الثانية عشر تقريبا. ثم أخذوني إلى الخارج، وسمعت أصواتاً، أصوات ألم تصرخ وتستغيث آه يا معدتي، آه يا رأسي، إنكم تقتلونني). بالطبع لم أستطع رؤية أولئك الأشخاص الذين كانوا يئنون ولكني كنت أسمع أصواتهم».

وأكيد؛ فإن المركز كان مهيّأ للتعامل مع أكثر من سجين واحد. فما بين ١٢-١٦ حزيران وهي الأيام الخمسة من التحقيق المكثف - كان يجري التحقيق مع غسان بواسطة ستة أو سبعة أشخاص مختلفين؛ كلهم يرتدون الملابس المدنية. و لم يكن «السوري» دائماً بينهم. ولم يكن العنف يُستخدم دائماً، بالرغم من أنه كان قاسياً عندما كان يجري اللجوء إليه. ويقول غسان إن قدميه قد ضربتا بالعصا في إحدى المرات.

بعد هذه الأيام الخمسة خفّت هذه المعاملة بالنسبة إليه وقد جرى التحقيق معه ١٢ يوماً أخرى، لكن الجلسات أصبحت أقل حدة وشملت مواضيع متفرقة. وتوقفوا عن إرساله إلى «الخزانة» والساحة. يقول غسان لا أعرف فيما إذا كنت قد أقنعتهم بأن لا علاقة لي بالتهم العسكرية».

Digitized by Birzeit University Library

وفي يوم يخمّن أنه الثامن والعشرون من حزيران (١٩٧٤) نقل غسان، وهو لا يزال معصوب العينين، من ذلك المركز إلى سجن الجلمة خارج حيفا، شمالي إسرائيل. ونقل معه خمسة أو ستة أشخاص. وفي الجلمة بدأ غسان الاعتقال الذي خرج منه في شهر كانون الثاني من هذا العام (١٩٧٧).

وتنكر إسرائيل أن غسان قد تعذب. وأكثر دفاعها تفصيلاً جاء على لسان السفير دورون في خطابه الذي ألقاه في الأمم المتحدة في شهر تشرين الثاني الماضي (١٩٧٦) بعد أن تحدثت «لجنة خاصة» متعلقة بالأراضي المحتلة تابعة للأمم المتحدة عن قضية غسان حرب من جملة أشخاص أخرين.

وقد رفعت المحامية فيليتسيا لانغر العديد من هذه القضايا إلى الأمم المتحدة، وهكذا فقد بدأ دورون في الطعن بجدارة المحامية واصفاً إياها بأنها: «عضو في المكتب السياسي للحزب الشيوعي المؤيد لموسكو» و «داعية نشطة ضد الدولة ... كرست نفسها للقذف بإسرائيل وإساءة سمعتها.»

وتابع دورون يقول إن «غسان حرب اعتقل للتحقيق معه حول نشاطاته التخريبية لمصلحة منظمة إرهابية». وما أن نشرت ادعاءاته حول التعذيب حتى قام طبيبان بفحصه ووجدا أنه لم «يحدث له شيء مطلقاً». وسمح لوفد عربي من مدينته رام الله بزيارته. وقال دورون «إن الوفد قد اقتنع أنه لم تُسأ معاملته بأي شكل من الأشكال». وبالنسبة لجوهر ادعاءات غسان حرب قال دورون إنه «على إثر تحقيق نزيه» أمرت بإجرائه السلطات الإسرائيلية نفسها» يستطيع أن يعلن أنه لم يجرِ أي تعذيب «لا يوضع أحد في السجن معصوب العينين مقيداً».

ولكن الأطراف الأخرى ذات العلاقة بالموضوع لديها انطباعات أخرى. فبعد يوم واحد أو نيف من مغادرة غسان حرب مركز التحقيق زارته زوجته عفاف في سجن الجلمة. وتقول إنها أصيبت بالهلع: « لقد بدا مخيفاً؛ كان شاحباً وخائر القوى وفاقداً كثيراً من الوزن.»

وقد سببت روايتها عما شاهدته، وما رواه لها زوجها القلق في رام الله. فأسرة حرب معروفة جيداً، وكتابات غسان وخطاباته كانت قد جلبت له الشهرة. عندما رأى الحاكم العسكري في رام الله هذا الوضع أمر بنقل غسان حرب من سجن الجلمة إلى سجن رام الله.

وهنا وعند وصوله إلى رام الله فحصه طبيبان إسرائيليان فحصاً روتينياً كما يدعي غسان. كذلك قابله مندوب من الصليب الأحمر الدولي وقدم له غسان شكوى رسمية عن التعذيب.

Digitized by Birzeit University Library

وكما قال دورون فقد سمح له بمقابلة وفد مفوض من رام الله من نائب رئيس بلدية رام الله وشقيقه.

لقد تحدثنا مع كلا الرجلين، وعلى العكس مما ادعى دورون يقول الإثنان إنهما يعتقدان أن معاملة غسان قد أسيئت. يقول شقيقه إن غسان بدا مريضاً وإن وزنه قد نقص، وكانت عليه آثار سوء المعاملة من بينها ندوب. أما نائب رئيس البلدية في ذلك الوقت وهو محام يدعى ألفريد كشك؛ فيستذكر قائلاً «لقد أخبرنا أنه عُذب. لم يكن يبدو سيئاً بالشكل الذي سمعت عنه، ولكنه بدا عليلاً واعتقدنا أنه قد أسيئت معاملته».

إذن ما هي قصة «تحقيقات إسرائيل النزيهة» في القضية؟»

في وقت مبكر من شهر تموز (١٩٧٤) ومع تزايد القلق الذي أثارته زوجة غسان حرب أعلنَ شلومو هيلل وزير الشرطة عن إجراء تحقيق يقوم به ضابط بوليس. وقد أخذ غسان إلى مركز شرطة رام الله من أجل الاستجواب. ويقول غسان إنه كان مجرد شيء سطحي. فلم تزد الإفادة المأخوذة منه عن٥٠٠ كلمة. (بالمقارنة كانت مخطوطة استجوابنا المفصل لغسان تعادل ال ١١ ألف كلمة). وكذلك فقد استجوب الضابط مقدمي الشكوى الستة من موكلي فيليتسيا لانجر. وفي أوائل شهر آب (١٩٧٤) قدم تقريره الذي نفى فيه الادعاءات.

لم تخلد فيليتسيا لانجر إلى السكينة بل قدمت هي ومحام آخر يدعى وليد الفاهوم شكوى إلى المحكمة العليا في تل أبيب مدعية أن التحقيق لم يكن وافياً، وأن وزير الشرطة هيلل كان مقصرا. من ناحية تكنيكية؛ لم تكن المحكمة تستطيع أن تنظر في القضية إلا بمعناها الإجرائي الضيق. وكان المحامون يأملون، بطبيعة الحال، أن تأخذ المحكمة بالحسبان قضية الادعاءات نفسها بمعناها الواسع.

كانت مداولاتها غريبة لدرجة أنه يجب، على الأقل، أن نلقي قدراً كبيراً من الشك حول ما خرجت به. لم يُستدعَ الشهود، ولم تؤخذ إفادات أوفى وقالت المحكمة إنها حصرت نفسها «في الاختيار بين الادعاءات المتضاربة للسجناء والمحققين التي قُدمت مكتوبة ». واستناداً إلى التقارير الطبية التي «لم تشر إلى وجود أية علامات لجروح افتعلت عن قصد » فإن المحكمة قررت أن تصدق المحققين. وفي الثامن عشر من كانون الأول ردت القضية المرفوعة ضد هيلل.

Digitized by Birzeit University Library

أربع روايات دعماً لما قيل.

كما قلنا، فإننا نعرف عن ثمانية فلسطينيين آخرين كانوا في مركز التحقيق الخاص في نفس الفترة مع غسان حرب هناك. وما يزال اثنان منهم في السجن. وقد تتبعنا آثار أربعة من الذين أطلق سراحهم، وتمكنّا من إجراء مقابلات معهم وهم: محمد أبو غربية، جمال فريتخ، خلدون عبد الحق وحسني حداد.

وكان حسني حداد الوحيد الموجود في عمان مبعداً (لقد توفي في أيار هذا العام (١٩٧٧) ونحن نحتفظ بشريط يسجل مقابلتنا معه). ولا يزال الآخرون يعيشون، كغسان حرب، في الضفة العربية. ولم يجر تقديم تهمة ما ضد أي منهم.

وعلى ضوء ما قالوه فإنه من الضروري أن نتحقق فيما إذا كان من الممكن لغسان حرب والأربعة الآخرين أن يتواطأوا ويفبركوا قصصهم.

كان غسان وثلاثة منهم بالتأكيد معاً بضعة أيام في الجلمة بعد التحقيق معهم مباشرة. ولكنهم سرعان ما نقلوا بعد ذلك، ولم يكن سوى اثنين منهم في سجن واحد (خلدون عبد الحق وجمال فريتخ في سجن نابلس). ولم يكن حسني حداد مع الآخرين في الجلمة، ولكنه رأى غسان بضعة أيام في رام الله عندما أخذ إلى هناك للنظر في تمديد فترة توقيفه.

وهذا يعطي الإمكانية نظرياً لأن يكون الخمسة قد تآمروا على فبركة القصة. ولكن قصة كهذه كان يجب أن تطبخ في الأيام التي قضوها في الجلمة، وأن تمرر فيما بعد إلى حسني حداد. وهناك نقطتان أخريان: فبعد إبعاده إلى عمان لم تسنح الفرصة لحسني حداد ليقابل الآخرين. وثانياً فإننا تقابلنا في البداية مع اثنين من الذين لا يزالون في الضفة الغربية - عبد الحق وأبو غربية - دون أن نقوم بتحذيرهم أو إبلاغهم سلفاً، وقبل أن يطلق سراح الإثنين الآخرين: غسان حرب وجمال فريتخ. وقد قمنا باللقاء مع الإثنين الآخرين بعد بضعة أيام من إطلاق سراحهما.

وفي رأينا فإن هذه الوقائع ووزن وأهمية التفصيلات التي أدلى بها هؤلاء الأشخاص بعد ثلاثين شهرا من التجربة التي مروا بها تنم عن الحقيقة أكثر من كونها تلفيقات محفوظة عن ظهر قلب زمناً طويلاً.

Digitized by Birzeit University Library

وهذه هي قصصهم:

- محمد أبو غربية، وهو صانع أحذية من القدس، تكلم عن مركز التحقيق بصفته «معسكراً حربياً» حيث كان الحراس يلبسون ملابس الجنود. وهو أيضاً تعرض إلى تعريته من ثيابه وجرى تصويره وأعطي له «أوفرهول» ذو ألوان مموهة. هو أيضاً يتحدث عن تعصيب عينيه ب «كيس أسود مصنوع من قماش سميك»، وفي أعلاه ثقبان للهواء. وهو أيضاً كان معصوب العينين طوال الوقت ما عدا الفترات التي كان فيها في زنزانته أو تحت التحقيق. ومثل غسان حرب فقد تحدث عن «فناء ذي أحجار» وذكر عن وجود الكلاب.

- عندما طلب من غسان أن يقدر مساحة وحجم المركز قال إنه لا يستطيع أن يفعل ذلك لأنه يعتقد بأنه كان يجري اقتياده وتسييره بشكل دائري. وحينما سئل أبو غربية السؤال نفسه أجاب: «لا أستطيع القول. لأنهم كانوا يسيرون بي على شكل دوائر.»

- وتحدث جمال فريتخ وهو عامل من مدينة نابلس عن «بدلة سجن» و «كيس من القماش الأسود يوضع على رأسه». تحدث أيضاً عن الزحف عارياً فوق الحصى، وأضاف أن عينيه كانتا معصوبتين.

- وقال إنه كان يوضع مرة في اليوم على الأقل فيما أسماه «الثلاجة»: ٦٠ سم × ٦٠ سم وارتفاعها ١٦٠سم. وكان الباطون في الأرضية مصنوعاً بطريقة يبدو معها وكأنه تلال صغيرة قرب بعضها البعض لها أطراف حادة جداً. وكان كل واحد من هذه الأطراف كالمسمار».

- أما خلدون عبد الحق وهو شريك في شركة للبناء بنابلس؛ فقد تحدث عن تعريته من ملابسه وأخذ صورة له وإعطائه «أوفرهول مموهاً ليرتديه. وكانت عصبة عينيه عبارة عن «خريطة سوداء مصنوعة من القماش» وبها «ثقبان من الناحية العلوية من أجل دخول الهواء. وتحدث عن فناء -أسماه «مكاناً في الهواء الطلق» -حيث عُلق من ذراعيه بواسطة كُلّاب على الحائط. ويتذكر هو أيضاً خزانة صغيرة - « كانت أرضيتها مغطاة بحجارة حادة جداً مثبتة في الإسمنت».

- وحسني حداد، الذي كان عند اعتقاله صاحب مصنع في بيت لحم، قد أعطي جاكيت وبنطلون من الكاكي وليس «أوفرهول». أما «الكيس الكتاني الأسود ذو الثقبين» فلم يتغير. وكذلك كان هناك «نوع من الحديقة مفروشة أرضيتها بالحصمة» حيث أرغم

Digitized by Birzeit University Library

مرة على الزحف وكان يركل أثناء زحفه. وهو أيضاً يتذكر زنزانة صغيرة مقاسها ٥٠ سم×٥٠ سم× ١٥٠ سم وفي أرضيتها نتوءات «تشبه إبهام الإنسان».

وحتى التفصيلات الدنيوية في رواية غسان حرب فقد أكدها حسني حداد. قال كلا الرجلان إنه كانت توجد على جدران غرفة التحقيق الأولى رسومات للأسلحة. وقال كلاهما إن ضجة غريبة كانت تزعجهما أثناء النوم. تحدث غسان عن «صوت محركات تئز» وتكلم حسني عن نوع من «ضجة الهسيس صادرة عن محركات أو ربما ضجة طنين» وأيضاً الصحون البلاستكية، عدم وجود سكاكين للأكل، والسطل البلاستيكي الذي كان يستعمل بدل المرحاض، عدم وجود ورق تواليت... عشرات من التفاصيل التي تتماثل في الروايات الخمسة.

يوجد هناك كذلك بعض التضارب. فخلدون عبد الحق، مثلاً يذكر أن الفناء «يشبه التراب» وينفي وجود أحجار أو حصى. كما أن إساءة المعاملة تختلف من حيث النوع والمدى، أما بالنسبة لسوء المعاملة المزعومة فقد اختلفت من حيث النوع والمقدار. فجمال فريتخ يدعي وجود ضرب متواصل تقريباً وإهانات. ويقول أبو غربية إنه بالكاد لمس (ربما أن سبب ذلك يرجع إلى أن أبو غربية كان يعاني من السل في الماضي، وإلى أنه كان مريضاً في معدته وقت اعتقاله).

على أية حال، إذا ما أخذنا الدلائل بمجملها نستنتج أنها تؤدي على الأقل إلى وجود واقعة لم تنقض بالدليل وهي أن إسرائيل أدارت عام ١٩٧٤، مركزاً للتحقيق مداراً من قبل الجيش، حيث كان المتهمون يُشبحون وتُقيد أيديهم باستمرار ويحرمون من النوم وأنواع الراحة الأخرى التي يحتاجها الإنسان، ويتعرضون بشكل منهجي إلى المعاناة الجسمانية والعقلية.

أين حدث كل هذا؟

أين يوجد هذا المركز من مراكز التحقيق؟ أين هو «قصر النهاية» هذا؟ إن أكثر الإجابات معقولية هي أنه يقع وراء سياج الأسلاك العالي الذي يشاهده جميع السواح أثناء اجتيازهم القسم الأخير من طريق القدس - تل أبيب. إن الأسلاك ونقاط التفتيش العسكرية على اثنين من المداخل وبعض بنايات قميئة هي كل ما يمكن مشاهدته من الأميال العشرة المربعة التي تضم أكبر مستودع للذخيرة والمعدات الحربية في إسرائيل وهو «صرفند» (كما أن الصندوق القومي اليهودي «الكيرن كاييميت - المترجم) يستخدم جانباً من صرفند لإيواء معداته المستعملة لمد الطرق في مستوطناته في إسرائيل والأراضي المحتلة).

Digitized by Birzeit University Library

يحتل صرفند مكاناً مرموقاً في الدراسات المتعلقة بالأساطير الفلسطينية. فعشرات من الروايات تتحدث عنه. ومعظم الذين ذهبوا إلى مركز التحقيق يشيرون إليه أوتوماتيكياً بإسم صرفند. ولكن هذا مجرد افتراض من قبلهم كما سيبين التحقيق بعد قليل.

مع ذلك توجد أسباب تاريخية تبين لماذا يمكن أن يكون هؤلاء على صواب. فقد بني صرفند كمستودع بريطانيا الرئيسي للمعدات الحربية في فلسطين قبل الحرب العالمية الثانية، وعندما احتاجت فيها بريطانيا إلى معسكرين لإيواء المعتقلين العرب خلال الاضطرابات التي وقعت في أواخر الثلاثينات، بنت واحداً في صرفند (وكان الآخر في غزة). وهكذا فإن العديد من بنايات الانتداب البريطاني قد استولى عليها الإسرائيليون واستخدموها من أجل أن تصبح صرفند الخيار المنطقي لإيواء جيل جديد من المعتقلين العرب.

واتضح من روايات المعتقلين أن مركز التحقيق الجديد الغامض الذي كان يديره رجال الجيش وضع قيد الاستعمال بعد حرب عام ١٩٦٧. وقد مرت ثلاث سنوات أخرى تقريباً قبل أن يجري تجديد بناياته التي كانت متداعية في البداية كما لو أنها لم تكن تستعمل لفترة من الوقت. (وقد لاحظ هذه العملية بعض المعتقلين الذين أخذوا إلى هناك في فترات مختلفة).

ولعل التأكيد الواثق بأنهم كانوا في صرفند جاء من أولئك الخريجين (نزلاء السجن) في الفترة المبكرة. ومع هذا يبدو أن كلا منهم قد عرف ذلك من السجناء الذين كانوا موجودين هناك قبله. وقد ادعى واحد فقط أنه شاهد لافتة مكتوب عليها «سجن صرفند». ونعتقد أن هذا غير محتمل.

في تلك السنوات المبكرة كان تعصيب العينين أقل إتقاناً، واستطاع عدد قليل من المعتقلين رؤية ما يحيط بهم. ويذكر أحدهم شجرة كينا. ولكن بعد عام ١٩٧٠ حرم تعصيب العينين والعزل المستمرين للمساجين حتى من رؤية هذه الاشياء.

لايزال السجناء يستطيعون أن يسمعوا، وبالطبع يتحدث العديدون عن طائرات كانت تحلق فوقهم. وتقع صرفند تحت ممر جوي يؤدي إلى مطار اللد الذي يبعد خمسة كيلومترات. ولكن في الوقت الذي يتحدث البعض عن طائرات ثقيلة تحلق على ارتفاع منخفض الأمر الذي يفترض وجود مطار قريب -يقول آخرون إن الطائرات كانت تحلق عالياً (وحيث أن شهادتهم هي أقل ما يمكن التنبؤ بها فيبدو أنه من الممكن تفضيل الشهادات التي تتحدث عن التحليق المرتفع للطائرات.

Digitized by Birzeit University Library

لقد تمكن الإسرائيليون من عزل أولئك الذين كانوا رهن التحقيق منذ عام ١٩٧٠-١٩٧١ بشكل تام لدرجة أن الدليل الوحيد عن عدم نقل المركز إلى موقع آخر قد ورد على لسان سجينين كانا هناك قبل وبعد تلك الفترة وأفادا أنهما واثقان من أنهما كانا في المكان ذاته في المرتين.

ولكن عندما حاولنا أن نلائم التفاصيل الطوبوغرافية المبكرة القليلة مع تلك التي أخذت من غسان حرب وغيره من المعتقلين عام ١٩٧٤ لم نستطع أن نقرر أن المكان هو نفسه. ولم يكن غسان حرب ولا رفاقه مستعدين للتأكيد على أنهم كانوا في صرفند.

يستذكر غسان حرب: «كان الآخرون يقولون إنه صرفند، «ولكنني لا أعرف» لأن الطقس كان شديد الحرارة هناك. يميل غسان حرب إلى الاعتقاد أنه كان في «الجزء الجنوبي من إسرائيل». (ولكنه كان يعيش في التلال الباردة، وكل السهل في إسرائيل حار في شهر حزيران.

ويتفق حسني حداد مع غسان حرب. ويقول «أنا سائق وأعرف الطرق» ويعتقد أن سيارة الجيب التي أقلته من بيت لحم استدارت واتجهت إلى الجنوب قبل أن تصل إلى صرفند. وقال حسني أيضاً إنه مع اقتراب إقامته في المركز من الانتهاء ارتخى مصراع نافذة زنزانته فشاهد حركة سير سريعة على طريق رئيسي يبعد ١٥٠ ياردة، وهذه هي المسافة من الطريق إلى البنايات التي يمكن مشاهدتها في صرفند. ولكن حسني حداد أيضاً يعتقد أن نسبة كبيرة من السيارات التي رآها كانت تحمل لوحات أرقام رمادية فاتحة مما يدل على أنها من غزة. لذلك فهو يعتقد أن المركز كان بمكان ما قريب من قطاع غزة.

للصليب الأحمر حدود

تستشهد إسرائيل بشكل عام باللجنة الدولية للصليب الأحمر دفاعاً عن نفسها. فمثلاً في شهر تشرين الثاني من العام الماضي (١٩٧٦) قال السفير دورون: إن تفاصيل عن كل سجين أمني ترسل، إثر اعتقاله إلى اللجنة الدولية للصليب الأحمر. قال أيضاً «وحتى أن هذه الفئة من المعتقلين تتمتع ببعض الامتيازات الإضافية كالزيارات من قبل ممثلي الصليب الأحمر الدولي ... وفي مثل هذه المناسبات يستطيعون أن يتحدثوا مع كل سجين على انفراد».

لم يذكر السفير دورون نقطتين هامتين؛ لقد استطاع الصليب الأحمر حقاً منذ عام ١٩٦٨ أن يزور السجناء في الأراضي المحتلة. (تنكر إسرائيل أن ميثاق جنيف ينطبق على هذا الوضع،

Digitized by Birzeit University Library

ولهذا فهي لا تتنازل للصليب الأحمر عن أية حقوق ولكن تسمح له بالدخول). وعلى كل حال؛ فإن إسرائيل منعت الصليب الأحمر من رؤية السجناء الموجودين رهن التحقيق خلال السنوات السبع الأولى هذه.

ولم يتحدث دورون عما نعرف صحته من مصادر لا يمكن الشك فيها، وهو عندما كان مندوبو الصليب الأحمر يزورون السجناء خلال التسع سنوات الماضية كانوا يسمعون القصة تلو الأخرى عن إساءة المعاملة والتعذيب. وقد أرسل الصليب الأحمر مئات الإشعارات التي تبين ذلك إلى الحكومة الإسرائيلية.

بطبيعة الحال؛ اكتسبت لجنة الصليب الأحمر الحق في العمل بتقديمها الوعود للحكومات بأن تبقى صامتة. ويتعهد مندوبوها وجميعهم من السويسريين بألا يتحدثوا أبداً عن عملهم. فقد علمنا من مصادر لا يرقى إليها الشك عن المشاكل التي يواجهها الصليب الأحمر في الأراضي المحتلة.

إن الصليب الأحمر لا يُبلِّغ فوراً عن الاعتقالات. غالباً ما يكون المحامون أو أهالي السجناء هم الذين يتصلون بالصليب الأحمر، وهم عادة لا يعرفون مكان وجود أبنائهم في تلك الفترة. وعندها يحاول الصليب الأحمر تتبع آثار المعتقلين والوصول إليهم في أسرع وقت ممكن - وخاصة إنْ كان هناك موجب لتوقع إساءة المعاملة. ولكن المندوبون يواجهون ثلاث مشاكل:

إنهم يستطيعون زيارة السجون فقط لا مراكز البوليس أو المعسكرات الحربية، وحتى دخولهم إلى السجن فهو محدود، وتوجد في سجون الأراضي المحتلة مجموعات من الزنازين ملحقة بالسجون ولا يستطيع الصليب الأحمر رؤيتها. وبعض المعتقلين يكونون خارج السجن نفسه منوطاً أمرهم بمكتب الحاكم العسكري المحلي. في سجن نابلس مثلاً توجد الزنازين الخاصة المعروفة باسم «الإكسات» في الطرف الجنوبي من السجن على مقربة من زنازين الحبس الانفرادي. وهذه الزنازين موضوعة تحت إشراف أجهزة الأمن، ولا يستطيع الصليب الأحمر الوصول إليها.

ولم يستطع الصليب الأحمر خلال السنوات الثماني الأولى من الاحتلال أن يزور المساجين، أي سجين في مركز التوقيف والتحقيق في القدس المعروف باسم المسكوبية. ولا يحق له الوصول إلى مركز التحقيق السري الذي كان غسان حرب معتقلاً فيه.

وأكثر من ذلك يتوجب على الصليب الأحمر أن يقدم إلى سلطات السجن قبل ٤٨ ساعة

Digitized by Birzeit University Library

قائمة بأسماء السجناء الذين يرغب في رؤيتهم بشكل خاص. ويحدث أحيانا أنه عندما يصل المندوبون يجري إخبارهم بأن السجين المطلوب قد نقل إلى سجن آخر. ويضيف المندوبون المسؤولون عن ذلك السجن فوراً اسم ذلك الشخص إلى قائمتهم. وإذا ما أبلغ الأخيرون بأن السجين قد نقل مرة أخرى ـ وهي عملية وصفت لنا وكأنها بمثابة «اللعب بالورق»- فإن قلقهم يتزايد حتماً.

وهكذا يمكن للصليب الأحمر أن يصل إلى السجناء بعد أن يبحث عنهم وبعد أن يكون التحقيق معهم قد انتهى. وأبلغنا العديد من الشهود كيف كان مندوبو الصليب الأحمر يبادرونهم بالتحية عندما يقابلونهم في نهاية المطاف قائلين: «كنت أبحث عنك في كل مكان»؛ كما جاء على لسان أحد المندوبين. أما مندوب آخر فقال: «الآن وجدتك، فسوف تكون آمناً.»

هل يسمع الصليب الأحمر عن ادعاءات كثيرة عن إساءة المعاملة؟ بطبيعة الحال لا يصرح الصليب الأحمر بذلك. لكن انطباعاتنا أنه في الوقت الذي يذكر فيه السجناء الضرب بشكل شائع فإن حوالي نصف السجناء أو أقل يدعون أنهم تعرضوا لأنواع مختلفة من سوء المعاملة. ولم يقرر هؤلاء كلهم التقدم بشكاوى رسمية.

وحتى في حالة تقديم شكوى رسمية - التي يرسلها الصليب الأحمر دون أي تعقيب إلى السلطات الإسرائيلية - فمن النادر أن يعلم الصليب الأحمر إذا ما اتخذ أي إجراء نتيجة ذلك أو حتى إذا ما جرى مجرد تحقيق في الشكوى. ويمكن أن يلاحظ المندوبون في فترة ستة أشهر مثلا أن الشكاوي حول نوع معين من المعاملة أخذت تقل أو يكتشفون أن محققاً معيناً قد تم نقله. هذا كل ما في الأمر.

وقد استطاع الصليب الأحمر في صيف عام ١٩٦٩ أن يقنع الإسرائيليين بالسماح لمندوبيه أن يزوروا بعض أولئك الموجودين رهن التحقيق، ولكن في السجون فقط، وليس في مراكز الشرطة أو المعسكرات الحربية. واستمر ذلك خمسة أشهر وبعدها غيَّر الإسرائيليون رأيهم. وقد كتبت لجنة الصليب الأحمر الدولي فيما بعد: «بالرغم من أن مندوبيها اعتقدوا أن هناك بعض التحسن في ظروف التحقيق فإن لجنة الصليب الأحمر الدولي ترى أن نظام الزيارات التي وضعتها السلطات الإسرائيلية لا يسمح لها بالتأكيد من أنه لا تحدث وسائل مغايرة للقانون الإنساني أثناء التحقيق».

حدث هذا في أيلول سنة ١٩٧٠، وبعد ست سنوات، وبعد أن نشرت أخبار في الصحف

Digitized by Birzeit University Library

الإسرائيلية تقارير تفيد بأن الصليب الأحمر راضٍ عن الأوضاع، أصدرت لجنة الصليب الأحمر الدولية تصريحاً عاماً نادراً آخر. (يقول الصليب الأحمر إنه يلجأ إلى ذلك فقط عندما يشعر بأن السياسة القائمة على الصمت تُستغل أو يُحط من قدرها). في ١٢ كانون الثاني من هذا العام (١٩٧٠) قال الصليب الأحمر «إن هناك عدداً من المشاكل التي كانت تُطرح بانتظام من قبل لجنة الصليب الأحمر الدولي لم يجر حلها، وبيّنت اللجنة أن زيارة أولئك الذين هم رهن التحقيق ما زالت ممنوعة عليها».

تفسيرات إسرائيل في الأمم المتحدة

يمكن اعتبار التأكيدات التي عرضها يعقوب دورون سفير إسرائيل في الأمم المتحدة في تشرين الثاني الماضي (١٩٧٦) تجسيداً لرد فعل إسرائيل على النطاق الدولي. قال دورون: «إن بلادي تحافظ بفخار على رقمها القياسي في الاحترام الوثيق لحكم القانون في المناطق المدارة. وقد سلكت إسرائيل مسلكاً ليبرالياً متنوراً بما في ذلك الاعتراف الصريح بأية أخطاء يمكن أن تكون قد ارتكبت، وبذلت مجهودات من أجل تصحيحها...».

واعترف دورون بهذه الأخطاء «صحيح أنه في حالة أو اثنتين، وهو أمر شاذ كلياً، استخدمت، مع الأسف، القوة ضد سجناء. وأدت هذه الحالات الاستثنائية، لسوء الحظ، إلى موت أحمد الشيخ دحدول...».

وكان أحمد الشيخ قد ضرب حتى الموت على أيدي جنود في آذار ١٩٧٦؛ وذلك عندما كان يُنقل في سيارة عسكرية إلى مركز شرطة طولكرم التي تبعد ٢٠ ميلاً من شمال شرق تل أبيب. ويصف دورون الوضع الذي حدث بعد ذلك: «لقد طبق القانون بشدة من قبل السلطات الإسرائيلية، ولم تكن هناك أي محسوبية سواء في المحاكم أو لدى التحقيق. وقد وجد الضابط المعني مذنباً وحكم عليه بالسجن لمدة طويلة.»

عندما توفي أحمد الشيخ دحدول أعلنت السلطات الإسرائيلية أن سبب ذلك هو إصابته بنوبة قلبية. وقد عارض ذلك طبيب عربي قام بمعاينته. بالرغم من الضجة الكبيرة لم تبدأ الحقيقة في الظهور إلا بعد أربعة أشهر عندما أبلغت السلطات فجأة محامية أحمد الشيخ – وهي – فليتسيا لانغر ذاتها – أنه سيجري تقديم لائحة اتهام بحق أحد الضباط.

ولم يُنشر حتى الآن علنياً أي دليل على أن المحاكمة قد حصلت. قيل إنها جرت في محكمة

Digitized by Birzeit University Library

عسكرية، وإنها انعقدت سرياً. ولم تستطع السيدة لانغر إرسال مراقب للمحاكمة؛ ناهيك عن المشاركة في الإجراءات القضائية. ولم يُتخذ أي إجراء حتى الآن ضد الجنود الذين قاموا بالضرب عملياً. (رغم أن المدعي العام قد أعلن مؤخراً أنهم سوف يحاكمون). ولم تؤخذ أية شهادة من السجناء العرب الآخرين الذين كانوا في السيارة مع أحمد الشيخ دحدول. أعلنت السلطات فقط أنه جرى تنزيل رتبة ضابط من ميجور إلى جندي وحكم عليه بالسجن لمدة عامين. وترفض إسرائيل، حتى يومنا هذا، الكشف عن اسم الجندي أو تعلن عن المكان الذي يقضي فيه مدة حكمه.

وأخيراً حصلت عائلة دحدول في كانون الأول الماضي (١٩٧٦) على أمر من المحكمة العليا من أجل الحصول على نسخة من سجل المحكمة. وقبل شهرين أجابت المحكمة العسكرية بأنها يمكن أن تسمح للسيدة لانغر رؤية نسخة - إذا وافقت المحامية على عدم نسخها أو كتابة أي شيء عنها. وقد رفضت السيدة لانغر هذا.

إن المعركة من أجل رؤية تسجيل هذا «الاعتراف الصريح» الفريد من نوعه ما زالت مستمرة، كذلك فإن الإدعاءات مستمرة.

ملحق بالأسماء

قام فريق التحقيق بمقابلة ٤٤ فلسطينياً ادعوا بأنهم تعرضوا لإساءة المعاملة أو التعذيب على أيدي أجهزة الأمن الإسرائيلية. ومن هؤلاء وافق ٢٢ شخصاً لا يزالون يعيشون تحت الحكم الإسرائيلي على نشر أسمائهم وهم:

غسان حرب، رام الله، محمد أبو غربية، شرقي القدس، جمال فريتخ، نابلس، خلدون عبد الحق، نابلس، محمود المغربي، القدس القديمة (أعتقل مجدداً بعد مقابلتنا له وهو يقضي الآن حكماً بالسجن لمدة ستة أشهر في سجن الدامون)، حسن حماد، القدس القديمة، إسحق الحلفاوي، شرقي القدس، سمير إدكيدك ، شرقي القدس، عمر عبد الكريم سلامة، بيت ساحور، يوسف عودة وابنته ليلى، أريحا، جميل أبو غربية، شرقي القدس، فوزي عبد الواحد نجم، مخيم المغازي – غزة، زهير الدبعي، نابلس، نبهان خريشة، طالب في جامعة بيرزيت، شحادة عبد الهادي محمد الشلالدة، رام الله، عصام عاطف الحموري، الخليل، عبد الكريم طه الشلودي، طالب في مركز التدريب المهني في قلنديا، أسعد سنقرط طالب في جامعة بيرزيت، سيف سليمان الأطرش أبو عطوان، دورا، فايز توتنجي، القدس القديمة.

Digitized by Birzeit University Library

ووافق ثلاثة آخرون من الفلسطينيين الذين، رغم عدم ادعائهم بالتعرض للتعذيب، إلا أنهم قدموا براهين منسجمة مع غيرهم، وافقوا على نشر أسمائهم وهم: حسان المغربي (والد محمود المغربي)، القدس القديمة، طه مصالحة، طالب في الجامعة العبرية، القدس الغربية، وخليل رشماوي، بيت ساحور.

تأكيد وجود نتوءات مدببة في أرضية الزنزانة

في القسم الثالث من التحقيق عن قصة غسان حرب؛ تناولت «نظرة فاحصة» قضية أحد الشيوعيين الفلسطينيين المثقفين الذي احتجز دون محاكمة ابتداء من نيسان ١٩٧٤ وحتى شهر كانون الثاني الماضي ١٩٧٧.

لقد سردنا أقواله بتعرضه للتعذيب في مركز استجواب غير معروف يسمى تهكماً «قصر النهاية»، وبيَّنا كذلك أن أربعة آخرين من نفس المركز على ما يبدو، أعطوا وصفاً بيانياً مؤيداً لما حدث. وبحثنا في احتمال أن يكون هناك تواطؤ بين هؤلاء الأشخاص. وقلنا إنه إذا ما أُخذت تلك الأدلة ككل، فإننا نستنتج أنها ترقى إلى كونها دعوى كافية للأسباب والأدلة ما لم يتوفر ما ينقضها.

رد إسرائيل: إن ما نشرته «نظرة فاحصة» أخفى دور الحزب الشيوعي في الضفة الغربية في الإرهاب المادي والوحشي.

المحرر: على العكس من ذلك تماماً، فقد خصصنا خمس فقرات للحديث عن تحالف الحزب الشيوعي مع منظمة التحرير الفلسطينية، غير أننا أشرنا إلى أنه لم توجه تهمة ارتكاب مخالفة إلى أي واحد من الشهود الخمسة الذين وردت أسماؤهم في هذا القسم. ثم أضفنا: «إن ذلك لا يثبت طبعاً أن أياً منهم لم يرتكب مخالفة، لكن القضية هي أنه حتى ولو كان غسان حرب ورفاقه مذنبين، كيف عوملوا؟

إسرائيل: إن حقيقة وجود سجناء معاً، مثلا، في سجن بعينه وان كليهما قد وصف السجن، لهي في الواقع دليل، بالفعل ولكنه دليل على حقائق ليست موضوع بحث.

المحرر: يبدو أن هذا يؤكد جزءاً هاماً من شهادة شهودنا. إن المرة الوحيدة التي قارنا فيها الأوصاف بتلك الطريقة كانت في قضية مركز الاستجواب إلى حيث أخذ غسان حرب ورفاقه وغيرهم، وقد فعلنا ذلك لأنهم كانوا محتجزين كل على حدة، وليس -معاً- كما لم يكن

Digitized by Birzeit University Library

المركز سجناً بل معسكر استجواب سري، واتفقوا جميعاً على نقطة رئيسية، وهي تأكيد على وجود زنزانة صغيرة - «ثلاجة» - ذات نتوءات إسمنتية مسلحة مقامة على أرضية الزنزانة. وهكذا تبدو إسرائيل مقرة بأن السجناء كانوا معتقلين في ظروف كتلك.

رد إسرائيل: كان حرب يعاني من البواسير وقد قالت عنه زوجته.

المحرر: إن إسرائيل غير حكيمة في إثارة هذه النقطة. كان حرب بحاجة إلى إجراء عملية بواسير، ولكنه اعتقل قبل ثلاثة أيام من موعد إجراء العملية. وقد رفضت إسرائيل إجراء تلك العملية رغم الطلبات المتكررة من جهات كثيرة بينها الصليب الأحمر الدولي. وصرح لنا الطبيب الذي أجرى لحرب العملية بعد ٣٣ شهراً١ضش بأن تلك العملية قد تأخر موعد إجرائها كثيراً. وفي غضون ذلك كان للأطباء الإسرائيليين الملحقين بقوات الأمن الوقت الكافي لإجرائها لو أرادوا.

أما بالنسبة لزوجة حرب؛ فإننا نعتقد بانها بالغت قليلاً في وصف حاله بعد استجوابه، وقد أوردنا شهادة شاهد بذلك الخصوص إذ قال - إن حرب لم يبدُ بحالة سيئة كما لم يكن وضعه سيئاً كما سمعنا، ونحن نعتقد أن زوجته قد بالغت في أمر مرضه عند اعتقاله لأسباب مفهومة. لقد كان حرب في الواقع رجلاً مليئاً بالحيوية ويشغل وظيفة مسؤولة.

رد إسرائيل: ان القائمة الهائلة من الشهادات الطبية عن الفحوص التي أجريت لحرب وهو رهن الاعتقال -تنفي تلك المزاعم - كما لم يحاول احد إبراز أي تقرير طبي يتعارض مع ذلك. لم يشك حرب من التعذيب للأطباء الذين قاموا بفحصه.

المحرر: كيف يمكن لحرب إبراز أي دليل طبي يتعارض مع تلك الشهادات. فقد كان رهن الاعتقال في إسرائيل، ولا يستطيع الوصول إلى أطباء مستقلين - الشاهدان المستقلان تقريباً هما الرجلان اللذان زارا حرب في السجن - أعربا عن اعتقادهما بأنه عومل معاملة سيئة. وأشرنا كذلك أن إسرائيل لم تنفِ ما ذكرناه من أن مندوب إسرائيل في الأمم المتحدة أعطى وصفاً غير صحيح لنتائج تحريات هذين الرجلين.

أما بالنسبة للفحوص الطبية؛ وقد ذكرت إسرائيل ستة تقارير، منها اثنان فحص أسنان؛ فيتضح من تاريخ تلك الفحوص أن ثلاثة منها تمت قبل استجواب حرب. أما الفحص الوحيد الذي له صلة بالموضوع فقد تم يوم ٤ تموز ١٩٧٤ أي بعد ١٨ يوماً من انتهاء الاستجواب المكثف وقد أجري ذلك الفحص لأن المحامية فيليتسيا لانغر الموكلة بالدفاع عن آخرين غيره طلبت إجراء تحقيق في الأمر - وقد نشرنا رسالة منها بهذا الشأن.

Digitized by Birzeit University Library

لقد أشرنا في تحقيقنا إلى قول حرب إن الفحص الذي أجري له في ٤ تموز كان فحصاً روتينياً وإنه حتى الحكمة العليا - التي وجهنا النقد إلى طريقة معالجتها للقضية - لم تقل إن حرب لم يكن به إصابات. وقد لجأت المحكمة إلى استعمال تعبير غريب إذ قالت إنها لم تجد إشارات تدل على «إنزال»، ويعني هذا الكلام أن المحكمة التي انعقدت سراً اختارت تصديق رواية السلطات عن كيفية إصابة حرب بالإصابات التي كانت مدونة أمامها.

المراكز

في القسم الرابع من تحقيقنا بعنوان «أين حدث ذلك». حاولنا تحديد موقع (قصر النهاية) الغامض. وخلصنا إلى القول إنه ربما كان في صرفند خارج تل ابيب. لكننا أضفنا قولنا - إن هناك دليلاً يشير إلى وجود معسكر استجواب ثانٍ على الأقل في مكان ما بالقرب من غزة.

رد إسرائيل: لا تعليق لديها.

المحرر: اعترفت إسرائيل في الأسبوع الماضي لوكالة رويتر بأنه كان هناك فعلاً مركز استجواب في غزة، لكنها لم تسمح لمراسل رويتر بزيارة المركز.

من كراس "إسرائيل والتعذيب" النسخة الإنكليزية أعادت طباعة الكراس الحملة الفلسطينية لحقوق الانسان (والنت باتم، ١٩٧٧)، ص. ١٤ من الشمال محمد أبو غربية، حسني حداد، خلدون عيد الحق وغسان حرب مع ابنه فادي الذي ولد وهو في السجن.

Digitized by Birzeit University Library

ملحق ٦

مسك الختام

If Sidu Ghassan were here I think he would be something like Baba my dad. He would be kind and sweet. He would love me, Lana, and Carine. I would've loved to know him.

-Danna Fadi Ghassan Nassif Harb

أعتقد أنه لو كان سيدو غسان موجوداً الآن لكان مثل بابا والدي؛ لكان حنوناً وطيباً؛ وكان سيحبني أنا ولانا وكارين. كنت أودّ كثيراً أن أعرفه.

دانا فادي غسان ناصيف حرب

١٠سنوات

انتهى

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

ألبوم الصور

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

وثائق وشهادات

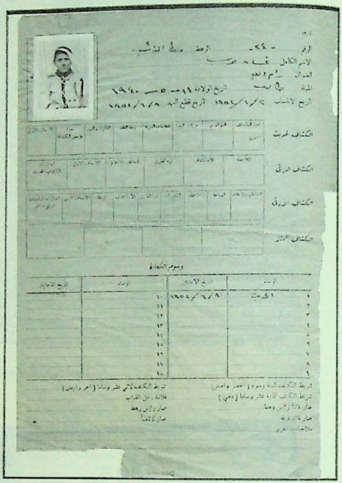

وثيقة عضوية في كشافة رام الله - ١٩٥٢

شهادة الثانوية العامة - ١٩٥٨

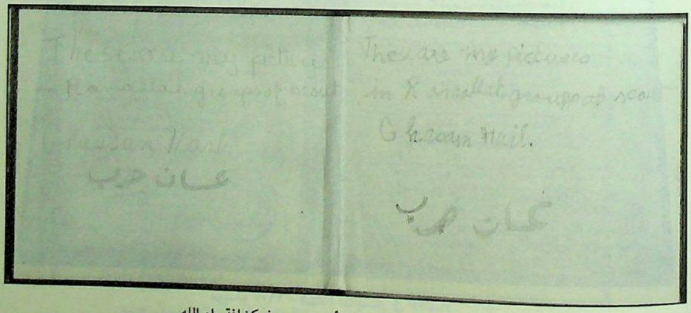

رام الله ١٩٥٢- توثيق غسان لألبوم صوره في كشافة رام الله

Digitized by Birzeit University Library

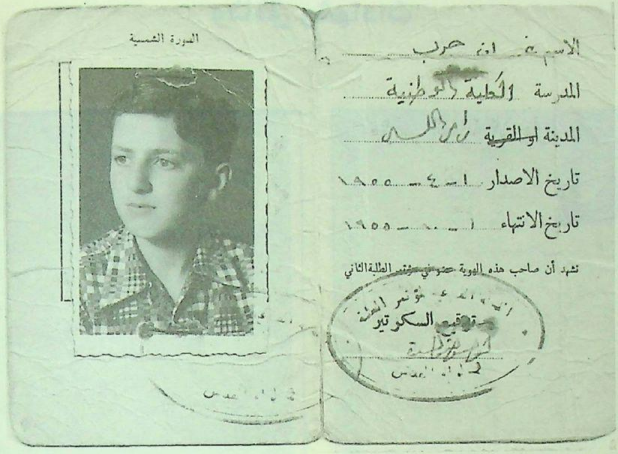

رام الله ١٩٥٦- بطاقة مدرسة الكلية الوطنية

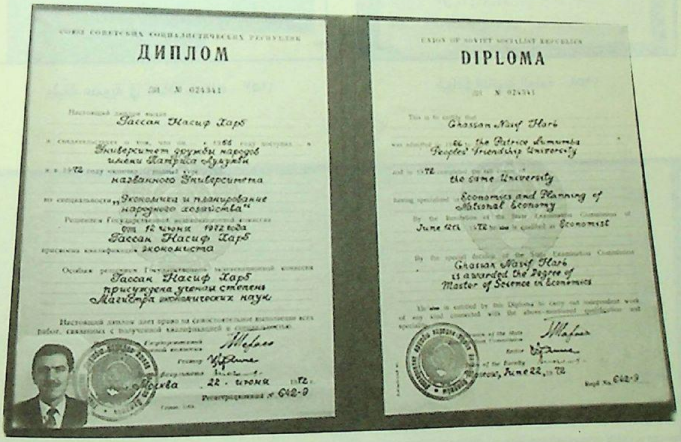

موسكو ١٩٧٢ - شهادة الماجستير في الاقتصاد

Digitized by Birzeit University Library

УНИВЕРСИТЕТ ДРУЖБЫ НАРОДОВ имени ПАТРИСА ЛУМУМБЫ

ДИПЛОМ

№ 000913

Настоящий диплом выдан

Гассан Насиф Харб

в том, что он (она) в 1966—1972 гг. во время обучения в Университете дружбы народов имени Патриса Лумумбы прослушал(а) полный курс русского языка и сдал(а) государственный экзамен по русскому языку с оценкой отлично

Решением Государственной экзаменационной комиссии от 28 августа 1972 г. ему (ей) присвоена квалификация переводчика с русского языка на арабский

Председатель Государственной экзаменационной комиссии

Ректор

Москва, 2 августа 1972 г.

Регистрационный № 423-9

PATRICE LUMUMBA PEOPLES' FRIENDSHIP UNIVERSITY

DIPLOMA

№ 000913

This is to certify that Ghassan Nasif Harb during his (her) studies at the Patrice Lumumba Peoples' Friendship University from 1966 till 1972 completed the University course of the Russian language and passed the State Examination in the Russian Language with the mark very good

The State Examination Board certifies that he/she is qualified as an interpreter from the Russian language into Arabic language

Chairman of the State Examination Board

Moscow, August 2, 1972

Reg. No 423-9

موسكو ١٩٧٢- شهادة ترجمة من الروسية للعربية وبالعكس

نقابة عمال البناء
لواء رام الله
تأسست سنة ١٩٦٥

والمؤسسات العامة
البيرة
تليفون ٩٥٢٩٣٢

الدورة النقابية الأولى

١٩٨١

شهادة تقدير

تقديرًا لنشاطكم في الدورة النقابية الأولى لسنة ١٩٨١ التي أقامتها نقابة عمال البناء والمؤسسات العامة في لواء رام الله والبيرة أعطيت لكم هذه الشهادة.

٢٤ تموز ١٩٨١

أستاذ الدورة

أمين سر النقابة

رام الله ١٩٨١- نموذج لشهادات الدورة النقابية التي أعطاها غسان حرب

Digitized by Birzeit University Library

غسان حرب (١٩٤٠ - ١٩٨٤)

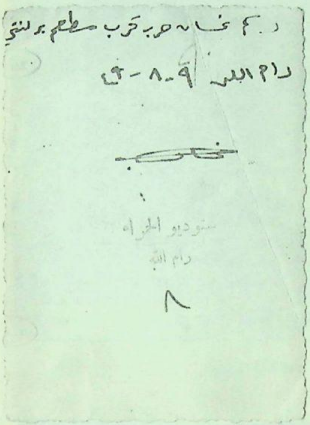

١٩٤٩ - توثيق بخط غسان للموقع والتاريخ

الوالدة أم حرب وابنائها عبلة غسان ونبيلة

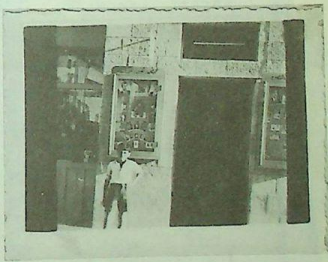

الطفل غسان حرب أمام إحدى المحلات برام الله

Digitized by Birzeit University Library

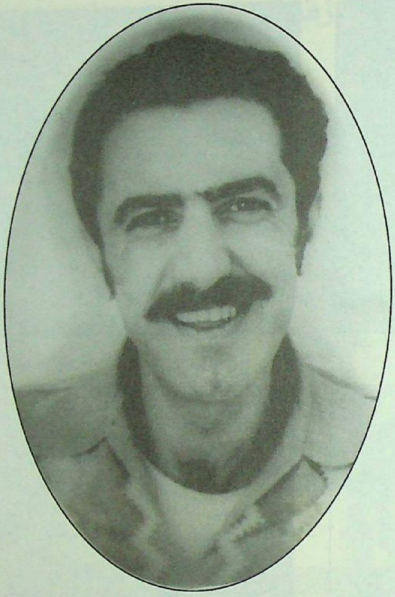

رام الله - ١٩٤٩

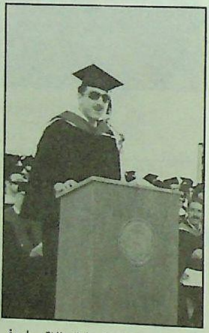

إلقاء كلمة كلية التجارة والاقتصاد في حفل التخريج ١٩٧٩-١٩٨٠

بفلو ١٩٨٢ في بارك داريان لايك

مكتبة جامعة بيرزيت الرئيسية
Digitized by Birzeit University Library

الدورة النقابية ١٩٨٠ - ١٩٨١

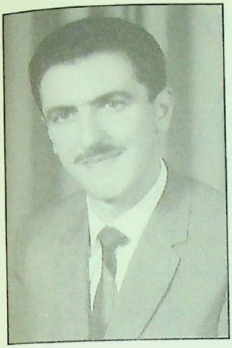

رام الله - ١٩٦٦

في المنزل - بغلو ١٩٨٢-١٩٨٣

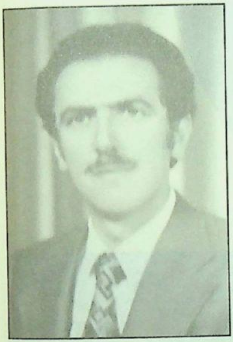

رام الله - ١٩٧٧

روسيا - ١٩٧٢

بغلو ١٩٨٢-١٩٨٣

Digitized by Birzeit University Library

زفاف غسان وعفاف

عمان ١٩٦٩ - مع د. عيسى دباح

عمان ١٩٦٩ - مع من حضر من عائلة غسان: الوالدة أم حرب، وأخوه حرب حرب وزوجة أخيه أم ناصيف وأولادها

عمان ١٩٦٩ - مع الأصدقاء غالب عودات ومازن الهلسة

Digitized by Birzeit University Library

عمان ١٩٦٩ - أثناء الاكليل يظهر الرفيق فؤاد نصار في الصورة

عمان ١٩٦٩ - مع د. سلوى ونجوى النجاب ود. لميس وخليل أبو نحلة

Digitized by Birzeit University Library

عائلة غسان حرب

رام الله ١٩٤٤ - مع ابن العم ماجد واخوة غسان طلعت وعبلة

رام الله ١٩٦٦ - مع أخيه طلعت والاصدقاء

رام الله ١٩٤٦ - في المدرسة

رام الله ١٩٤٦ - مع والديه وإخوته

رام الله ١٩٧٩

بفلو ١٩٨٢- الوالدة أم حرب والأخ حرب حرب،
والأخوات عبلة شامية ونبيلة سالم

Digitized by Birzeit University Library

عائلة غسان ١٩٦٦ - تحتفل بالإفراج عن الأبناء طلعت وغسان من الجفر

رام الله ١٩٧٣- عيد ميلاد فجر الثالث

رام الله ١٩٧٧

رام الله ١٩٧٧ – عائلة حرب تحتفل بالإفراج عن غسان من الإعتقال الإداري

رام الله ١٩٧٧ - مع الوالدة أم حرب وإخوته حرب وطلعت وغاندي

١٩٧٩ - في الأكواريم خلال رحلة كلية الإقتصاد إلى إيلات «أم الرشراش»

Digitized by Birzeit University Library

رام الله ١٩٧٨ - جمعة عائلية

رام الله ١٩٨٠ - غسان مع ابنه فادي في عيد ميلاد الطفل يعقوب أبو نحلة

موسكو ١٩٧٠

رام الله ١٩٨٠ - مع الوالدة أم حرب والوالدة أم خليل

رام الله ١٩٨١- مع عائلة أبو نحلة

Digitized by Birzeit University Library

بفلو ١٩٨٢ - آخر صورة عائلية لعائلة غسان حرب

Digitized by Birzeit University Library

غسان والأصدقاء

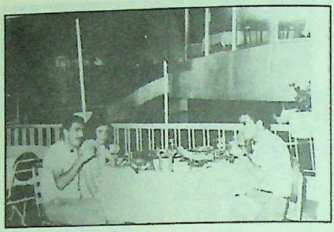

بيروت ١٩٦٩- مع محمد درهلي

سوريا ١٩٦٩- مع الرفاق عبدالله البندك، سمير حداد وهند البندك

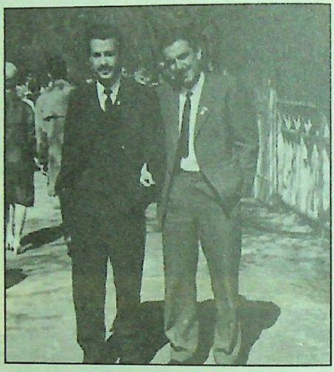

سوريا ١٩٦٩- مع سمير حداد

لينغراد ١٩٦٩

موسكو ١٩٧٠ – مظاهرة الأول من أيار يظهر في الصورة حسين حسنين وعايش عايش

موسكو ١٩٦٩/١٩٧٠ - مع د. أنطون صنصور

Digitized by Birzeit University Library

موسكو ١٩٦٩ مظاهرة ضد الاحتلال الإسرائيلي يظهر في الصورة د. أنطون صنصور وتيسير العاروري

موسكو ١٩٦٩-١٩٧٠ د. أنطون صنصور

موسكو ١٩٧٠ - مظاهرة الأول من ايار

موسكو ١٩٦٩/١٩٧٠ - عزام عبد الحق

سينسيناتي ١٩٨٢- مع د. عادل الزاغة ود. نضال حرب

Digitized by Birzeit University Library

في جامعة بيرزيت مع الزملاء ١٩٨٠ - ١٩٨١

مع د. سعيد هيفا وعلاء الشلبي من جامعة بيرزيت
١٩٨٠ - ١٩٨١

سنة ١٩٨٠ في جامعة بيرزيت - حفل افتتاح المبنى الجديد مع رِما الترزي، وسميحة خليل، ومهدي عبد الهادي وغسان حرب

Digitized by Birzeit University Library

غسان حرب في الولايات المتحدة

بفلو ١٩٨٢ - ١٩٨٣ - يوم قص الأعشاب في بستان البيت
مع فجر وفادي وطارق

بفلو ١٩٨٢ - ١٩٨٣- زيارة الأقارب

بفلو ١٩٨٢ - ١٩٨٣- زيارة الاقارب

فلوريدا ١٩٨٢ - عالم ديزني

فلوريدا ١٩٨٢- بيت نبيلة سالم أخت غسان

فلوريدا ١٩٨٢

Digitized by Birzeit University Library

فلوريدا ١٩٨٢- Chucky Cheese

بفلو ١٩٨٢- مع أبناء العم فريد ويوسف حرب

سان فرنسيسكو ١٩٨٣ - غسان والعائلة مع الأخ حرب والأخت عبلة

سان فرنسيسكو ١٩٨٣ - غسان والعائلة مع الأخ حرب وجمال أبن الأخت عبلة

سان فرنسيسكو جبال اليوسيمتي ١٩٨٣ - مع الأخت عبلة وأولادها إلياس وجمال شامية وعائلاتهما

Digitized by Birzeit University Library

مراسم تشييع الجثمان

Digitized by Birzeit University Library

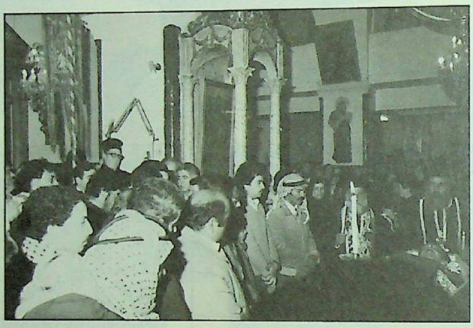

Digitized by Birzeit University Library

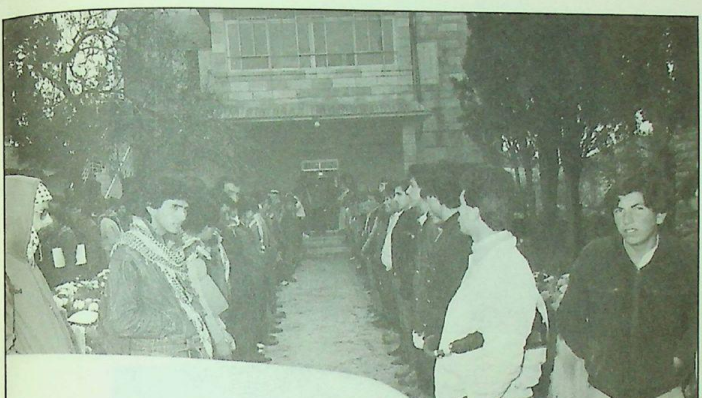

٩ - ١ - ١٩٨٤

الاستاذ غسان حرب
ابو الفجر

في وداع
غسان

Al Fajer 11/1/84

Leading Nationalist Ghassan Harb Dies

Ghassan Harb, 43, a leading Palestinian economist and outspoken patriot was laid to rest at the Ramallah cemetery, January 9. Harb, also known as Abu Fajr, died a day earlier at his home, in Ramallah, after a long struggle with cancer. He is survived by two sons: Fajr, 13, and Fadi, 8.

Thousands of residents from various parts of the occupied territories, led by wreath bearers, attended the funeral.

Harb, who prior to his death taught in and lead the economics department at Bir Zeit University, was politically active all his life and earned the reputation of a hard and dedicated nationalist. Abu Fajr, a Communist activist, angered both the Jordanian government prior to 1967 and the Israeli authorities afterwards. He spent a total of 11 years in jail — eight years in the Jordanian maximum security prison of al-Jafr between 1958 and 1964. He was also held without trial under administrative detention by Israel between 1974 and 1977.

The economist was educated in the Soviet Union, where he earned a masters degree in economics.

Following his release from Israeli jails, Bir Zeit University, where he was employed, sent him on a scholarship to get a PhD in the US. He, however, dropped his plans after he discovered his ailment.

Close associates describe him as a humble person who dedicated his life to serving the working class. He will also be remembered for his regular lectures in economics for unionists.

Digitized by Birzeit University Library

وداعاً غسان حرب

حفل التأبين ١٩٨٤- الشاعر خليل توما عريف الحفل

حفل التأبين ١٩٨٤- عبد المنعم جرجورة يلقي كلمة

حفل التأبين ١٩٨٤- د. عبد اللطيف البرغوثي يلقي كلمة

حفل التأبين ١٩٨٤ - جانب من الحضور

حفل التأبين ١٩٨٤ - تيسير العاروري يلقي كلمة

حفل التأبين ١٩٨٤ - جانب من الحضور

Digitized by Birzeit University Library

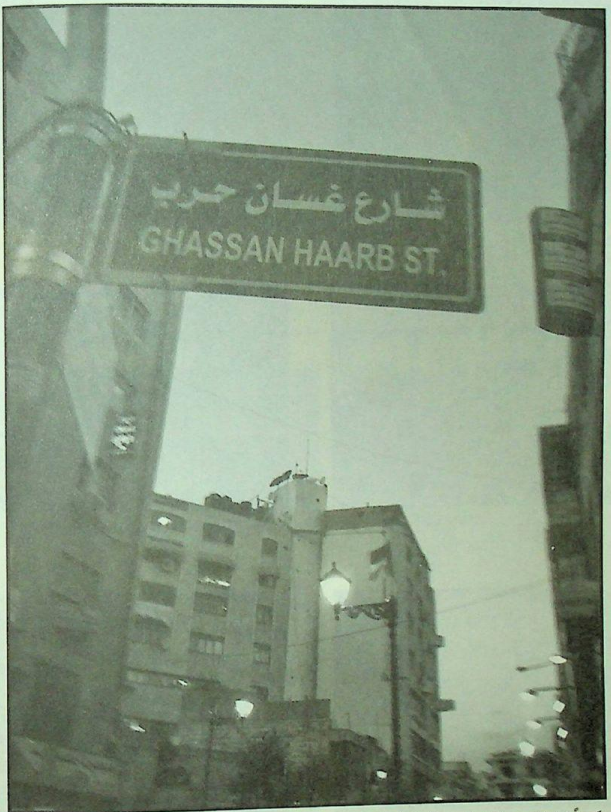

تكريماً لنضالاته وعطائه، قامت بلدية رام الله في عام ٢٠١٥ بتسمية أحد شوارع مركز المدينة باسم غسان حرب

Digitized by Birzeit University Library

الفهرس

هذا الكتاب / محمود شقير ٣

١. شهادات ٧

أنا وغسان / عفاف أبو نحلة حرب ٩

أنا وغسان وعفاف / رقية النجاب وراد ٢٧

غسان حرب.. سنوات الجفر وما بعدها / د. إبراهيم عدوان ٣٠

أبو الفجر، نموذج للعطاء والنضال بهدوء / د. مصطفى البرغوثي ٣٣

في ذكرى الزميل والصديق الأستاذ غسان حرب / د. كمال عبد الفتاح ٣٥

غسان حرب.. حضور دائم في المواقع الجماهيرية / د. عزمي الشعيبي ٣٧

غسان حرب، أبو فجر ذكرى مناضل وطني وأممي مميز / د. عيسى الدباح ٣٩

الأستاذ غسان حرب: النموذج الملهم / د. غسان الخطيب ٤٧

الفجر الذي لم يبدأ بعد.. غسان حرب حملَ بشائره المشرقة / د. عادل الزاغة ٥٢

غسان حرب.. المتواضع المحبّ للناس / نهى البرغوثي ٥٧

المناضل غسان حرب، ما تعلّمته منه كإنسان ثوري ومثقّف عضوي / عصام العاروري ٦٠

غسان حرب.. مثال للوطنية / كريم الدباح - فنان تشكيلي ٦٢

غسان حرب زوج أختي وصديقي الإنسان / د. لميس أبو نحلة ٦٤

غسان حرب كما هو في الذاكرة / د. شوقي حرب ٧٣

قصتي مع غسان حرب / د. عودة أبو نحلة ٧٥

غسان حرب كما عرفته - عاش مناضلًا، وقضى عظيمًا / عدنان داغر ٧٩

Digitized by Birzeit University Library

تسعون يومًا في الكومونة / الدكتور جبرا الشوملي ٨٣
غسان حرب.. الثقة في المستقبل / داود مطر ٨٥
ذكريات عن والدي ومعه / فجر غسان حرب ٨٧
ذكريات مع والدي .. شحيحة بأيامها غنية بمعانيها / فادي غسان حرب ٩٣
ذكريات عن عمي غسان / أمال حرب شامية ١٠٠
الرجل المعلم والقائد المثالي / محمود الشيح ١٠٢
غسان حرب، مناضل ملتزم ومثقف واسع الأفق / محمود شقير ١٠٦
قصيدة - في وداع غسان / الشاعر الشعبي راجح السلفيتي ١١١
رسالة من الشاعر خليل توما..... ١١٣
حكاية من ذكرياتي مع عمّي غسان / حنان طلعت حرب ١١٤
من كتاب أولئك أخواني، ١٩٧٦ (ص. ٦٠-٦١) / فيليتسيا لانغر ١١٦
غسان حرب :ذكرى ساحرة لا تغيب / بسام الصالحي: الأمين العام لحزب الشعب الفلسطيني.. ١١٨
٢. المقالات: ١٢١
في وداع غسان / بشير البرغوثي ١٢٣
في ذكرى غسان / محمد البطراوي ١٢٥
غسان حرب.. المناضل الثوري المحبوب / تيسير العاروري ١٢٧
غسان حرب ذلك الراحل الدائم الحضور / أسعد الأسعد ١٣٠
حوار مع الرفيق خضر العالم «أبو حازم» أجرى الحوار: محمد القهوجي ١٣٢
٣. الملاحق: ١٣٥
ملحق ١: ١٣٧

Digitized by Birzeit University Library

- نعي أستاذ فاضل ومناضل وطني بارز - الطليعة ١٩٨٤/١/١٢..... ١٣٧
- غسان حرب رحل عنّا وذكراه خالدة في ضمير شعبه: تقرير إخباري -الطليعة ١٩٨٤/١/١٢.... ١٣٩

ملحق٢ ..... ١٣٤

حفل التأبين: تقرير إخباري -الطليعة: ١٩٨٤/٣/١٥..... ١٣٤
كلمات في حفل التأبين: ١٤٣
- كلمة الأستاذ د.عبد اللطيف البرغوثي ١٤٣
- كلمة المحامي جريس الخوري رئيس مجلس أمناء الملتقى الفكري العربي ١٤٤
- كلمة منعم جرجورة - عضو لجنة المراقبة في الحزب الشيوعي الإسرائيلي ١٤٧
- كلمة بكر أبو كشك - عميد كلية التجارة ١٤٩

ملحق٣ ..... ١٥٢

بعض من رسائل التعزية ١٥٢

ملحق٤ ..... ١٥٥

- المناضل الفذ والأكاديمي اللامع الذي غادرنا في ريعان عطائه ملخّص لبعض / د. سمير عبد الله... ١٥٥
- غسان حرب.. المناضل والإنسان النبيل / محمد القهوجي ١٦٨

من كتابات غسان: ١٧٤

الاقتصاد المصري إلى أين؟ (الطليعة ٢٨ أيلول١٩٧٨) ١٧٤

مناورة جديدة للبنك الدولي لتحذير الدول النامية (الطليعة العدد ٤)..... ١٧٧

الدعم المالي الأردني للضفة الغربية: هل هو مساعدة أم لغرض في نفس يعقوب (الطليعة العدد ٩). ١٧٩

باقة حمراء لثورة أكتوبر في عيدها الحادي والستين (الطليعة العدد ٣٦) ١٨٢

تحت المجهر - لا يصلح العطار....! (الطليعة العدد ٤/ ١٩٧٨) ١٨٥

تحت المجهر - لكي لا تلحقوا الصي بفروة (الطليعة آذار ١٩٧٨) ١٨٦

تكاليف الصحة في ظل الرأسمالية (الطليعة، العدد ١٢) ١٨٧

حل مشكلة السكن في المناطق المحتلة مسألة حيوية (الطليعة العدد ٢) ١٨٩

هجرة رؤوس الأموال: مدلولاتها وإمكانية إيجاد البديل (الطليعة العدد ١١) ١٩٤

Digitized by Birzeit University Library

أضرار كبيرة يلحقها قرار إلغاء وكالات أملاك الغائبين (الطليعة العدد ١٣) ١٩٧

بعض ملامح التبعية في اقتصاد الضفة الغربية : محاضرة ١٩٩

ملحق ٥ ..... ٢٠٣

من كتاب إسرائيل والتعذيب / الترجمة الكاملة لمقال الصاندي تايمز- قصة غسان حرب كما روتها الصحيفة ٢٠٣

ملحق ٦ ..... ٢٢٣

مسك الختام / دانا فادي غسان حرب ٢٢٣

٤. ألبوم الصور ٢٢٥

Digitized by Birzeit University Library

174818

Digitized by Birzeit University Library

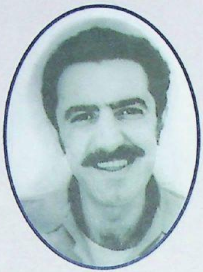

خرجت جنازة غسان من الكنيسة وجابت شوارع رام الله حتى وصلت المقبرة؛ حيث تمّ تأبينه والصلاة عليه قبل دفنه. وفي تلك اللحظة؛ أي لحظة الدفن كانت كلمات فادي؛ الولد الصغير الذي قالها لي وهو ينظر إليّ بعينين صغيرتين "لا تبكِ يا أمي إلّي خلّف ما مات" مؤثرة جداً؛ فهو بسبب صغر سنه لم يكن يدرك معنى الموت أو معنى هذه الكلمات، لكنه كان يردد ما سمعه من المعزين محاولاً بذلك مواساتي والتخفيف عني.

وكانت مشاركة النساء مميزة؛ فقد كانت المرة الأولى التي تمشي فيها النساء في الجنازة والذهاب إلى المقبرة؛ ففي العادة بعد الصلاة على الجثمان في الكنيسة تذهب النساء إلى البيت، ويذهب الرجال إلى المقبرة للدفن. ومن مفارقات الصدف أن السماء كانت في ذلك اليوم تمطر مطراً خفيفاً جداً طوال فترة الجنازة، وكأن الدنيا كانت تودع غسان وتبكيه حزناً.

كم كنت أتمنى لو أن غسان استطاع فتح عينيه؛ ولو للحظة، ليرى بنفسه مدى الحب والتقدير والاحترام الذي كان يكنه له الجميع!

عفاف أبو نحلة حرب

Digitized by Birzeit University Library